الثقافة الجديدة

العدد 337

2010

5- كلمة العدد:

7- ملف العدد: الانتخابات التشريعية في 2010

8- ورقة عمل مجلة الثقافة الجديدة

10- المشهد قبل الانتخابات الاحتماء بالطائفية.....حيدر سعيد

19- انتخابات 2010 خيبة أمل أم بداية أمل.....ضياء الشكرجي

25- انتخابات 2010 وعقابيلها.....عبد الرزاق الصافي

28- خارطة جديدة بفجوات وعلل.....عبد المنعم الاعسم

30- تأملات ما بعد الانتخابات.....رضا الظاهر

33- تلبيات مستحقة لمطاليب عتيقة..... عامر حسن فياض

35- سجل الناخبين " صوت واحد لناخب واحد"..... جاسم الحلفي

مقالات:

39- إشكالية الاقتصاد الانتقالي للأستاذ شارل بتلهايم .....إبراهيم كبة

55- ثنائيات الطبيعة والإنسان والمجتمع.....عبد الكاظم ماجود

64- اصابات العمل ومسؤولية رب العمل..... منذر عباس الأسود

نصوص مترجمة

72- الأساس الطبقي لـ "الماركسيات" الصينية اليوم لروبرت ويل Robert..... ترجمة: عزيز سباهي

79- المتغيرات المناخية الأخرى : جيسيكا سيدون والاك **و** فيرابادران راماناتبان.....ترجمة: د. هاشم نعمة

حوارات

90- حوار مع القاص والروائي العراقي احمد خلف.....حاوره:سعدون هليل

باب: أدب وفن

101- تحية للأستاذ الدكتور شاكر خصباك في عيد ميلاده الثمانين :.....هيئة تحرير مجلة(الثقافة الجديدة)

مقـالات

105- النهايات في قصص (رؤيا خريف) لمحمد خضير.....علي إبراهيم

116- سايكولوجية المثقف في فردوس الثقافة العربية المفقود..... د. فاضل سوداني

127- أوراقي .....محي الدين زه نكه نه

137- قراءه في النص المسرحي العراقي.....أطياف رشيد

قصص قصيرة:

144- الأرق لشبزارى بافيزى.....ترجمة: هلال حميد

147- قصص كردية.....نزار محمد سعيد

قراءات

155- ما بعد الحداثة و تأريخ الأفكار لكريس لانغ .....ترجمة : معين جعفر محمد

شعر:
160- طرقات على باب العذراء.....الفريد سمعان
164- يوميات مدينة..... عبد الستار نور علي

لوحة الغلاف الأول: قاسم حمزة، فنان من العراق له العديد من الجداريات السيراميكية في أماكن مهمة من العراق.
لوحة الغلاف الأخير: سبتي الهيتي، فنان وشاعر أقام العديد من المعارض التشكيلية في داخل وخارج العراق.

كلمة العدد 337

ثمة حدثان نود التوقف عندهما في هذا العدد.

الحدث الأول (وهو محور ملف العدد) يتعلق بالانتخابات البرلمانية التي جرت في العراق يوم 2010/3/7 ونتائجها الأولية معروفة ولن نتوقف عندها. الذي يهمنا الإشارة إليه هنا، وبتكثيف، هو ما يتعلق بالجوانب المختلفة لهذه العملية. ففي جوانبها السلبية، يمكن القول أن هذه الانتخابات شابتها جملة من التجاوزات والثغرات. وإذا تجاوزنا القانون الانتخابي المجحف واللاديمقراطي في العديد من مواده والذي جرى تناوله نقديا في العديد من المناسبات، فهناك من الممارسات ما يطرح العديد من الأسئلة على صدقية وشفافية ونزاهة هذه الانتخابات. وقد انعكس هذا، قبل كل شيء، في حجم الشكاوى المقدمة، وهي في الكثير منها تعد " حمراء "، حسب تصنيفات المفوضية العليا المستقلة للانتخابات بتركيبتها المحاصصية المعروفة، والتي اضطرت أخيرا، بعد رفض الفكرة، الى إعادة العد والفرز في محافظة بغداد، وما ترتب على ذلك من تغيير لمواقع ثلاثة نواب، ومع ذلك ظلت هذه المفوضية تصر بعناد تحسد عليه انه لم يقع أي تزوير!!.

ولكن بالمقابل وبغض النظر عن الملاحظات السلبية والثغرات التي شابت الانتخابات، فان عملية إجرائها تعد خطوة أخرى بالاتجاه الصحيح على طريق تأسيس سليم للممارسة الديمقراطية وترسيخ مبدأ التداول السلمي للسلطة وتعزيز القناعة بان تكون صناديق الاقتراع هي الفيصل المحدد، وبما يمكن من بناء دولة ديمقراطية عصرية. وهي بهذا المعنى تمثل تقدما نسبيا الى أمام ، قياسا لما ساد العراق خلال عقود حكم أنظمة الدكتاتورية والاستبداد والقهر والعسف. ولا بد من تأشير ملاحظة استدراكية مهمة هنا وتتعلق بتوجه ملايين العراقيات والعراقيين ، متحدية الإرهاب والعنف، الى صناديق الاقتراع ، ولكن بالمقابل لم يشارك في تلك الانتخابات ما يقرب من 38% من الذين يحق لهم التصويت، وهي نسبة معتبرة أيضا، بالمعايير العراقية، قياسا الى ما استخدم من أدوات متنوعة لحمل الناخب على التوجه الى صناديق الاقتراع.

الحدث الثاني يتعلق بما أقدمت علية وزارة الثقافة العراقية بشان فك ارتباط الوزارة بمهرجان المربد بجعله " مهرجانا بصّريا خالصا إدارة وتنظيما ودعوات" حسب ما جاء في كتاب دائرة العلاقات الثقافية التابعة للوزارة في 2010/4/11 والموجه الى اتحاد أدباء البصرة، الأمر الذي أثار الكثير من الجدل والنقاش حول طبيعة العلاقة بين وزارة الثقافة من جهة والمثقف العراقي، ممثلا بمؤسساته الثقافية من جهة أخرى. والقراءة الأولية لما أقدمت عليه الوزارة بهذا الشأن تتيح الاستنتاج بأنها تنصلت عن واجبها في دعم وتنظيم الفعاليات والأنشطة التي كانت تقع ضمن نطاق الفعاليات الرسمية لسنوات عدة. ولم يكن حادث المربد دليلا وحيدا على هذه الممارسة الجديدة. فقد تنصلت الوزارة أيضا عن مسؤولياتها في إدارة وتنظيم مهرجان المتنبي الذي أقيم أخيرا في محافظة واسط.

لا نريد هنا من مناقشة هذا القرار من الناحية الفنية – الإجرائية بل من زاوية أخرى تتعلق بنظرة صناع القرار الى المسالة الثقافية. فكما معروف فان هذه المسألة تواجه في لحظة تطورها الملموسة إشكاليات عديدة من بينها تلك المتعلقة بالمشروع الثقافي والسجال الذي يدور حوله بين تيارات مختلفة. وإذ نستثني من هذه التيارات تلك التي هي خارج

التاريخ أو تريد العودة الى " الماضي السعيد " وهي بالتالي لا تستحق التوقف، فإنه يمكن القول أن الإجراء الذي أقدمت عليه وزارة الثقافة لا يمكن القول عنه سوى انه يضعف أية محاولة لصياغة مشروع ثقافي وطني ديمقراطي حداثي يضمن خلق الشروط لازدهار كل التيارات على المستوى الوطني ومتفاعل مع الثقافة على المستوى العالمي بكل تنويعاتها وأبعادها الحضارية.

ومن هنا فانه يمكن القول أن هذا القرار، رغم كل المبررات التي قدمها العديد من المسؤولين في وزارة الثقافة، غير مقبول ولا يخدم تطوير الثقافة الوطنية باعتبارها نقيضا للـ " الثقافة الطائفية ". فلا وجود لثقافة وطنية ديمقراطية وفاعلة إلا في وجودها حاملاً للمشروع الوطني الديمقراطي ومحرضاً عليه ومنقحا لخطواته.

إن بناء المشروع الثقافي البديل الذي بإمكانه اقتحام البنية الفكرية التقليدية التي تجاوزها الزمن وحركة التاريخ والبنية التابعة، مشروع يستطيع كسر القوالب التي تجمدت فصارت عائقا أمام تطور المشهد الثقافي يستلزم إعادة الاعتبار لدور المثقف ودعم مؤسساته وفي مقدمتها (اتحاد أدباء العراق)، ضمن المسعى لخلق التراكم الثقافي والمعرفي المطلوب، والحفاظ على ذاكرة جمعية متقدة في مواجهة إشكاليات الواقع المعقد والمتوتر والمفتوح، وتنمية الوعي بوظيفة الثقافة ودورها التنويري الذي تنهض به في مواجهة مشاريع الاستقطاب والتهميش والعزل والإقصاء والاستبداد أيضا.

ومن هنا فإننا ومن منطلق الحرص الشديد والتطلع الدائم الى بناء مشروع ثقافي وطني وديمقراطي في آن، والى دور متميز للمثقفين ومنتجي المعرفة عموما في هذا المشروع باعتبارهم حملة الإبداع وسالكي الدروب الجديدة، رافعي مشعل الحداثة والتنوير والعقلانية في مواجهة ثقافة الاستبداد والإرهاب وثقافة الخنوع والخوف وتأبيد الواقع، نتضامن مع الدعوات العديدة التي طرحت وفي مقدمتها دعوة اتحاد الأدباء، التي طالبت وزارة الثقافة بضرورة إعادة النظر بقرارها المتعجل بشان (المربد) وما يماثله من قرارات وعرضه للمناقشة الواسعة بما يكفل بناء علاقة وثيقة بين الوزارة والمثقفين وإرسائها على أسس صحيحة انطلاقا من مبدأ الشراكة وليس من منطلق الخنادق المتقابلة.

****

ملف العدد: الانتخابات التشريعية في 2010

ورقة عمل مجلة (الثقافة الجديدة)

في السابع من آذار 2010، أنجز العراقيون الانتخابات العامة لاختيار مجلس النواب القادم، وسط ظروف متوترة وصراعات محتدمة وتحدي لقوى الإرهاب، مدركين أن طريق التغيير لن يكون سهلا.

رافقت العملية الانتخابية جملة من السلبيات والثغرات بدأ من قانون الانتخابات إضافة الى ما يتعلق بسجلات الناخبين وثغرات التصويت الخاص، وأخرها ما جرى بالنسبة للانتخابات في الخارج وما ارتبط بها من ممارسات أفضت الى استبعاد الآلاف تحت ذرائع مختلفة.

ومن جهة ثانية أفضى ظهور النتائج الأولية الى حراك سياسي مثير للانتباه، ووجهت طعون عديدة تشكك بنزاهة الانتخابات وشفافيتها بما في ذلك من طرف بعض الأطراف الفائزة.

ملخص القول انه كان يمكن لهذه الانتخابات أن تشكل محطة أخرى على طريق بناء عراق جديد لكن ممارسات القوى المتنفذة ساهمت في تعطيل تحقق هذه الخطوة، وبددت الأمل في انجاز هذه المهمة ولو الى حين. وبذلك تكون النخب السياسية قد ضيعت فرصة تاريخية لبناء ائتلافات عابرة للطوائف وصراعاتها.

النتائج النهائية الرسمية تعني إن "عراقاً جديداً " بدأت ملامحه ترتسم. ومن المؤكد أن صورته النهائية سيعكسها الاتفاق على تقاسم السلطة بين " الفائزين الكبار " في هذه الانتخابات، علما أن هذا الاتفاق لن يكون سهلا بل معقدا وسيشهد لحظات استعصاء ستكون محفوفة بالمخاطر.

أفضت النتائج الأولية عن " فائزين كبار " كما أفضت في الوقت ذاته عن " خاسرين كبار ". ولكن الخاصية المهمة هنا هي أن صناديق الاقتراع أفرزت واقع عدم قدرة أي كتلة من الكتل الأربع الكبرى الفائزة على تشكيل حكومة لوحدها، بل تحتاج إلى التحالف ربما مع كتلتين أو ثلاث. ورغم أن هذه الكتل فازت بالجزء الأعظم من أصوات الناخبين مما يساعد موضوعيا على تشكيل الحكومة المقبلة، غير أن واقع المفاوضات بين هذه الأطراف، والتي انطلقت حتى قبل ظهور النتائج تدلل على أن الطريق لبناء " حكومة شراكة وطنية " لن يكون سهلا. ولا ننسى هنا دور العاملين الإقليمي والدولي وتدخلاتهما، المرئية والمضمرة، لبلورة صفقة تطمن مصالح وأجندات متصارعة.

وبغض النظر عن التجاوزات التي رافقت هذه الانتخابات وما شابها من نواقص وثغرات وما استندت إليه من قانون انتخابي مثير للجدل، فان ثمة حاجة لقراءة مركبة لهذه الانتخابات وماترتب عليها من حصيلة فعلية وتناسب قوى جديد. ونعتقد أن هذا يتطلب تدشين نقاش عميق بإمكانه أن يساهم في الكشف عن الدلالات الكبرى والمعالم الأساسية لنتائج الانتخابات ورهاناتها. في ضوء ذلك ارتأت هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) أن تكرس ملف العدد القادم (337)، والمؤمل أن يصدر في أواخر حزيران 2010 للنقاش حول الانتخابات التشريعية الأخيرة. وتسهيلا لذلك نطرح المحاور التالية مؤكدين في ذات الوقت على ضرورة أن لا تزيد كل مساهمة عن 1000 كلمة. وفي حال وجود إمكانية لتقديم دراسة أو بحث فان السقف الأعلى في مثل هذه الحالات سيكون 2500 كلمة. ويمكن للمساهمين الكتابة حول محور واحد أو عدة محاور مع الرجاء بالمساحة المخصصة لكل مشارك.

محاور النقاش المقترحة

- ابرز معالم النتائج التي تمخضت عنها انتخابات آذار 2010 ودروسها الأساسية ودلالاتها الكبرى.
- دور قانون الانتخابات في هذه النتائج.

- طبيعة الائتلافات التي خاضت الانتخابات والى أي حد اختلفت في مضامينها عن الائتلافات السابقة التي خاضت انتخابات 2005.
- ما هي طبيعة الاصطفافات السياسية ومعالمها الكبرى ونتائجها المحتملة وما ستتركه من آثار على تطور السلطة السياسية والعملية السياسية عموما؟
- أسباب تواضع نتائج قوى التيار الديمقراطي رغم أنها راهنت على خيار عابر للطوائف والاثنيات.
- دور المفوضية العليا المستقلة للانتخابات في تسيير العملية الانتخابية بكل مراحلها.
- دور بعثة الـ (يونامي) وبعثة الجامعة العربية، والأطراف الدولية الأخرى.
- دور المال السياسي.
- العاملان الإقليمي والدولي وتدخلاتهما المرئية والمضمرة.
- أية قضايا أخرى يمكن طرحها من طرف صاحب المساهمة.

المشهد قبل الانتخابات

الاحتماء بالطائفة عن الانتخابات النيابية في العراق

د.حيدر سعيد

كنتُ قد توقّعتُ، في تحليل سابق لنتائج انتخابات مجالس المحافظات في العراق، التي جرت في أواخر كانون الثاني/ يناير 2009، أن ينمو شكل جديد من الاصطفافات السياسية، يتمثل في بناء كتل (وطنية)، تقوم على تحالف بين قوى ذات نزعة مركزية، شيعية، يمثّلها ـ على نحو أساسي ـ تيارُ رئيس الوزراء نوري المالكي، وتكون القوى السنّية عنصرا أساسيا في هذا التحالف، إذ أنها يمكن أن تدعم تحالفا وطنيا واسعا في مقابل صفقة تحوز فيها على منصب (رئيس الجمهورية)، الذي يطمح السنّة في الحصول عليه [1]. كنتُ أفترض أن الديناميكية السياسية القائمة في العراق تتمثل في الاتجاه نحو بناء كتل (وطنية)، وذلك بالانتقال من الكتل الطائفية الكبرى التي تشكّلت وشكّلت المشهد السياسي سنتي 2004 و2005، وتفكّكت ـ عمليا ـ داخل الممارسة السياسية والبرلمانية منذ سنة 2007 إلى مجموعة من الكتل الطائفية الصغيرة، أقول: الانتقال إلى إعادة تركيب كتلة (وطنية) تجمع عددا من الكتل الطائفية الصغيرة، وعلى وفق الخطة الآتية:

كتل طائفية كبرى ← كتل طائفية صغيرة ← إعادة تركيب كتلة وطنية تمثل تجميعا لعدد من الكتل الطائفية الصغيرة.

إن صفة (الوطنية)، هنا، لا تستعيد المعنى الكلاسيكي لـ (الوطنية)، الذي يعني تذويب الهويات الطائفية والإثنية، بل تعني أن (الهوية الوطنية) تتشكل من مجموع هذه الهويات، بمعنى أن هذه الكتلة الوطنية لن تُعرَّف بنسيان الهويات الطائفية، بل بكونها تجميعا لهذه الهويات في ائتلاف واحد، وهو ما يمكن أن يقلب منظور (الوطنية) ويعيد تعريف معنى (الوطنية العراقية) نفسها [2].

كان يمكن لهذه الكتلة الوطنية (المتصوَّرة) أن تمثِّل نقلة حاسمة في العملية السياسية في العراق، من جهتين: أنها ستعمل على بناء تنافس على تمثيل الطائفة، وأنها ستعمل على بناء ائتلاف تأريخي لإدارة السلطة.

غير أن هذا التوقع لم يحدث، ومضت العمليةُ السياسية، قبيل الانتخابات النيابية المقرَّر إجراؤها في آذار/ مارس 2010، باتجاه إعادة بناء كتل طائفية كبرى. يحدث هذا، دائما، في اللحظات المفصلية، كلحظة كتابة الدستور، أو تحديد شكل النظام السياسي، أو تشكيل الحكومة، أو انتخابات نيابية حاسمة ومهمة، كالتي يُقبل عليها العراق، أو ما إلى ذلك.

وتحدث هذه العودة في جو من التعبئة الطائفية، يذكِّر تماما بالأجواء التي سادت الاستفتاء على مسوّدة الدستور والانتخابات النيابية سنة 2005.

لقد أعاد فشل مشروع بناء كتلة (وطنية) الجميعَ إلى العصبية الطائفية، التي يبدو أن التعبئة لها أسهل أنواع التعبئات، وقد خاض المجتمعُ السياسي العراقي تمرينا معقّدا عليها، وأثبتت نجاعتَها خلال السنوات التي أعقبت سقوط نظام صدّام حسين، حين بدا الجمهورُ العراقي طيّعا أمام مثل هذه التعبئة.

ومن ثم، أضاعت النخبةُ السياسية فرصة تاريخية لبناء ائتلاف وطني، وهي الفرصة التي أفرزها الواقعُ السياسي الذي شكّلته انتخاباتُ مجالس المحافظات السابقة. ولعل المسؤول الأول عن ضياع هذه الفرصة هو رئيس الوزراء المالكي، الذي حقّقت القائمةُ التي يتزعمها (ائتلاف دولة القانون) فوزا كبيرا في هذه الانتخابات. وقد عُدّت الانتخاباتُ السابقة تكريسا له بوصفه زعيما قويا، ولتياره بوصفه أحد التيارات الأساسية في المشهد السياسي. لقد عمل فوزُ قائمة المالكي في انتخابات مجالس المحافظات على إعادة ترتيب وصياغة موازين القوى داخل المشهد السياسي الشيعي، وكان هذا الفوزُ عتبة مهمة في إعادة صياغة خطاب الإسلام السياسي الشيعي، من التعبير عن الهوية الطائفية إلى التأكيد على فكرة (الدولة)، كما أنه عبّر عن صعود تيار قوي ينادي بـ (المركزية)، بعد سنوات من سحر النموذج اللامركزي. وبخلاصة مكثّفة، كان هذا الفوزُ تعبيرا عن نموّ صيغة سياسية داخل المشهد السياسي الشيعي، وهي الصيغة التي أسمِّيها (الوطنية الشيعية)، التي تتحدد بأنها ذات نَفَس مركزي، وعروبي، بما يعني أن هذه الوطنية هي وطنية معارِضة لإيران، ترفض تذويب التشيع العراقي في التشيع الإيراني الإمبراطوري، وأنها تميل إلى اختيار صيغة لتقاسم سلطة، وشراكة سياسية، وتعايش اجتماعي، مع سائر المكونات العراقية، ولا سيما السنّة، في مقابل التيارات السياسية الشيعية التي عبّرت عن صيغ لاحتكار السلطة، سواء باسم (الأغلبية الديموغرافية)، أو باسم (المظلومية)، أو تحت أي اسم آخر [3].

المالكي والفرصة التأريخية الضائعة

لقد كان ثمة توقّع واسع بأن يفيد المالكي من الخريطة السياسية الجديدة التي أفرزتها انتخابات مجالس المحافظات، ويتخذ مشروعُه السياسي نحوَ الانتخابات النيابية المقبلة ثلاثةَ مسارات: أن يعمل على بناء ائتلاف (وطني)، يجمع ـ على نحو أساسي ـ القوى ذات النزعة المركزية، القريبة من رؤيته السياسية، وأن يُظهِر بوضوح أنه يعبِّر عن تيار سياسي شيعي عروبي متمايز عن التيارات السياسية الشيعية الموالية لإيران، وأن يُظهِر أنه ضحية نظام المحاصصة، الذي بنته العمليةُ السياسية خلال السنوات الماضية، والذي جعل منه زعيما لدولة مقيَّدة. غير أن المالكي، وإن أطلق بوادر لهذه المسارات الثلاثة، فإنه لم يمض فيها إلى النهاية، وقد كان بإمكانه أن يجعل منها محورا لمشروعه.

وبالتوازي، تراجعت ـ على نحو كبير ـ الشعبيةُ التي حازها المالكي عقب انتخابات مجالس المحافظات، وذلك لأكثر من سبب، منها التفجيرات الضخمة والنوعية التي شهدتها مبان تابعة لوزارات ومؤسسات دولة أساسية بدءا من آب الماضي، الأمر الذي ألقى ظلالا من الشك على قدرة الحكومة على مواجهة الجماعات المسلّحة وتنظيم القاعدة، ومنها مشكلة اجتثاث البعث التي أفقدت المالكي قبولَه لدى الجمهور السنّي، الذي صنعته مواجهته للميليشيات الشيعية وللطموحات الكردية، غير أن السبب الرئيس ـ في تصوّري ـ يرجع إلى خيبة أمل الجمهور الشيعي من الإدارات المحلية للمحافظات الشيعية الثماني والعاصمة بغداد، التي تشكّلت وتولّت الإدارة عقب انتخابات مجالس المحافظات الأخيرة. هذه الإدارات يسيطر عليها (ائتلاف دولة القانون)، الذي يقوده المالكي. ومن ثم، كان الصوتُ الذي أعطاه إياه الجمهورُ الشيعي في انتخابات مجالس المحافظات يتبدّد في خيبة الأمل من الإدارات التي جاءت بها هذه الانتخابات.

ربما يرجع فشلُ المالكي إلى أنه لم يكن مهيَّأ للتعامل مع حالة الفوز التي حقّقها في انتخابات مجالس المحافظات، تماما كما لم تكن حركة حماس مهيّأة للتعامل مع فوزها في الانتخابات التشريعية الفلسطينية سنة 2006، غير أن فشل المالكي هذا يخضع ـ على ما أتصوّر ـ لثلاث عقد تحكم العملية السياسية في العراق:

العقدة الأولى هي (عقدة المركز)، وهي العقدة التي تتشكّل من التعارض بين سعي الأطراف المشاركة في اللعبة السياسية إلى وجود مركز ضعيف، وهو ما بدا أنه تقليد فرضه النظام التوافقي خلال السنوات الماضية، وأنه الضمانة الوحيدة لحيوية دائمة للشراكة في السلطة وعدم انفراد جهة ما فيها، ولذلك، كانت سائر الأطراف السياسية تعمل على إبقاء المركز ضعيفا، وبين الديناميكية التي تقود المركز، وأي شخص يتولى إدارته، إلى توسيع صلاحياته وتعزيزها وتقويتها. وقد كان المالكي تجسيدا لهذه الديناميكية، من خلال مشروع المركزة الذي قدّمه خلال السنتين الماضيتين، سواء في حصر الصلاحيات الأمنية، أو في مركزة القرار، أو ربط المؤسسات السياسية به، بما في ذلك السلطات المتعددة، والهيئات المستقلة، والإدارات المحلية. ولذلك، كانت سائر الأطراف السياسية تتخذ مشروعا معاديا لمشروع المركزة هذا: حلفاؤه الشيعة الذين تعاملوا مع هذا المشروع على أنه إقصاء لهم، والأكراد الذين لا يزالون يخافون من مركز عربي قوي ينقلب عليهم، والسنّة الذين يعارضون مركزا قويا يهيمن عليه الشيعة.

غير أن القوة السياسية التي اكتسبها المالكي بعد انتخابات مجالس المحافظات الأخيرة والشعبية والحضور اللذين حازهما في السنتين الماضيتين بسبب المعارك التي قادها ضد الميليشيات، جعلا الأطراف السياسية تتعامل مع (عقدة المالكي) بالأسلوب الآتي: أن تفكر وتعمل على بديل له، وتتعامل في الوقت نفسه مع احتمال أنه باق في السلطة.

العقدة الثانية هي عقدة البقاء في السلطة من خلال وحدة طائفية صلدة. وتحديدا، يتجه تفكير الأطراف التي تعمل على سيطرة شيعية دائمة على الحكم في العراق إلى أن هذه السيطرة تتحقق من خلال كتلة سياسية موحّدة لسائر الأطراف الشيعية. وعلى نحو خاص، يسيطر هذا النمطُ من التفكير على جهتين لهما تأثير كبير في القرار السياسي الشيعي في العراق: المؤسسة الدينية في النجف، وإيران، التي تفكر بأن نفوذها الكبير في العراق يتأتى من وجود ودعم كتلة سياسية شيعية موحّدة، وتخشى من أن انقساما شيعيا قد يفقدها هذا النفوذ. وقد بات معلوما أن الحكومة الإيرانية دعت ورعت، في خريف 2009، مفاوضات في طهران بين الكتلتين السياسيتين الشيعيتين الرئيستين (ائتلاف دولة القانون، والائتلاف الوطني العراقي) لكي يدخلا الانتخابات النيابية القادمة كتلة واحدة.

وبلا شك، إن سائر النسيج السياسي الشيعي، وفي الصدارة منه المالكي، يتأثر بمثل هذه الضغوط.

أما العقدة الثالثة فهي عقدة التمثيل السياسي على أساس طائفي. وهذا لا يقتصر على النخبة السياسية الشيعية، التي تركّز الحديث المتقدم عنها، بل هو يشكل قانون وروح اللعبة السياسية في العراق.

لقد اتجه التفكيرُ السياسي السنّي، عشية الانتخابات النيابية، إلى محاولة استغلال الانقسام الشيعي، فقد عوّلت النخبةُ السياسية السنّية كثيرا على هذا الانقسام لكي تعبر إلى السلطة من خلاله، وذلك عبر ائتلاف كبير يضم القوى السنّية الرئيسة ("الجبهة العراقية للحوار الوطني"، التي يتزعمها النائبُ صالح المطلك، وتيار "تجديد"، الذي يقوده نائبُ رئيس الجمهورية والأمين العام السابق للحزب الإسلامي طارق الهاشمي، وتجمع "عراقيون"، وهو قوة سياسية محلية انطلقت في محافظة نينوى مع انتخابات مجالس المحافظات الأخيرة ويتزعمها النائب أسامة النجيفي، و"القائمة العراقية"، وهي الكتلة البرلمانية التي يتزعمها النائبُ ورئيس الوزراء الأسبق إياد علاوي، الذي يتحدّر من أصول شيعية، وسأشرح لاحقا كيف أنه أصبح يُعدّ زعيما سنّيا)، وهو الائتلاف الذي أُطلق عليه اسم (ائتلاف العراقية)، الذي أُعلن في أواسط كانون الثاني/ يناير الماضي، بعد تفكير ومفاوضات داما أشهرا، ويُتوقَّع أن يستقطب الصوتَ السنّي. لقد كان وجود كتلة سنّية موحّدة أحد الدوافع المباشرة التي حملت النخبةَ السياسية الشيعية على التفكير بإعادة بناء كتلة شيعية موحّدة.

في أواسط 2005، كنتُ أتحاور مع عدد من السياسيين السنّة، الذي تولوا لاحقا مناصبَ عالية جدا في الدولة العراقية. كان ثمة شعور لديهم بأن قرارهم بعدم المشاركة في الانتخابات النيابية في كانون الثاني 2005 كان قرارا خاطئا، وثمة قرار بالمشاركة في انتخابات كانون الأول 2005. سألوني عن قراءتي لقرار الناخب الشيعي، قلتُ إنه مضى خطوة إلى الأمام في عدم التصويت على أساس طائفي، ولكن، لو كانت ثمة كتلة سنية، فإنه سيصوِت على أساس

طائفي. وبالفعل، كان (الخطأ) الثاني للساسة السنة، وريثي وبناة الوطنية العراقية، أنهم لم يستطيعوا أن يبدعوا من إطار تمثيلي سوى الإطار الطائفي، الذي عبّرت عنه منذ 2005 (جبهة التوافق)، وهي الجبهة التي جمعت القوى السنّية الرئيسة آنئذ. غير أن هذا استدعى كتلة شيعية صلدة مقابلة.

واليوم، يسير الساسة السنّة في الطريق نفسه.

وحتى لو سلّمنا بوجود حركة سنّية جادّة نحو بناء خطاب وطني (وقد أكون ممّن يلمسون مثل هذا الأفق)، فإنهم ـ في النهاية ـ لم يُنتجوا سوى كتلة طائفية. قد يرجع هذا إلى تسرّب تقاليد الوطنية التي شكّلت الوعي السني إلى تحركهم السياسي الراهن، والتي تجعل من الفضاء السنّي قاعدةَ ومنطلق الوطنية، من دون التفكير بإمكانية طرق أو صيغ أخرى للوطنية. ومن ثم، كانت (الوطنية السنية) ذات محتوى قومي عربي، وهو ما يتسرب إلى الخطاب السني الراهن، الذي يظهر محمّلاً بهذا النفَس.

الطائفية السياسية عبر وسيط علماني

تكشف دراسة حالة (القائمة العراقية) والتحولات التي عاشتها بين تشكلها لخوض الانتخابات النيابية سنة 2005 وبين مسارها لانتخابات 2010 عن الطابع الطائفي الذي يحكم اللعبة السياسية في العراق. فهذه القائمة انطلقت لتعبِّر عن فكرة (القوة الثالثة)، أو (القوة الوسطية) التي تبحث عن طريق ثالث للتمثيل السياسي غير الطريقين الطائفيين اللذين اتخذتهما القوى السياسية الرئيسة آنئذ، الطريق الشيعي والطريق السني، وتجسّدا ـ على نحو أساسي ـ في قوى الإسلام السياسي. ومن ثم، طرحت (القائمةُ العراقية) فكرةَ التمثيل عبر الهوية الوطنية العراقية، وعبر خطاب علماني لاديني.

غير أن مسار هذه القائمة منذ تلك اللحظة يكشف عن قلق الطريق الثالث.

يمكن لدراسة السلوك البرلماني لـ (القائمة العراقية) خلال الدورة البرلمانية المنقضية عبر السنوات الأربع الماضية أن يكشف عن نتائج مثيرة عن مجمل السلوك البرلماني في العراق، إذ لم تستطع هذه القائمةُ من أن تحافظ على نفسها بوصفها كتلة منسجمة في الممارسة البرلمانية، ولم تستطع أن تتمسك أو تظهر التعبير عن تيار ثالث مغاير، وكان الكثير من أعضائها يصوّتون، في لحظات مناقشة القرارات والقوانين المثيرة لجدال طائفي، على أسس طائفية أو سياسية لا تعبّر عن (طريق ثالث).

وهكذا، كانت تفقد تدريجيا الكثيرَ من أعضائها الذين رأوا أنها خرجت عن فكرتها الأصلية، أو أنها اتخذت مسارا سياسيا لا يلائم توجهاتهم، ولا سيما أنها اتجهت (أو في الأقل زعيمها إياد علاوي) إلى استقطاب ومخاطبة الجمهور السني وبناء خطاب سياسي يعبِّر عن الرأي العام السنّي، بدليل ما حصلت عليه القائمةُ في انتخابات مجالس المحافظات السابقة، فقد تركّزت نتائجُها الأساسية في المحافظات السنّية (الأنبار، وديالى، وصلاح الدين)، الأمر الذي فُسِّر بأن التوجهات السياسية للقائمة تبدو أكثر قبولا في المحافظات السنية منها في المحافظات الشيعية[4].

إن هذا التحوّل التراجيدي الذي عاشته القائمةُ العراقية من فكرة (الوسطية) إلى التعبير عن هوية طائفية هو جزء من قوانين اللعبة السياسية القائمة في العراق الآن ومن النظام الذي تزداد ملامحُه حدة وقوة، والذي بات يُخضع ويُدمج داخله كل التعبيرات السياسية التي تشذ عنه.

غير أن المعطى الأكثر أهمية، هنا، هو أن البناء الطائفي لم يعد مقصورا على النخب الدينية، بل إنه الآن يُنجَز بأداة علمانية. والمثال الأكثر أهمية على ذلك هو التحول البنيوي العميق الذي شهدته النخبةُ السياسية السنّية، من المحتوى الإسلاموي، الذي عبّرت عنه (جبهة التوافق)، إلى المحتوى العلماني القومي، الذي يعبِّر عنه (ائتلاف العراقية). وإذا كان هذا التحوّل دليلا على القلق الذي يرافق صناعة النخبة السياسية السنّية، التي نرى أنها تُصنع الآن بعد أن وقفت

سيطرةُ نظام البعث على الفضاء السياسي السنّي عائقا دون نموّ نخبة سياسية سنّية [5]، فإنه ـ أيضا ـ دليل على تحوّل البناء الطائفي إلى داخل الفضاء العلماني.

وفي الإطار نفسه، نفهم المشكلةَ التي أثارتها (هيئةُ المساءلة والعدالة) في مطلع كانون الثاني/ يناير الماضي، وهي الهيئة المكلّفة بـ "تفكيك منظومة حزب البعث في المجتمع العراقي ومؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني فكرياً وإدارياً وسياسيا وثقافياً واقتصادياً"، بحسب ما يقول قانونها، وذلك باستبعاد المئات من المرشّحين للانتخابات النيابية القادمة، ومنهم عدد من أبرز الزعماء السنّة، من قبيل النائب صالح المطلك، الذي كشفت انتخاباتُ مجالس المحافظات السابقة أنه بات يتزعم أكبر قوة سنّية [6].

لقد وضع فشلُ الأطراف السياسية العراقية في بناء كتلة وطنية الجميعَ أمام مواجهة طائفية مكشوفة. ولعل الملامح التي حاولتُ وصفَها فيما تقدّم (بناء ائتلاف سنّي كبير، ثم ائتلاف شيعي مقابِل، حتى وإن كان ائتلافا وقتيا عقب الانتخابات النيابية لضمان تشكيل حكومة بزعامة شيعية) هي عناصر في هذه المواجهة. غير أن العنصر الأكثر حدّة، هنا، هو الاستبعاد الذي طال زعامات سنّية ومرشحين بارزين بدعوى شمولهم بإجراءات (هيئة المساءلة والعدالة).

وعمليا، أنا لا أتصوّر أن المشكلة القائمة تتعلق فعليا بتراث حزب البعث، الذي حكم العراق لنحو أربعة عقود وأنتج نظاما شموليا استباديا، ومحاولة تصفيته أو تفكيكه، بل لقد أصبح (البعث) فضاء يُخاض داخله الصراعُ الطائفي.

لقد كانت الستراتيجية الأساسية التي اعتمدتها النخبةُ الشيعية الحاكمة في هذا الصراع هي بناء تدريجي ومعقّد لمطابقة سياسية بين (البعث) و(السنّة). ومن ثم، تكون ورقة (البعث) ورقة تستعملها في اللحظات التي يُستعاد فيها الصراعُ الطائفي. وقد كانت الأداة التي خِيض بها هذا الصراع هي مؤسسات الدولة الدستورية والقانونية (ومنها "هيئة المساءلة والعدالة")، مع تأويل سياسي للدستور والقوانين نفسها التي كانت النخبةُ الشيعية الطرفَ الأساسي في كتابتها وصياغتها. وبالفعل، كانت النخبةُ الشيعية الحاكمة تستعمل وتوظِّف هذه المؤسسات في الصراع الطائفي [7]، تماما كما استعملت أجهزة الدولة الأمنية في النزاع الطائفي الذي اندلع عقب تفجير ضريح الإمامين العسكريين في مدينة سامراء في شباط/ فبراير 2006. وهو ما يعني تراجع مشروع (بناء دولة القانون)، الذي أطلقه المالكي.

وبالأحرى، كان تراجع مشروع بناء ائتلاف وطني يعني ويستلزم تراجعا في مشروع بناء الدولة.

توافقية بمحتوى ديمقراطية تنافسية

قلتُ سابقا إن ثمة فكرة (لم تنضج وتصبح قراراً بعد) تدور بين (ائتلاف دولة القانون) و(الائتلاف الوطني العراقي) بالتحالف بعد الانتخابات لتشكيل حكومة، يسيطر عليها الشيعة من جديد.

وعلى نحو عام، تنبني داخل النخبة الشيعية الحاكمة رؤية بضرورة تعزيز سيطرتها، سواء على المؤسسة الأمنية والعسكرية، أو القرار السياسي، أو المؤسسات التنفيذية للدولة، أو التخطيط الاقتصادي، بمعنى أنها تقود مشروعاً لاحتكار وحصر أكثر للصلاحيات، وذلك انطلاقاً من تفسير تتبناه بأن الخلل الذي شاب عملَ الدولة في المرحلة السابقة إنما يرجع إلى توزيع السلطات والصلاحيات، وفق الصيغة التي تُعرَف باسم (الديمقراطية التوافقية).

ويبدو أن النخبة الشيعية ستعمل، بعد الانتخابات، على بناء ائتلاف حاكم من عدد محدود من الكتل السياسية، التي لا تمثل ـ بالضرورة ـ سائر مكونات المجتمع العراقي. وهو ما يعني العودة إلى نظام أكثروي، والخلاص من تقاليد النظام التوافقي، الذي حاول الأمريكان إرساءه في العراق ما بعد 2003، بوصفه النظام الأكثر صلاحية لمجتمع تعددي، على غرار المجتمع العراقي.

لقد كان واضحاً من تصريحات المالكي أن النية تتجه إلى تشكيل ما سمّاه (حكومة أغلبية) [8]، وهو التصور نفسه الذي يتبناه (الائتلاف الوطني العراقي). يقول هادي العامري، رئيس منظمة بدر والقيادي في الائتلاف، إن الائتلاف يعارض تشكيل حكومة وحدة وطنية و"أن أفضل ما يخدم الديمقراطية في العراق هو حكومة تضم فصائل سياسية لها نفس التوجه الفكري في مواجهة معارضة قوية قادرة على تقييد سلطاتها" [9]. وبصراحة أكثر، يقول عبد الهادي الحساني، عضو الائتلاف: "إذا ما أتى مكون بأغلبية في الانتخابات فستشكل هذه الكتلة أو المكون الحكومةَ، [. . .] ولا يمكن تشكيل حكومة توافق وطني في المستقبل لان حكومة التوافق ستكون ضعيفة" [10].

هذا، في تصوّري، خطوة أخرى في النزوع الذي تتخذه النخبةُ السياسية الشيعية في معارضة النظام التوافقي. وإذا كنتُ قد افترضتُ، سابقاً، أن دستور 2005، الذي كان للنخبة الشيعية الدور الأكبر في صياغته، قد قضى على عناصر أساسية في النظام التوافقي الذي تضمنه (قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية TAL)، الذي أقرّته (سلطةُ الائتلاف الموقتة CPA) في آذار/ مارس 2004 [11]، فإن ما يجري اليوم هو خطوة أبعد، . . خطوة تحاول أن تتم مشروع استبدال التقاليد التوافقية، التي طبعت النظام السياسي لعراق ما بعد صدّام، والعودة إلى نظام أكثروي.

وبالأحرى، إن ما تحاوله النخبةُ الشيعية هو إعادة تعريف العلاقة بين الأركان، أو المكوّنات، أو النخب السياسية التي كوّنها نظام توافقي يقوم على أساس الهويات الإثنية أو الدينية أو الطائفية، وجعلها علاقة تقوم على قوانين الديمقراطية التنافسية، التي يمكن أن تكون صالحة لنموذج قومي كلاسيكي. وبكلمة مختصرة: ما تحاوله النخبةُ الشيعية هو تفريغ النظام التوافقي من محتواه، وبناء توافقية بروح ديمقراطية تنافسية.

يحدث هذا في ظل افتراض (غير مؤكّد) تتبناه النخبةُ الشيعية، وهو أن الكتل السياسية الحالية لا تعبّر عن هويات، على نحو ما كان عليه الحال سنة 2005، بل هي كيانات (وطنية). وبالتالي، لا تعبِّر الأغلبياتُ والأقليات الناتجة عن الانتخابات عن وضعية ديموغرافية، بقدر ما هي أغلبيات وأقليات سياسية، نسبية وغير ثابتة، الأمر الذي يجعل تداول السلطة بينها أمراً ممكنا وحيوياً.

ولكن، لو فهمنا الكيانات الحالية بأنها كيانات معبِّرة عن هويات طائفية وإثنية، في ظل البرهان الذي حاولت هذه المقالةُ أن تعرضه وتدافع عنه، فإن هذا النظام سيضعنا أمام المفصل الآتي: حاكم أبدي، ومعارض أبدي، من دون شراكة في السلطة. وهذه هي العتبة نفسها التي قادت العراقَ إلى نزاع أهلي عنيف، إذ لم يكن بمقدور الآليات الديمقراطية أن تعبِّر عن مصالح سائر الجماعات في ممارسة السلطة وحيازتها والوصول إليها. ومن ثم، اختُزل تداول السلطة بكونه تداولاً داخل نخبة جماعة محدّدة.

وهكذا، سيكون أمام النخبة الشيعية، والنخبة السياسية العراقية عموماً، رهانان مفهوميان:

الأول هو هل النظام التوافقي هو، فعلاً، النظام الأكثر صلاحية للعراق إذا فهمناه وتعاملنا معه على أنه بلد تعددي، أم ينبغي له أن يختار نموذجاً قومياً بفهم أنه يمثل أمة واحدة، وأن الانقسامات والصراعات والتعبيرات الهوية الحالية هي عَرَضية، وخارجية، وغير أصيلة؟ ومن ثم، هل التوافقية هي آلية للاستقرار أم طريقة للتقسيم؟

والرهان الآخر هو هل المشكلات التي اعترضت النظام السياسي لعراق ما بعد صدّام تخص جوهر النظام التوافقي أم أنها تتعلق بشكل وصيغة التوافقية التي اختيرت؟ وهل تكون معالجةُ خلل التوافقية بالعودة إلى نظام أكثروي، أم بتطوير وإنضاج النموذج التوافقي؟

الهوامش:

(1) يُنظَر: *وطنية شيعية صاعدة ولامركزية هادئة: قراءة في انتخابات مجالس المحافظات في العراق/ كانون الثاني 2009*، حيدر سعيد، مركز الأبحاث العراقية، بغداد، 2009، ص 22.

(2) يُنظَر: العراق أمام (شبح) المركزية، حيدر سعيد، مجلة *آفاق المستقبل*، مركز الإمارات للبحوث والدراسات الإستراتيجية، أبو ظبي، السنة الأولى، العدد 1، 2009، ص 14.

(3) يُنظَر: *وطنية شيعية صاعدة ولامركزية هادئة*، ص 3، 5، و: العراق أمام (شبح) المركزية، ص ص 12 - 13.

(4) حصلت (القائمة العراقية الوطنية)، في انتخابات مجالس المحافظات السابقة، على 26 مقعدا، 11 منها في محافظات البصرة وبابل والديوانية وواسط، و10 في محافظات الأنبار وديالى وصلاح الدين ، فضلا عن 5 مقاعد في العاصمة بغداد، بمعنى أن نسبة ما حصلت عليه القائمة في المحافظات السنّية هي (8,1%)، وهي ضعف النسبة التي حصلت عليها في المحافظات الشيعية، والتي تبلغ (4,4%) (يُنظَر: *وطنية شيعية صاعدة ولامركزية هادئة*، ص 6).

(5) يُنظَر: الإشكالات المنهجية لدراسة السنّة في العراق: تحولات النخب وصناعة الهوية، حيدر سعيد، جريدة *أوان*، الكويت، العدد (228)، 4/ 7/ 2008، ص 15.

(6) يُنظَر: *وطنية شيعية صاعدة ولامركزية هادئة*، ص 18.

(7) لنلاحظ أن (هيئة المساءلة والعدالة)، التي اتخذت قرارات الاستبعاد، تُدار الآن من أطراف سياسية داخلة في اللعبة والصراع الانتخابيين، فرئيسها بالوكالة، أحمد الجلبي، ومديرها التنفيذي، علي فيصل اللامي، مرشّحان للانتخابات النيابية القادمة على قائمة (الائتلاف الوطني العراقي).

(8) يُنظَر: لتواصل الإعلاميين مع دولة رئيس الوزراء، على الموقع الإلكتروني لـ (المركز الوطني للإعلام) التابع للأمانة العامة لمجلس الوزراء في جمهورية العراق، على الرابط الإلكتروني الآتي: http://www.nmc.gov.iq/pmmeet_answer.htm .

(9) قيادي في الائتلاف العراقي: نساند وجود معارضة قوية داخل البرلمان، رويترز العربي، على الرابط الإلكتروني الآتي: http://ara.reuters.com/article/topNews/idARACAE61N0LV20100224.

(10) نائب عن ائتلاف دولة القانون: سنسعى للتحالف مع الكردستانية إذا ما حصلنا على الأغلبية، وكالة كردستان للأنباء (آكانيوز)، على الموقع الإلكتروني الآتي: http://www.aknews.com/ar/aknews/4/110228

(11) يُنظَر: ثراء التعددية وشقاؤها، حيدر سعيد، في: *مراجعات في الدستور العراقي*، مجموعة من الباحثات والباحثين، مركز عراقيات للدراسات، بغداد، ط 1، 2006، ص 75 وما بعدها.

****

انتخابات 2010 خيبة أمل أم بداية أمل وانطلاقة لخطة عمل

ضياء الشكرجي

أستهل بحثي هذا بنص دستوري ذي علاقة بالبحث، وهو مقطع مما ورد في المادة الأولى من الباب الأول (باب المبادئ الأساسية):

«جمهورية العراق دولة ... نظام الحكم فيها ... برلماني ديمقراطي.»

إذن « نظام الحكم في العراق ديمقراطي». ونعلم أن الديمقراطية ليست مفهوما بسيطا، أي ذا بعد أحادي، بل هي مفهوم مركب بأبعاد وعناصر متعددة، تمثل بمجموعها منظومة ونسيجا متكاملين، ومترابطي العناصر والأبعاد، إن أخِلّ بواحد منها سرى الخلل على كامل تلك المنظومة. ولذا فإن اختزال الديمقراطية في بعد واحد، كأن يكون الانتخابات الحرة، أو أي بعد واحد أو أكثر، دون الأخذ بكامل أبعادها وعناصرها، هو، ومن حيث يعلم صاحب دعوى الاختزال، أو من حيث لا يعلم، إخلال بالنظام الديمقراطي.

ومن غير شك إن العراق ما زال في شوط من أشواط عملية التحول الديمقراطي، ولم يبلغ بعد مرحلة اكتمال الأشواط بما يجعله يُعَدّ ولو على النحو الإجمالي والعام نظاما ديمقراطيا، دون أن يعني ذلك أن هناك محطة تبلغ ذروة الكمال، لأن الصيغة المثالية من الديمقراطية لا يمكن بلوغها حتى في الديمقراطيات الراسخة، ولكنها تمثل طموحا، تجري المسيرة الديمقراطية صوبه، دون بلوغه بدرجة الكمال والمثال. ولكن هناك حد أدنى، يمكن أن نعتبر ببلوغه نظاما ما ديمقراطيا، وهذا ما يفصل بيننا وبين بلوغه طريق طويل.

في كل الأحوال، وحسب عقيدتنا السياسية، نحن الديمقراطيين العلمانيين، وبحسب فهمي، دون دعوى التعميم، فإن الديمقراطية لا يمكن أن تنمو، وتسير مسارها الصحيح، ما لم تكن علمانية، أي حاسمة لمبدأ الفصل بين الدين والسياسة، وبين الدين والدولة، مع إن الديمقراطية العلمانية حاضنة للدين وصائنة لحرياته ومحترمة لمقدساته، لكنها حائلة دون تسييس الدين، أو تديين السياسة، نعم لا بد من أنسنة السياسة وأخلقتها، وهذا يختلف عن مفهوم أدينتها أو تديينها.

لهذا السبب أعتقد أن حَمَلة المشروع الديمقراطي حقَّ حملها، لا بد أن يكونوا هم المؤمنون بها حق إيمانها، أي لا بد أن يكونوا من الديمقراطيين العلمانيين، لكن غير الازدواجيين، أي الذين تنسجم مواقفهم وأداؤهم السياسي مع نظريتهم الديمقراطية العلمانية، سواء كانوا من اليسار الديمقراطي، أو من الليبراليين.

إذن من متطلبات الخطو خطوة متقدمة باتجاه استكمال الحد الأدنى من أشواط عملية التحول الديمقراطي، أن يجري التحول من الاتجاه الديني إلى الاتجاه المدني (العلماني، الأرضي، البشري، التجريبي)، ومن الاتجاه الطائفي (الديني أو المذهبي) أو العرقي (القومي)، ومن الاتجاه العشائري والقبلي إلى الاتجاه الوطني الاستيعابي، المتخذ المواطنة معيارا وحيدا. فحتى الآن كان المهيمن على المشهد السياسي والمؤثر على مسارات العملية السياسية، هو الاتجاه الديني (اتجاه الإسلام السياسي)، والاتجاه الطائفي (اتجاه التشيع السياسي والتسنن السياسي).

فنجد إن التيارات السياسية المهيمنة هي اتجاهات سياسية شيعية، وأخرى سنية، وثالثة قومية كردية. بينما تنقسم الاتجاهات السياسية في النظم الديمقراطية، إلى يسارية ومحافظة ووسطية وليبرالية، بمعنى أنها تتبنى واحدا من الاتجاهات السياسية لعصر الحداثة، ولا تستغرق في الموروثات والتاريخيات والمسلمات والمقدسات المزعومة أو المتوهَّمة، وفي دعاوى الحقائق المطلقة، بدلا من اعتماد النسبية، كمبدأ أساس للملتزمين بقواعد العقلانية.

والذي يؤكد هذه الرؤية هو أن نفس حملة المشروع الديني (الإسلامي)، والمشروع الطائفي (الشيعي والسني) قد تحولوا من الخطاب الديني إلى الخطاب المدني، ومن الخطاب الطائفي إلى الخطاب الوطني، وإن كان تحولهم لا يخلو من شطحات تظهر عدم تحقق هذا التحول عندهم في العمق، ومن موقع القناعة، بل هو إما تحول ظاهري فرضه الواقع، أو تحول حقيقي، لم يكتمل، بل ما زال يراوح بين متبنيات الأمس القريب جدا، ومتبنيات اليوم غير المتخلص من رواسب الأمس. إذن هذه القوى التي تشكلت منها الائتلافات الكبيرة - كما شخصنا - قد غيرت من خطابها، دون أن تغير في العمق من جوهر إيديولوجياتها، ومن مضامين الائتلافات السابقة التي خاضت انتخابات 2004 للجمعية الوطنية الانتقالية وانتخابات الدورة الأولى بعد إقرار دستور 2005. من هنا فإنه قد جرى تضييع فرصة تاريخية لبناء ائتلافات

عابرة للطوائف وصراعاتها، سواء كان التضييع مقصودا ومخططا له مع سبق الإصرار، وإن اختلف الخطاب، أو كان ناتجا عن تقصير وأخطاء ارتكبتها القوى الديمقراطية بالذات، أو بسبب ظروف موضوعية حتمتها مرحلة ما قبل اكتمال الرشد السياسي في المجتمع عموما، وفي الوسط السياسي على وجه الخصوص؛ كل هذا مع معاناة الميدان السياسي من داء أزمة القيم.

لذا كان طموحنا - حسب تقديري الشخصي - كديمقراطيين علمانيين، أن تحقق الانتخابات الأخيرة خطوة نوعية نحو التغيير. لم نكن نتوقع أن نتحول إلى تيار الأكثرية، أو إلى تيار كبير ومؤثر، إلا أننا كنا نتطلع إلى تغيير نوعي مهم، وإن لم يكن كميا، أما توقعاتنا، فكانت حتى أكثر تواضعا من تطلعاتنا، التي كانت هي الأخرى متواضعة. فجاءت النتائج مخيبة لآمال الحد الأدنى.

ومن غير شك هناك نوعان من عوامل ضعف القوى الديمقراطية العلمانية، فمنها عوامل موضوعية، ومنها أخرى ذاتية، والذاتية بدورها تنقسم إلى نوعين، إلى قصور يكون صاحبه معذورا به، دون أن يعني عدم لزوم دراسة تجاوز هذا القصور، ونوع آخر عبارة عن تقصير، وهذا ما يجب علينا أن نقف إزاءه وقفة شجاعة لنمارس النقد الذاتي والمحاسبة الذاتية، والعزم على تدارك ذلك التقصير، وإصلاح ما أفسدناه بسببه، أي نمارس توبة ديمقراطية، وأستعير هنا هذا المصطلح الديني، لما يشتمل مصطلح التوبة بمفهومه الديني من عناصر لا بد من توفيرها، ألا هي الندم، والاستغفار (الاعتراف والاعتذار)، والتصميم والتعاهد على عدم التكرار، والتدارك، أي إصلاح ما أفسده المقصر بسبب تقصيره.

ولكن دعونا نبدأ بالعوامل الموضوعية:

1. قانون الأحزاب: من غير شك إن غياب قانون ديمقراطي عصري للأحزاب يمثل أحد أهم عوامل الضعف للقوى الديمقراطية العلمانية. فقانون الانتخابات الديمقراطي، لا بد أن يحظر قيام أحزاب على أساس ديني (أساس تسييس الدين)، أو أساس مذهبي (حتى لو عبر الانغلاق على أبناء طائفة واحدة في عضويتها)، أو على أساس قومي (عربيا كان أو كرديا)، هذا مع اعتماد أحكام استثنائية للأقليات الدينية والقومية. ثم قانون الأحزاب سيلزم الأحزاب بشفافية ماليتها، عبر معرفة مصادر التمويل، وكيفية صرفها.
2. قانون الانتخابات: فقانون الانتخابات يشتمل على ثغرات كبيرة، لأنه صيغ بطريقة يخدم بها الأحزاب المتنفذة ويضمن لها ديمومة تنفذها وهيمنتها. فأن يذهب فائض الأصوات إلى الفائز الأكبر، كان من أهم العوامل لحرمان القوى الديمقراطية من الحصول على مقاعد نيابية. من حيث المبدأ لا أرى ضيرا في ذلك عند بلوغنا درجة الديمقراطية المستقرة والراسخة، فكثير من النظم الديمقراطية تعتمد نسبة الاستبعاد البرلماني، والتي تتراوح بين دولة وأخرى مابين الـ 3% والـ 10%، ومن فوائد ذلك جعل المشهد السياسي والتشكيل النيابي للمواطن أكثر وضوحا، بالاقتصار على أحزاب كبيرة، أو صغيرة، ولكن بحجم مرئي ومؤثر بدرجة ما. أما ونحن في العراق ما زلنا في الأشواط الأولى من مسيرة ديمقراطيتنا القلقة والنامية، فلا بد من عدم حرمان أي من القوى السياسية، بما في ذلك الميكروأحزاب من المشاركة في العملية السياسية. ومن الأمور المهمة هو شفافية تمويل الحملات الانتخابية، وتوفير مستلزمات تكافؤ الفرص، ووضع حد أعلى لتمويل الحملة الانتخابية، حتى للأحزاب ذات الإمكانات المالية العالية، مع دعم الأحزاب ذات الإمكانات المحدودة من قبل الدولة. ومن الثغرات المهمة، حسب تقديري، في قانون الانتخابات هو الاقتصار على انتخاب مرشح واحد من كل قائمة في إطار ما سُمِّي خطأ بالقائمة المفتوحة. فيفترض أن ينتخب الناخب من القائمة التي يختارها أربعة مرشحين، وليس مرشحا واحدا، وبحيث لا تكون قسيمة الاقتراع صحيحة، ما لم ينتخب الناخب مرشحيه الأربعة من الجنسين، بقطع النظر عن عدد الإناث إلى الذكور: (1 - 3)، أو (2 - 2)، أو (3 - 1). فهذا يحقق لنا فائدتين؛ الأولى تحقيق الكوتا النسائية، فتصعد المرشحة بأصواتها، وليس بأصوات أقرانها من الرجال، خاصة في مجتمعنا الذي سيبقى لوقت قد يمتد قرنا كاملا مجتمعا ذكوريا. أما الفائدة الثانية، فهي عدم التركيز على الرمز أو الرموز في كل قائمة. والأمر الآخر المهم هو استحداث طريقة تجمع بين إيجابيات كل من الدائرة الوطنية الواحدة، والدوائر المتعددة على مستوى المحافظات، فيستلم الناخب قسيمتين، واحدة محلية، وأخرى وطنية،

وربما يُخيَّر بين أن ينتخب مرشحيه الأربعة من إحدى القسيمتين، الوطنية أو المحلية، أو ينتخبهم من كليهما، على أن يكون كما بينت آنفا المرشحون من الجنسين، ويكون مجموعهم اثنين كحد أدنى إلى أربعة كحد أقصى، ويلغى صوت الناخب، إذا انتخب مرشحا واحدا، أو أكثر من أربعة مرشحين. هذا سيحقق فائدتين، فمن جهة نضمن تمثيل كل المحافظات، فيما تحقق شرط آلية الانتخاب ضمن الدوائر المتعددة، ومن جهة أخرى ستعطي هذه الآلية للناخب حرية أن ينتخب من يثق بأهليته من غير محافظته، كما وتعطي فرصا للمرشحين ذوي الرصيد الشعبي من المريدين على المستوى الوطني لعموم العراق.

3. الوعي السياسي الشعبي: من الطبيعي جدا أن ينمو بالتدريج الوعي السياسي، والتجربة الانتخابية، والثقافة الديمقراطية، في أوساط مجتمع لم يجرب في تاريخه الديمقراطية، ولا أيا من آلياتها، كالحياة الحزبية الحرة، والتعددية السياسية، والانتخابات النيابية، وغيرها باستثناء تجارب محدودة جدا، لا ترقى إلى مستوى أهلية أن تنعت بأنها تمثل تجربة ديمقراطية. ومن هنا ليس من المعيب أن يكون الوعي السياسي الشعبي ما زال في بدايات تشكله. ولذا فإننا بالرغم من سماعنا قبل الانتخابات عن رغبة شعبية واسعة في التغيير، نجد أن الرغبة في التغيير - ولا أقول الإرادة - لم تترجم في لحظة إدلاء الناخب بصوته إلى فعل تغييري. من هنا بقي الاصطفاف الطائفي، وكذلك العرقي، هما اللذان حكما نتائج الانتخابات، فذهب الشيعة لتتوزع أصواتهم بين قائمتين شيعيتين، بل وإسلاميتين، وبعضهم أعطوا أصواتهم لعلاوي - كي لا أقول للعراقية -، وهكذا ذهب السنة ليدلوا بأصواتهم إلى قائمة ذات أكثرية سنية، ولكنهم ربما تجاوزا الطائفية فقط بمقدار قبولهم بإدلاء أصواتهم لقائمة يترأسها شيعي، كما تجاوزوا الإسلام السياسي أكثر من الناخبين الشيعة، إذ تراجعت مقاعد الإسلاميين السنة إلى عدد لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة إلا بواحد. فالقائمتان الشيعيتان الإسلاميتان حصلتا سوية على 159 مقعدا أي ما يعادل 48,9%. هذا فيما يتعلق بالتشيع السياسي. أما فيما يتعلق الأمر بعموم الإسلام السياسي، فبإضافة بقية الإسلاميين من التوافق، والقائمتين الإسلاميتين الكرديتين، تكون حصة الإسلاميين ما يقارب الـ 53%. إذن ما زال كل من الناخب الشيعي والناخب السني لم يتخلص من التخندق المذهبي، كما إن الناخب الشيعي لم يتجاوز الإسلام السياسي إلا بشكل محدود جدا. أما الكرد فيبقون انتخابيا كردا على الأعم الأغلب وبالدرجة الأولى. إذن ما زلنا بعيدين عن التيار الديمقراطي العلماني الليبرالي. وهنا أعني الليبرالية لا بمعناها الخاص أي ما هو في مقابل اليسار الديمقراطي، بل بمعناها الأعم الذي يشمل اليسار، لأني أعتبر تيار اليسار الديمقراطي باستثناء الجانب الاقتصادي ينتمي أيضا إلى الليبرالية، لأنه سياسيا وثقافيا واجتماعيا بكل تأكيد ليبرالي الاتجاه. عودا إلى الوعي السياسي الشعبي، أقول إن الكثير من ملامح تكوّن وعي جديد متقدم نسبيا ظهرت منذ 2008، وهو نمو متواصل ومطّرد، مما يعطي الأمل في وصوله إلى درجة أكبر رشدا في انتخابات 2014، ثم أكثر في 2018، وهكذا.
4. هيمنة القوى السياسية المخالفة لـ(العلمانية الديمقراطية): فهذه القوى ما زالت ممسكة بأدوات التأثير على مسار العملية السياسية، وذلك عبر إمكاناتها الهائلة، من خلال امتلاك المال والسلطة والدعم الإقليمي، وكذلك ما تملكه من رصيد جماهيري في أوساط الأميين والبسطاء، ذلك مع غياب للطبقة الوسطى، كحاضنة للثقافة.
5. الظاهرة الواسعة نسبيا في المجتمع العراقي للتدين أو التمذهب المطبوعين عاطفيا، مما يمكن بسهولة توظيفه لصالح التيار الديني والطائفي.

إننا اليوم في لحظة الفراغ من كتابة هذا البحث في العاشر من أيار، وبعد مضي أربعة وستين يوما، نجد أنفسنا أمام ما يشبه الأزمة والمأزق السياسي: إعادة عدّ وفرز، تشكيك بعملية العدّ والفرز من قبل الطرف المطالب بها، خطاب يشتمل أحيانا على الكثير من التشنج والتوتر من بعض الأطراف الأساسية، تجدد اجتثاث، وقرارات اجتثاث، وتشكيك بدستورية تلك القرارات، ودعوات إلى اجتثاث لأصوات الناخبين، معاقبة لهم لانتخابهم من سيجتثون لاحقا، عودة إلى اصطفاف طائفي عبر تحالف الائتلافين الشيعيين الإسلاميين، مؤشرات للخروج من المأزق بالعودة إلى احتمالات ائتلاف العراقية ودولة القانون، والذي دعونا له منذ الساعة الأولى لظهور النتائج الأولية، كلام عن دور إقليمي لإيران، ودور آخر سعودي، وثالث مصري، أو دور للجامعة العربية، أو دور مصري، أو ربما دور أمريكي. وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على اعتراف ضمني للقوى والشخصيات السياسية المعنية بعجز يعابون عليه عن العمل الجادّ من أجل انبثاق حلّ عراقي للأزمة.

وفي خضم هذه التفاعلات تظهر مصطلحات جديدة، كمصطلح (حكومة الشراكة الوطنية)؛ هذا المصطلح الذي يمكن أن يكون تعبيرا حقيقيا عن صيغة جديدة، شخص مبتكروها ودعاتها أنها من متطلبات هذه المرحلة، أو يمكن ألا يكون إلا تجميلا لمفهوم المحاصصة الطائفية والعرقية، أو هي، أي حكومة الشراكة الوطنية، تمثل تطويرا للمحاصصية والتوافقية، أي هي صيغة محسنة ليس إلا. والشراكة الوطنية طرحت كما يبدو بأكثر من معنى، أوجزها بما يلي:

1. منهم من يقصد بها مشاركة جميع الكتل النيابية، الكبيرة منها والصغيرة على حد سواء.
2. ومنهم من يقصد بها مشاركة جميع الكتل الأربع الكبار.
3. ومنهم من يعني اعتماد الاستحقاق الانتخابي، مع الاختلاف في ما يقصد بالاستحقاق الانتخابي، مع ملاحظة استيعاب جميع المكونات للمجتمع العراقي، أو لا أقل بمراعاة عدم استثناء أي من المكونات الأساسية.

وكل من الفهمين الأول والثاني، يعني أن تتشكل الحكومة من الجميع بلا استثناء، أو في أحسن الأحوال من جميع الكتل الكبيرة الأربع، وبالتالي يعني تعطيل دورين أساسيين لمجلس النواب، ألا هما دور المعارضة ودور الرقابة. ولكن يمكن أن يكون نتيجة ذلك أن تتشكل الحكومة من الجميع، والمعارضة من الجميع تجاه الجميع، أو تجاه الجميع باستثناء الوزارات المشغولة من الكيان أو الائتلاف الذي ينتمي إليه مزاول المعارضة والرقابة. وهاتان الصيغتان تمثل كلاهما ما يعطل آلية مهمة من آليات الأداء البرلماني في النظام الديمقراطي. أما الصيغة الثالثة فهي مقبولة، بل ومطلوبة، ولكن مع ملاحظة عدم الوقوع في مطب المحاصصة، بل يجب أن يكون الاستيعاب نوعيا، وليس محاصصيا باعتماد نسبة المكونات في المجتمع العراقي، لأننا لا بد أن نعود أنفسنا والمجتمع العراقي على اعتماد المواطنة والعراقية، دون الاستغراق في تشخيص الهوية الخاصة، الدينية أو المذهبية، أو القومية، أو العشائرية، أو المناطقية.

الغريب أن معظم الذين أدلوا بدلوهم من السياسيين في تصريحاتهم، قد وقعوا في الخلط بين قضيتين؛ قضية تكليف مرشح الكتلة الأكبر لرئاسة الوزراء، وبين قدرة تلك الكتلة أو عدم قدرتها على تشكيل حكومة لوحدها، لعدم حيازتها على الأكثرية المطلقة، فبعضهم يتكلم عن إن الانتخابات قد أفرزت نتيجة تجعل أيا من الكتل الأربع الكبرى الفائزة غير قادرة على تشكيل الحكومة لوحدها، وكأن هؤلاء قد اكتشفوا حقيقة جديدة، غير ملتفتين إلى كون ذلك هو السائد في معظم الديمقراطيات في العالم، باستثناء حالات نادرة، كما هو الحال في الولايات المتحدة، وبريطانيا حتى الآن، والذي تغير في الانتخابات الأخيرة بوجوب ائتلاف المحافظين مع الأحرار لتشكيل الائتلاف الحكومي ذي الأكثرية البرلمانية المطلقة (نصف + 1)، كما يبدو حتى لحظة الفراغ من كتابة هذا البحث. وأكثر السياسيين لم يميزوا أيضا بين الائتلاف الحكومي ذي الأكثرية البرلمانية المطلقة المشار إليه وبين الكتلة البرلمانية الأكبر، كما لم يميزوا بين الائتلاف الماقبلي، والائتلاف المابعدي، فالائتلاف الماقبلي هو الجاري ما قبل الانتخابات لخوض الانتخابات من قبل عدة أحزاب مؤتلفة في قائمة انتخابية واحدة، أما الائتلاف المابعدي فهو الجاري بين حزبين أو أكثر، أو بين قائمتين أو ائتلافين انتخابيين أو أكثر لغرض تشكيل الحكومة بأكثرية برلمانية مطلقة. أما الائتلاف المابيني، الذي حصل بين الائتلافين الشيعيين الإسلاميين، فهو من غير شك بدعة في النظام الديمقراطي، ابتكرته الديمقراطية العراقية، وهو بتقديري التفاف على الدستور، وعلى العرف السائد في ديمقراطيات العالم، والذي يتعامل مع مفهوم الكتلة الأكبر بمعنى تلك الحائزة على أكبر عدد من المقاعد عبر الانتخابات، وليس عبر الائتلاف المابعدي، أو الذي أسميه هنا بالمابيني تمييزا له عن الائتلاف الحكومي الذي أشرت إليه. ثم لا بد من الإشارة إلى أن صيغة الائتلافات الانتخابية لا بد أن نضع لها نهاية، على أقل تقدير في انتخابات 2018، لنتحول إلى الصيغة الطبيعية، ألا هي دخول الأحزاب كأحزاب في العملية الانتخابية، ونضع نهاية للقوائم الائتلافية ولما يسمى بالكيانات الفردية، أي الترشيح الفردي، لأن الحياة الحزبية هي الحالة الطبيعية للنظم الديمقراطية.

أخيرا أشير باختصار إلى عدة أمور أراها مهمة:

1. مجلس النواب بتركيبته الحالية لن يكون بتقديري مؤهلا للضلوع بمهام التعديل الدستوري، وتعديل قانون الانتخابات، وتشريع قانون الأحزاب، وهذا يجعل انتخابات 2014 أمام عقبات جدية، نأمل أن يفكر بمعالجتها من الآن.

2. التيار الديمقراطي العلماني عموما، والتيار الليبرالي خصوصا، يكاد يكون غائبا غيابا كليا في مجلس النواب.
3. هناك حاجة حقيقية لتشكيل جبهة للديمقراطيين العلمانيين غير الداخلين في ائتلاف ديني، أو مذهبي، أو ديني مذهبي، مع ضرورة المباشرة بالعمل من أجل تشكيل هذه الجبهة من الآن، وعدم الانتظار إلى سنة 2013، من أجل التحضير المتأخر لانتخابات 2014. أقول هذا مع معرفتي بحجم العقبات أمام تشكيل هذه الجبهة، ومنها مجاملة الأصدقاء العلمانيين المترشحين في قوائم طائفية تعتمد الإسلام السياسي إيديولوجية سياسية لها، ومنها مجاملة الحزبين الكرديين، ومنها عدم القدرة على الإيثار الشخصي والحزبي بالمستوى الكافي والضروري لصالح المشروع الوطني الديمقراطي.

أخير هذا البحث لم يأخذ المتغيرات المحتمل وقوعها بعد الفراغ من كتابته في 2010/05/10.

انتخابات2010 وعقابيلها

عبد الرزاق الصافي

قبل الدخول في الحديث عن محور أو أكثر من المحاور التي اقترحتها هيئة التحرير الموقرة، بودي مناقشة فكرة وردت في ورقة العمل التي أرفقتها بطلبها المشاركة في الملف والمحاور المذكورة. والفكرة هي ما يتضمنه قول ورقة العمل:"كان يمكن لهذه الانتخابات أن تشكل محطة أخرى على طريق بناء عراق جديد. لكن ممارسات القوى المتنفذة ساهمت في تعطيل هذه الخطوة ، وبددت الأمل في انجاز هذه المهمة". وحسناً فعلت هيئة التحرير عندما استدركت بالقول الذي يخفف من عدم دقة في هذا الاستنتاج ، عندما أضافت قولها "ولو الى حين".

وفي رأيي المتواضع اعتقد أن هذه الانتخابات، رغم كل ما شابها من نواقص "بدءا من قانون الانتخابات إضافة الى ما يتعلق بسجلات الناخبين وثغرات التصويت الخاص، وآخرها ما جرى بالنسبة للانتخابات في الخارج وما ارتبط بها من ممارسات أفضت الى استبعاد الآلاف تحت ذرائع مختلفة" كما شخصت ، بحق، ورقة العمل المذكورة ، الى جانب نواقص وعيوب أخرى لم تذكرها، رغم هذا كله تظل الانتخابات الأخيرة " محطة أخرى على طريق بناء عراق جديد" . ذلك أن التحدي الكبير الذي أظهرته الجماهير في الإقدام على المشاركة في الانتخابات ،وبنسبة كبيرة ، رغم التهديدات الفظة التي أطلقتها القوى الإرهابية بتخريب العملية الانتخابية وقتل من يساهم فيها، وعدم اكتفائها بالتهديد، بل أشفعته بأعمال تخريبية وتفجيرات في صباح يوم الانتخابات ، يدل دلالة واضحة ، على تمسك الشعب العراقي بالعملية السياسية وبالديمقراطية، والانتخابات من مستلزماتها، كطريق لبناء العراق الجديد.

وليس من شك في أن الشوائب التي شابت الانتخابات والنواقص الخطيرة التي سبق ذكرها أضعفت الديمقراطية العراقية الوليدة، ووضعت أمام القوى الديمقراطية الأصيلة مهمة العمل الجاد من اجل التخلص منها في المحطات القادمة.

فليس هناك نظام ديمقراطي نقي خالٍ من الشوائب. ففي الولايات المتحدة الأمريكية نظام ديمقراطي عريق . ومع ذلك فإنه رغم حصول المرشح الديمقراطي (ألغور) في انتخابات الرئاسة الأمريكية في العام ألفين على نصف مليون صوت أكثر من بوش الابن لم يصبح هو الرئيس بسبب النظام الانتخابي الأمريكي الذي يوجب على المرشح الفوز في عدد من الولايات كان من بينها ولاية فلوريدا التي فاز فيها (بوش) بقرار من المحكمة العليا .

وفي بريطانيا، وبسبب من نظام الدوائر الانتخابية المتعددة يمكن لحزب العمال مثلاً أو المحافظين أن يحصل على عدد من أصوات الناخبين في عموم الدوائر الانتخابية أكثر من الحزب الآخر، ولكن عدد المقاعد التي يشغلها في البرلمان اقل، بسبب نظام الدوائر الانتخابية المتعددة، وليس نظام الدائرة الانتخابية الواحدة واعتماد توزيع المقاعد بنسبة ما حصل عليه كل حزب. وهو النظام الأكثر ديمقراطية في تمثيل الناخبين.

وإذ أورد هذين المثلين لا اقصد تبرير ما قامت به القوى المتنفذة في البرلمان المنتهية ولايته من تعديل لاديمقراطي لقانون الانتخابات بقصد الاحتفاظ بمواقعها في البرلمان الجديد . ولكن لأوكد من جديد جسامة المهمة التي تواجه القوى الديمقراطية الأصيلة في المراحل القادمة لتطوير العملية السياسية وبناء العراق الجديد .

أما بخصوص المحاور المقترحة فأحسب أن الكثير منها متداخل. إذ لا يمكن تناول أي منها دون أن يكون ذا علاقة وثيقة بمحور أو أكثر من المحاور المقترحة. فلو أخذنا محور "أسباب تواضع نتائج قوى التيار الديمقراطي رغم أنها راهنت على خيار عابر للطوائف والاثنيات" فسنجد أن من بين هذه الأسباب ، بل وفي طليعتها دور قانون الانتخابات . فهذا القانون اضعف حماس فئات ليست قليلة للمشاركة في الانتخابات بسبب شعورها أن أصواتها ستذهب الى جهات لا تثق بها، بل وتعارضها، وتعارض نهجها الطائفي، وميولها للاستئثار بالسلطة وخدمة مصالحها الأنانية الضيقة، وعدم صدقها في تبني الديمقراطية كنهج للحكم، وعدم اخلاصها للنظام الديمقراطي الاتحادي التعددي الذي نص عليه الدستور.

كما كان للمال السياسي، وهو عنوان محور آخر في هذا الملف، دور بارز في تواضع نتائج قوى التيار الديمقراطي. فقد كان من الواضح للعيان بالنسبة لكل من تابع الحملة الانتخابية الصرف الهائل من جانب القوائم الكبيرة المتنفذة في السلطة للأموال التي نهبت بأشكال شتى من المال العام، أو التي جرى الحصول عليها من جهات خارجية ذات أغراض واضحة، على الدعاية الانتخابية دون حسيب أو رقيب يقول لهذا الكيان الانتخابي أو المرشح من أين لك هذا؟ أو قانون يحدد حداً أعلى للصرف على الدعاية الانتخابية لضمان شيء من العدالة في التنافس الانتخابي.

ويجرنا هذا للحديث عن "دور العاملين الإقليمي والدولي وتدخلاتهما المرئية والمضمرة " . هذا الدور الذي تكشف بشكل اكبر وأكثر وضوحاً في أعقاب ظهور النتائج الأولية ، بل وحتى قبل ذلك للتأثير على تشكيل الحكومة المقبلة، خصوصاً وأن النتائج لم تسفر عن فوز حاسم لأي من الكتل المتنافسة ذات الارتباط بهذه الجهة أو تلك من الدول التي تسعى لأن يكون لـ "أصدقائها" الدور الأكبر في الحكومة القادمة، لرعاية مصالح هذه الدول بمعزل عن مصالح العراق وشعبه وسيادته الوطنية، انطلاقاً من اعتبارات طائفية أو مصلحية سياسية.

وعن "دور المفوضية العليا المستقلة للانتخابات في تسيير العملية الانتخابية في كل مراحلها"، وهو عنوان محور آخر من محاور الملف، فيمكن القول أنها قصرت في الوقوف بحزم تجاه الخروقات التي قام بها عدد من القوائم الكبيرة، وعدم فضح هذه القوائم أمام الرأي العام وتبصيره بما قامت به من تشويه للعملية الانتخابية، فضلاً عن نواقص أخرى سبقت الإشارة إليها.

على أن هذا الحديث كله لا يلغي سبباً ذاتياً يتعلق بقوى التيار الديمقراطي ذاتها. ذلك هو تشرذمها وعدم استطاعتها توحيد قواها بشكل فعال. بل وأكثر من هذا قبول أطراف منها بخوض الانتخابات في قوائم تختلف مع نهجها وتاريخها، وعدم استطاعتها بسبب من ذلك من تمييز نفسها وكسب تأييد الأوساط التي يُفترض أن تمثلها.

كما أن الضعف المالي الذي تعاني منه قوى التيار الديمقراطي كان له دوره في ضعف الدعاية الانتخابية وغير الانتخابية. ففي الوقت الذي تتمتع فيه القوائم المتنفذة بإمكانيات مالية هائلة تمكنها من السيطرة على أجهزة إعلام عديدة من صحف وفضائيات، وإمكانية تقديم رشاوى كثيرة للناخبين المستعدين لبيع أصواتهم بسبب من حاجتهم المادية وضعف وعيهم، كانت الدعاية الانتخابية لقوى التيار الديمقراطي في موقع متدنٍ قياساً بما كانت عليه القوى المتنفذة.

وبالإضافة الى كل هذا فإن مجاملة قوى التيار الديمقراطي للقوى المتنفذة لدرجة غير مبررة في أحيان ليست قليلة طيلة السنوات التي أعقبت التغيير، وعدم تصديها بوضوح لكثير من المواقف والأعمال المنافية للديمقراطية ولحقوق الإنسان، والفساد الذي عمَّ جميع أنحاء العراق، والامتيازات الكبيرة التي خص بها مجلس النواب أعضاءه، وما يحصل عليه المسؤولون الكبار والوزراء وذوو الدرجات الخاصة من رواتب وامتيازات تفوق ما يحصل عليه أمثالهم في دول

اكبر وأغنى من العراق، مما استفز مشاعر أوساط جماهيرية واسعة تعاني البؤس وضنك العيش ، وعدم تمييز قوى التيار الديمقراطي نفسها بما فيه الكفاية ، وبما يستجيب لما يتوقعه الناس منها ، كل هذا اضعف تأييد فئات ليست قليلة لها وحسر أصواتها عنها .

ومع ذلك تظل أسباب تواضع نتائج قوى التيار الديمقراطي بحاجة الى دراسة أعمق لتقصير أمد تلافي هذه الأسباب.

****

خارطة جديدة بفجوات وعلل

عبد المنعم الاعسم

علينا، بدءاً، إن نعاين الحقيقة التالية بكفاية من الموضوعية: إن نتائج انتخابات السابع من مارس 2010 أسفرت عن خارطة سياسية جديدة في البرلمان وخارجه. جديدة وليست مغايرة تماما. وعلينا بعد ذلك أن نمعن النظر في دلالة انخراط شرائح سكانية جديدة في العملية الديمقراطية كانت قد قاطعت انتخابات العام 2005 وكان زحفها الى صناديق الاقتراع، بزخم بائن، احد عناصر الخارطة الجديدة.

لكن الأمر الأكثر أهمية في قراءة قسمات هذه الخارطة ينبغي أن نقرأه في تصدع ولاء ملايين من أتباع الطوائف الى المراكز السياسية التي تصدرت (أو أوحت) تمثيلهم السياسي، فأعطوا أصواتهم، هذه المرة، خارج اعتبارات الولاء الطائفي، بالإضافة الى معنى تراجع زخم التصويت بالنسبة الى التجمعات السكانية في الوسط والجنوب التي صنعت الأكثرية البرلمانية السابقة.

لكن الحقيقة الموازية هي أن أصحاب المنهج الطائفي (من الطائفتين) وإن انحسر(أقول انحسر) أثرهم وتأثيرهم، يحاولون إعادة الملايين الساخطة على أدائهم وفشلهم في تمشية ماكنة الدولة وفساد بعض رموزهم الى بيت الطاعة بواسطة شعارات التجييش والتخويف وإثارة الحساسيات، أو إحياء التقسيم الطائفي الاثني (شيعة. سنة. كرد) البغيض، وفي هذا يقدم المشروع الإرهابي الإجرامي، وهو مشروع طائفي في جوهره، خدمة ثمينة للطائفيين، ما يكشف عن مصاهرة بين المنهجين: الطائفيون يستغلون مجازر الإرهابيين ضد السكان المدنيين في التعبئة السياسية خلفهم، والإرهابيون يوظفون ردود الأفعال في تدمير السلام الأهلي.

بوجيز الكلام، فان نتائج الانتخابات أبقت خطر إعادة الاستقطاب الطائفي الى ذروته السابقة في عام 2006 مفتوحا من خلال الفجوات الجمة في الخارطة السياسية الجديدة التي لم تنه وظيفة المشروع الطائفي، وإن كانت قد أضعفته، واحسب أن لهذا المشروع رافعات في جميع الكتل، عدا عن رافعاته الثقيلة وراء الحدود، إذ تضع دول ثقلها السياسي واللوجستي الى جانبه وتراهن على استمراره لمنع الاستقرار ومعافاة المفاصل الأساسية للدولة الجديدة، ويدخل في مصادر هذا الخطر سياسة الأمريكان القائمة على تكريس الطائفية السياسية والنظر الى هياكل الحكم وسلطة القرار من زاوية التقسيم الاثني والطائفي.

وطبعا، من اللازم التوقف عند المؤشرات السلبية على الخارطة السياسية المؤسسة على نتائج الانتخابات الأخيرة، وفي مقدمتها هزيمة التيار الديمقراطي واليساري، التي، برغم كل الأسباب والتأويلات، تشكل اختلالا في التوازن التمثيلي للمؤسسة التشريعية الوطنية، وسيصبح هذا الاختلال أكثر بشاعة حين نتذكر بان للتيار الديمقراطي، بأحزابه وفئاته وشخصياته وجماهيره، مكانة كبيرة في الهيئة الاجتماعية، وعلى صفحات التاريخ العراقي المعاصر.

وفيما صُمم قانون الانتخابات ليضمن احتكار تمثيل السكان في كيانات قليلة تحصد أكثر الأصوات فان المفارقة السياسية تشاء هنا أن تجعل من هذا القانون، سيئ الصيت، محرضا (أو سيف ديموقلس) لإجبار قوى اليسار والديمقراطية على تحشيد صفوفها وإمكانياتها لكي تدخل نادي الكبار، فلا مستقبل سياسيا لها، في ظل هذا القانون، لكي تحقق حضورها البرلماني الفاعل الذي يتناسب مع قاعدتها، ورصيدها، من دون أن تتوحد في إطار واسع يقبل التباينات السياسية والاجتماعية والاجتهادات والتحدرات المختلفة، والمفارقة الأكثر مدعاة للتأمل (والحزن أيضا) هي أن الفئات السياسية الأخرى كانت أكثر جدية وحيوية وجرأة في قراءة قانون الانتخابات والتكيف معه وتسخيره الى مصالحها السياسية، بل أن بعض الفئات شكلت ورشا صغيرة للتعبئة (والتآمر على شركائها في نفس القوائم) من اجل توزيع مناسيب أصوات جمهورها بطريقة تحصد من خلالها أكثر المقاعد على حساب حلفائها.

وفي هذا السياق، قدمت نتائج الانتخابات فرصة أخرى الى الشيوعيين، اصحاب اعرق مشروع وطني عراقي، لكي يراجعوا اسباب ومقدمات هزيمتهم، وتسمية الأشياء بأسمائها، ولا يقلل من هذه المهمة أن الحزب صمد في وجه الإقصاء السياسي وبرز حتى بعد النتائج المخيبة للآمال كقوة ناشطة ومؤثرة في ساحة الرأي العام، وانه سرعان ما استعاد رباطة جأشه مستفيدا من سمعتة الطيبة بين المواطنين، وبسالة مناضلين في صفوفه ومناصرين له واستعدادهم لحمايته، مقابل تردي السمعة والفساد الذي يعم الطبقة السياسية المتنفذة.

هنا ليس من مصلحة الحزب ومشروعه ومستقبله الاكتفاء بالإشارة الى نواقص وعلل هنا وهناك، ولا ، فقط، بالاعتراف بالإخفاق في الوصول الى القوى التصويتية، ثم الاستطراد في شرح المعوقات والمصاعب التي أحاطت نشاطه وحملته الانتخابية وحالت دون وصوله الى قبة البرلمان. إن الأمر بحاجة الى تبصير في حقيقة تراجع مناسيب الجمهور المستعد للتصويت الى جانب الحزب (برغم الحملة الدعائية الطيبة والنظيفة والناجحة) لكي ينهض الشيوعيون جميعا في مسؤولية البحث عن مفاتيح المعالجة.

ويمكنني أن أسجل هنا الخلل في دراسة وبحث التحولات على ساحة وقواعد "التيار الديمقراطي" مما يتطلب الخروج من زوايا النظر الى دور الشيوعيين في هذا الوسط كما كانوا عليه في الخمسينيات من القرن الماضي بعد انحياز جماهير غفيرة وشخصيات من مختلف الانتماءات ومن منحدرات متناقضة (عشائرية.دينية .عسكرية) الى الخيار والنشاط والانتماء الديمقراطي، واللافت أن اتجاه الحزب لتحشيد هذا المعسكر أو المساهمة فيه لخوض الانتخابات اتسم بالفتور أو بالعجالة والارتجال، وأحيانا بالريبة من دعوات ومشاريع وتجمعات يهمها بناء التجربة الديمقراطية في العراق.

في علوم السياسة، بعد ذلك، ثمة قاعدة حيوية: إجازة المرور الى المستقبل مرهونة بإرادة (لا بشعارات) مستقبلية.

26نيسان 2010

تأملات في مابعد الانتخابات

رضا الظاهر

تتفاقم، في فترة مابعد الانتخابات، تجليات الصراع السياسي والفكري بين الكتل الكبيرة المتنفذة الطامحة الى الحكم. ويتخذ هذا الصراع، وهو اجتماعي بطبيعته ويتمثل جوهره في السعي إلى السلطة والثروة، أساليب وأشكالاً مختلفة تجسد مواقف متباينة لا يندر أن تتسم بالتناقض والتغير وفقاً لما تفرضه المصالح الضيقة. ويلهث "الكبار"، في سباق محموم، وراء استثمار كل سبيل للاستحواذ على كل مغنم. وفي هذا السباق، وجزؤه الأكبر مستتر خلف الكواليس، يبدو كل سلوك جائزاً ومبرراً مادام يوصل، في خاتمة المطاف، إلى كرسي النفوذ.

وهذا السلوك هو الذي يتوافق مع منهجية المحاصصات، أم البلايا، وهي المنهجية التي يتمسك "الكبار" بها على الرغم من انفضاح عواقبها المخزية، وآثارها المدمرة. وجوهر هذه المحاصصات تقاسم السلطة عبر التواطؤ بين "الكبار" الذين يزعم أنهم، وحدهم، يمثلون "المكونات الرئيسية"، أي الشيعة والسنة والأكراد.

وليس من الغريب أن يتكيف مفهوم المحاصصات مع الظرف المعني، فيتخذ أسماء مستعارة بينها، على سبيل المثال، التوافق أو الشراكة أو الوحدة الوطنية، وما الى ذلك من مسميات تخدم مصالح المتنفذين وتعتمد على اتجاهات وقواعد التواطؤ بينهم.

ولعل من بين الحقائق التي كشفت عنها تجربة الانتخابات، وبينها ما هو مثير للأسى، بل وصادم، أن جوهر التنافس كان طائفياً وإثنياً في ظل ثقافة تخلف سائدة. وفي إطار هذا التنافس، الذي استخدمت فيه أساليب التضليل والرشوات وشراء الضمائر والترغيب والترهيب، فضلاً عن استثمار المرجعيات الدينية وعلى نحو يتعارض مع المواقف المعلنة لهذه المرجعيات، في إطار هذا التنافس انكشفت حقيقة الكتل الكبيرة وجوهر صراعها على السلطة وإصرارها على منهجية الاستحواذ المحاصصاتية وإقصاء "الآخرين". وبات جلياً، من ناحية أخرى، أن مصالح انتخابية عابرة جمعت قوى متعارضة في كتل لا يندر أن يرشحها محللون للتفكك والانهيار خلال فترات قد لا يطول عهدها بسبب تفاقم تناقض المصالح وتفجر الصراعات على الامتيازات داخل الكتلة الواحدة.

وفي سياق الصراع جرى حرمان الكتل "الصغيرة "عبر إجراءات تعسفية ابتدأت بقانون الانتخابات المجحف، ولم تتوقف عند حدود التزوير والانتهاكات الفاضحة الأخرى، التي تتحمل مسؤولية جزء غير قليل منها المفوضية العليا المستقلة للانتخابات، وهي هيئة قامت، أصلاً، على أساس المحاصصات الطائفية والإثنية، وعلى نحو يبعث على الارتياب باستقلاليتها المزعومة.

وهكذا فانه من بين الحقائق التي يتعين أن لا تغيب عن البال أن معاناة الملايين المريرة منذ أيام "التحرير" الأولى وحتى أيام الصراع الحالي على كرسي الحكم أخفقت في إلحاق الهزيمة الحقيقية بجوهر السلوك الطائفي، فقد ظلت المتاريس الطائفية، التي ابتدأ بنصبها "المحررون" واستظل بامتيازاتها "المقررون"، أقوى من أن يتجاوزها سخط الملايين ويزيلها مرة والى الأبد. فالأغلبية من هؤلاء الساخطين والمحرومين هم، أنفسهم، من منحوا أصواتهم لمن كانوا سبباً في سخطهم وحرمانهم. وتلك مفارقة تكشف عما يمكن أن تفعله ثقافة تخلف سائدة في تشكيل نمط التفكير والسلوك والموقف.

الحق أن هذه التأملات ليست سوى أفكار أولية تنشد الإسهام، مع مساعٍ أخرى لابد أنها تبذل الآن على أكثر من صعيد، في تحليل وتشخيص أسباب تراجعنا وانتكاسنا، بروح انتقادية جريئة، وسبل النهوض ومواصلة التحدي على النحو الذي يليق بنا نحن الشيوعيين.

وفي تقييمنا لهذه التجربة يتعين علينا الاستناد الى منهجيتنا الماركسية في التحليل والاستنتاج. فهذه المنهجية هي التي تضمن التوازن في تشخيص العوامل الموضوعية والذاتية.

وفي إطار الأفكار التقييمية الأولية لأوضاعنا الراهنة نواجه مهمة التحليل العميق لطائفة من القضايا خطيرة الشأن، بينها، بالطبع، ضرورة إنجاز تقييم انتقادي متوازن وجريء ومثمر لحصيلة تجربتنا ارتباطاً بما حققناه من إنجازات وما واجهناه من إخفاقات في الانتخابات الأخيرة. وفي سياق هذا التقييم يتعين علينا دراسة القضايا المرتبطة به، وبينها غلبة التوجه الطائفي والاثني في خيار الانتخابات واستمرار القوى المتنفذة ذاتها في الهيمنة على المشهد السياسي. وتعد قضية الثقافة السائدة وآثارها من بين أخطر القضايا التي لابد من إضاءتها إذا ما أردنا إنجاز تقييم متوازن لما آلت إليه أحوالنا في أعقاب الانتخابات وما يواجهه حزبنا من مهمات ملحة في الظروف الجديدة. وعلينا، في هذا السياق، دراسة العلاقة بين الثقافة السائدة والوعي، والكيفية التي يتجلى فيها دور هذه العلاقة في مواقف الناس وممارستهم حقهم في اختيار ممثليهم. وهو اختيار لابد أن يتسم بالحرية والوعي إذا ما أريد له أن يكون خياراً حقيقياً.

ومن الجلي أن الصراع السياسي والفكري في مجتمعنا مايزال أشد احتداماً، ولم يحسم بعد، وبالتالي فان الخيارات مفتوحة. ويمكن القول إن تحالف سيادة ثقافة التخلف وتدني مستوى الوعي كان عاملاً أساسياً حاسماً في النتائج السلبية التي حصدها التيار الديمقراطي. وهذا التحالف، وهو تعبير عن واقع موضوعي، خاضع، بالضرورة، لتأثير العامل الذاتي، متمثلاً في عنصر التنظيم وتحريك الوعي إضافة الى دور التجربة الذاتية للناس.

وإذا كانت التجربة المأساوية التي عاشها الناس وما يزالون في ظل هيمنة القوى المتنفذة قد أدت الى حدوث تغير في مستوى الوعي، فإن هذا التغير لم يكن بمستوى تحول نوعي جذري. ولئن كان هذا الواقع قد عبر عن نفسه في مواقف الناس المعلنة تجاه الأزمة الشاملة وتحميل الحكام المسؤولية عنها، فان المفارقة تتجلى في أن الناس الساخطين على القوى المتنفذة منحوا، من جديد، أصواتهم للائتلافات "الجديدة". ويعني هذا، في الجوهر، أن هذه القوى أفلحت في تضليل الناس عبر استثمار المشاعر البدائية والانتماءات الطائفية والقومية واللعب عليها وتأجيجها.

كان الملايين يبحثون، عبر وعي محدود، عن بديل، غير أنهم عجزوا عن اكتشافه والتقاطه. وبالمقابل أخفقت القوى الديمقراطية، لأسباب معينة، موضوعية وذاتية، في تقديم بديلها ومشروعها التغييري بقوة وجاذبية لملايين الطامحين الى التغيير ممن انكفأوا، بالتالي، الى القوى التضليلية ذاتها.

وعلى الرغم من حدوث عملية تزييف واسعة للوعي عبر استثمار الثقافة السائدة بكل تجلياتها، فان علينا إدراك حقيقة أن ديالكتيك الصراع لم يتوقف عند هذا الحد. فالفترة منذ سقوط الدكتاتورية وحتى الآن ليست مديدة، لكننا شهدنا فيها تغييرات هامة ذات دلالات عميقة، وفي مقدمتها فشل المشروع الطائفي، وإخفاق القوى المتنفذة في إحكام قبضتها على السلطة.

لابد أن نرى بعين فاحصة ونظرة عميقة ما انطوت عليه تجربة الانتخابات الأخيرة من دروس مريرة. لقد خسرنا شوطاً .. هذه حقيقة لا نخشى من الاعتراف بها .ولكن الحقيقة الأسطع أن أمامنا أشواطاً جديدة، وجديدة دائماً، وأن لدينا إمكانيات هائلة لم تستثمر بعد. ولابد، بالتالي، من إعادة النظر بأساليب عملنا، عبر تقييم متوازن لحصيلة تجربتنا، حتى نستعد لمرحلة جديدة تضعنا، حقاً، في قلب حركة الناس، سياجنا الحقيقي.

وفي هذا الإطار ينبغي أن يكف البعض منا عن أوهامهم حول التعامل مع حقائق الواقع وثقافته السائدة، والنظر الى الناس باعتبارهم كتلة صماء لا يمكن اختراقها.

فبدون العمل بين الناس لا يمكن للمرء أن يكون شيوعياً حقيقياً، ذلك أن كل مغزى تميّزنا في حزب طبقي مستقل يكمن، الى حد كبير، في أننا نمارس هذا العمل ونستنهض الطاقات لخلق حركة شعبية واعية، دون أن نسمح لأية عواصف

سياسية أو اجتماعية أن تبعدنا عن هذا الينبوع المتدفق والنشاط الحي، الضروري على الدوام، في أزمنة الانتكاس أو الظفر. ويتعين علينا، ونحن نخرج بعيداً عن جدران الغرف والعمل المكتبي ونتوجه الى الناس متحسسين آلامهم وآمالهم، أن نربي الناس على الاضطلاع بالدور الكفاحي الواعي، عبر استثمار السخط ومواصلة التحريض وتبني المطالب العادلة. فليس هناك ما هو أكثر ضرورة ومشروعية من توسيع نفوذنا بين الناس.

****

تلبيات مستحقة لمطاليب عتيقة
تشخيص ماقبل الانتخابات

د. عامر حسن فياض

تعد الانتخابات من أفضل وانجح الآليات التي توصل إليها العقل السياسي من اجل القبول العام والرضا التام عن السلطة بمؤسساتها وشخوصها التشريعية والتنفيذية. بيد أن تواصل هذا القبول وذلك الرضا يقترن بالأداء الصحيح والمنجز والمتحقق للمؤسسة التشريعية المنتخبة (مجلس النواب) والمؤسسات التنفيذية المنبثقة عنها (الحكومة).

فما هي طبيعة الأداء البرلماني والأداء الحكومي الحالي قبل الانتخابات؟ وكيف نريد أن تكون طبيعة هذا الأداء بعد الانتخابات؟

وصفت المادة الأولى من الدستور العراقي لعام 2005 نظام الحكم في العراق بأنه نظام حكم [نيابي (برلماني) ديمقراطي..]، والنظام البرلماني يقوم، في الأصل، على سيادة البرلمان أو على الأقل على التنسيق والتعاون والانسجام بين السلطتين التشريعية والتنفيذية. بيد أن هذا الأصل تراجع لصالح تنامي السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية على مستوى التجارب البرلمانية في بلدان العالم كافة التي أخذت أنظمتها السياسية تنزع نحو تركز وتركيز السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية.

وكذلك في التجربة البرلمانية العراقية المعاشة والحديثة النشأة نلاحظ ترجيحاً لكفة السلطة التنفيذية (الحكومة بشكل خاص) على كفة السلطة التشريعية (مجلس النواب). وهذا الترجيح يتأتى من أسباب متعددة، الأمر الذي يدفع إلى ضرورة تشخيص واقع أداء المجلس النيابي العراقي بغية تجاوز معوقاته وتحسين أدائه وإصلاحه وبالشكل الأتي:-

السعي إلى إعادة التنسيق والانسجام والتعاون بين عمل السلطتين التشريعية والتنفيذية من خلال تجنب تنامي الدور المهيمن والتأثير السلبي للسلطة التنفيذية على عمل مجلس النواب التشريعي والرقابي من قبل أعضاء السلطة التنفيذية وزعماء الكتل السياسية خارج قبة البرلمان ومن خارج سياقات عمل المجلس النيابي المقررة دستورياً وقانونياً.

ضرورة اعتماد مبدأ التمثيل بآلية الانتخابات في تشكيل المجلس النيابي وفق نظام انتخابي مناسب ومستقر يضمن تمثيل جميع المواطنين العراقيين ويحسن نوعية اختيار المرشحين.

ضرورة تحديث النظام الداخلي لمجلس النواب وبما يؤدي إلى تحسين آليات عمله الإداري والفني، ويحسن اختيار موظفيه، ويعمل على اعتماد معايير الكفاءة والخبرة والاختصاص في اختيار أعضاء رئاسة المجلس ولجانه، كما يعمل على تحديث إجراءات أعماله، وترشيق الامتيازات، وترشيد النفقات، وعدم التباطؤ في عقد جلساته، وضبط نظام الحضور والغياب بالنسبة لجميع أعضاء مجلس النواب وضمنهم رؤساء الكتل النيابية دون الترفع عن واجب الحضور.

إن الوظيفة الرئيسية لمجلس النواب تتوزع دستورياً بين الدور التشريعي والدور الرقابي. وبقدر تعلق الأمر بالوظيفة التشريعية فأن واقع عمل المجلس يؤشر ضعفاً في منهجية العمل التشريعي بسبب إهمال رئاسة المجلس لبرمجة أولويات سن التشريعات المقررة دستورياً وفق أولويات احتياجات المواطن والوطن. ومن بين أهم تلك الأوليات سن قوانين الانتخابات والأحزاب السياسية وتنظيم العمل الإعلامي الحر (قانون الصحافة والمطبوعات)...

أما على صعيد الوظيفة الرقابية لمجلس النواب فإن هذه الوظيفة تم اللجوء إليها مؤخراً وفي الأوقات الضائعة. ولا غرابه في ان يوظف هذا اللجوء، ان كان متأخر، لإغراض ومصالح تدخل في إطار التنابذ السياسي غير المشروع لا في إطار التنافس السياسي المشروع. الأمر الذي جعل هذه الوظيفة النبيلة في الأصل وظيفة شبه معطلة ان لم نقل معطلة في التجربة البرلمانية العراقية بسبب من ان الحكومة تشكلت على أساس المحاصصة لا على أساس حكومة الأغلبية السياسية المنتخبة.

ولما كانت هناك ضرورة دستورية لتشكيل الجناح الثاني للسلطة التشريعية في العراق والمتمثل حسب الدستور بمؤسسة (المجلس الاتحادي) فأن الحاجة تحث، وضمن مبدأ برمجة أولويات سن التشريعات، إلى ضرورة سن قانون المجلس الاتحادي العراقي والتعجيل بتشكيله الأمر الذي سيشكل خطوة مهمة في تطوير مسار وتحسن أداء العمل البرلماني في العراق لما سيقدمه المجلس الاتحادي العراقي من إسناد وخبرة وعون لمجلس النواب.
ان إعادة الاعتبار لمبدأ التنسيق والانسجام والتعاون ما بين السلطتين التشريعية والتنفيذية لا يستقيم بإصلاح وتفعيل الأداء البرلماني فحسب بل بإصلاح وتفعيل الأداء الحكومي ايضاً. وعليه والتزاماً بالدستور، نشدد في مضمار تفعيل الأداء الحكومي إلى ما يأتي:
تشكيل حكومة أغلبية سياسية تقوم على أساس الاستحقاق الانتخابي بعيداً عن تجربة حكومة المحاصصة المريرة.
ضرورة ان تتمثل الوظيفة الأساسية للحكومة بوصفها (حكومة خدمة وطنية) باقتراح مشاريع القوانين في سياق برمجة الأولويات حسب احتياجات المواطن والوطن، وإعطاء الأهمية لملفات الأمن والاستقرار، والخدمات، توفير الموازنة اللازمة لتطوير قطاع الكهرباء والماء والصحة والتعليم والطرق وشبكة الصرف الصحي. مع متابعة التنفيذ وتوفير فرص العمل ومكافحة الفساد والمفسدين بلا هوادة.
ترشيق عدد أعضاء الحكومة الاتحادية والحكومات المحلية بما يتناسب واحتياجات المواطن والوطن.
مأسسة عمل الوزارات ودوائر الدولة غير المرتبطة بوزارة من خلال التزام كل وزارة بالقانون الخاص بها وبالتعليمات والأنظمة الصادرة بموجب هذا القانون من جهة واعتماد سياسة الوزارة لا سياسة الوزير أو الجهة الحزبية التي ينتمي إليها مع منع المحسوبية والمنسوبية والتحزب داخل الوزارات ومؤسسات الدولة كافة.
اعتماد معايير الكفاءة والخبرة والمهنية والاختصاص في ترشيح واختيار الوزراء والوكلاء والمدراء العامين وموظفي المناصب القيادية الأخرى داخل كل وزارة وفي مؤسسات الدولة كافة.
تطبيق قانون مجلس الخدمة المدنية والتعجيل بتشكيل مجلس الخدمة المدنية لاعتماده في سياسة التوظيف في مؤسسات الدولة كافة.
تلك هي مطاليب عتيقة لتلبيات مستحقة ما قبل الانتخابات وما بعدها.

****

سجل الناخبين ومبدأ " صوت واحد لناخب واحد "

جاسم الحلفي

لا غنى عن سجل الناخبين في العملية الانتخابية، ليس باعتباره قاعدة البيانات الأساسية لمعرفة عدد الناخبين المؤهلين للتصويت وتحديدهم، رغم أهمية ذلك، بل هي الوسيلة التي تضمن مبدأ " صوت واحد لناخب واحد". وهو بهذا المعنى تجسيد للدستور الذي نص على إن (للمواطنين رجالاً ونساءً، حق المشاركة في الشؤون العامة، والتمتع بالحقوق السياسية، بما فيها حق التصويت والانتخاب والترشيح).

هناك نوعين من سجل الناخبين الأول هو سجل الناخبين الابتدائي الذي يحتوي على أسماء الناخبين المؤهلين للتصويت قبل إجراء عمليات، الإضافة، الحذف، التصحيح. أما السجل الآخر فهو سجل الناخبين النهائي الذي يحتوي على أسماء الناخبين المؤهلين للتصويت بعد إجراء عمليات الإضافة،الحذف، التصحيح.

اعتمدت المفوضية العليا المستقلة للانتخابات على بيانات البطاقة التموينية في إعداد سجل الناخبين، رغم احتوائها على نواقص وأخطاء كما ظهر ذلك جليا في جميع الانتخابات السابقة، هذه الأخطاء التي كان يمكن تداركها في وقت مبكر من خلال تحديث سجل الناخبين التي تقوم به قبل كل انتخابات. وتعد عملية تحديث سجل الناخبين إحدى العمليات التحضيرية المهمة للانتخابات، توفر من خلالها إمكانية لكل مواطن من مراجعة المركز المخصص لمعاينة اسمه وتدقيقه

وإدراجه في السجل في حالة عدم وجوده لسبب ما. كما يتم في السجل المذكور إضافة أسماء من بلغ السن القانونية للانتخاب، وحسب ما يحدده الدستور، وكما تنص عليه تعليمات المفوضية وأنظمتها. وتعد قضية المهجرين، من أهم القضايا التي ينبغي على سجل الناخبين أن يعالجها فيما يخص حق المهجّر في المشاركة في الانتخابات.

ورغم الجهود التي بذلت في هذا المجال، لكن كان هناك ضعفا واضحا في مراجعة المواطنين لمراكز تسجيل الناخبين. ولضعف اهتمام المواطنين في مراجعة مراكز تسجيل الناخبين أسباب عديدة أبرزها:

1- لم تجر عملية توعية كافية بأهمية هذه الخطوة، ليس للمواطن العادي بل حتى أن بعض السياسيين لم يدركوا ما لهذه العملية من أهمية لناخبيهم. وهناك من لم يبذل الجهد الكافي للتعريف بأهمية هذه الخطوة، فترك بعض السياسيين شعورا يتنامى قوامه أن لا جدوى من الذهاب الى المركز الانتخابي، ولكن من دون تقدير سليم لمخاطره على نتائج الانتخابات.

2- إن عدم مراجعة المواطنين لمراكز التسجيل، يعبر، في بعضه، عن الجزع والسخط على من صوتوا لهم في الانتخابات السابقة. وهذا الموقف الاحتجاجي، هو سلبي إن تمت ممارسته بهذا الشكل، لان الخلل ليس في العملية الانتخابية، بل في نتائجها إذ كانت الخيارات تتم على أساس الولاءات الشخصية والطائفية والاثنية، بدلا من تلك التي تتم على أساس البرامج التي تمثل طموحات الناس وأهدافهم، تلك البرامج التي يتبناها مرشحون أكفاء يمتازون بالصدقية والنزاهة والإخلاص، الى جانب الجرأة في الدفاع عن مصالح الناس ومطامحهم.

3- هناك ضعف واضح في التغطية الإعلامية لهذه العملية، ومجرياتها، فلم يسلط الضوء بما يكفي لعملية تسجيل الناخبين وضرورتها، دع عنك أهمية نشر المعلومات عنها، وتوضيحها بالقدر المطلوب، وعدم الاكتفاء بالإعلانات فقط.

مع كل ما مر، كانت هناك إمكانية لتجاوز ضعف الإقبال على سجل الناخبين، بالاستفادة من تجربة جنوب إفريقيا، التي واجهتها نفس المشكلة في ضعف الإقبال على سجل الناخبين، في انتخاباتها الأولى بعد زوال نظام الفصل العنصري، فاعتمدت على الفرق الجوالة التي تذهب الى البيوت وتقوم بزيارتها لتدقيق السجل. والإمكانية في العراق متاحة عمليا لوضع هذه التجربة موضع التطبيق ، وتجاوز الصعوبات الفنية، شريطة أن تتوفر إرادة وطنية.

وبدلا من أن تعترف المفوضية بالنقص الذي يحصل في سجل الناخبين، بعد كل عملية انتخابات، نجدها تصرح قبيل العملية الانتخابية اللاحقة، بأنها نجحت في إعداد سجل انتخابي رصين، سيجد فيه الناخب اسمه وعلى أساس المحطة، وسرعان ما يتكرر ضعف السجل، مرة أخرى ، ويحرم جراء ذلك عشرات الآلاف من المواطنين والمواطنات من الإدلاء بأصواتهم في يوم الاقتراع.

انطلاقا مما تقدم يمكن اعتبار إحجام المواطنين عن مراجعة مراكز تسجيل الناخبين، بمثابة موقف سلبي تجاه الذين حصدوا الأصوات في الانتخابات السابقة، واحتجاج، في نفس الوقت، على ضعف الخدمات التي حصل عليها المواطن، الأمر الذي يتطلب من السياسيين التمعن في ذلك وتقييمه ليس من الزوايا الفنية وحسب، رغم أهمية القضايا الفنية، ودور المفوضية العليا المستقلة للانتخابات في توعية المواطنين بأهمية سجل الناخبين، واستعدادها في إدارة العملية ابتداء من تدريب الموظفين وتأهيلهم، واختيار مواقع مراكز التسجيل كي تكون قريبة من التحشدات السكنية، وتوفر أدوات التسجيل من سجلات وصناديق وإقفال، الى غير ذلك من قضايا فنية ضرورية.

إن النتائج المترتبة على عدم نجاح المفوضية في إعداد سجل رصين للناخبين، ولد ويولد تداعيات كثيرة. فمن غير الممكن وضع معالجة لسجل الناخبين بمعزل عن معالجة وضع المفوضية ذاتها أساسا. وهذا يأتي عبر مراجعة شاملة وعميقة لأداء المفوضية من سجل الناخبين الى عملية إعلان النتائج والمصادقة عليها مرورا بتسجيل القوائم والمرشحين، والحملات الانتخابية، والتصويت الخاص، والصمت الإعلامي، وافتتاح المراكز الانتخابية، والاقتراع، والعد والفرز، والتدوين وإعلان النتائج، والطعون، والمصادقة على النتائج. كما ينبغي التوقف عند قانون المفوضية المستقلة

للانتخابات، وقانون الانتخابات، وكل هذا لا يمكن أن يتم بمعزل عن تشكيل المفوضية وتخليصها من المحاصصة التي لا يمكن أن تأتي بحكم عادل ومحايد على الإطلاق في مثل هذه الظروف.

لذا ربما لا تنحصر الاستنتاجات هنا بسجل الناخبين لترابط ذلك مع العملية الانتخابية بكل مراحلها. لذلك نطرح هنا مجموعة من التوصيات العامة التي نرى أنها قد تساعد في التغلب على المشاكل التي واجهت سجل الناخبين.

- إجراء إحصاء سكاني وطني، يتم على ضوئه بناء سجل انتخابي رصين.
- إصدار بطاقة الناخب، على أن تحتوي اسم الناخب واسم المركز الانتخابي واسم المحطة التي يدلي فيها بصوته، وان توزع بوقت كاف قبل مواعيد الاقتراع.
- إقرار قانون الأحزاب.
- إقرار قانون ينظم العملية الانتخابية.
- إقرار قانون الحملات الانتخابية، يحدد فيه السقف الأعلى للإنفاق المالي.
- يجب أن يكون عمل المفوضية العليا المستقلة للانتخابات دائما.

إن الانتخابات ليست عملية بسيطة، هذا إذا كان الهدف منها إيجاد أفضل الممثلين لإدارة شؤون المواطنين، ويتم ذلك عبر توسيع المشاركة فيها، وتحسين إدارتها، وتسهيل ممارستها، وهي بالتالي ليست مهمة الغير، بل هي مهمة كل مواطن واعٍ، فهي الخيار الأساس المتاح لإجراء تغييرات تمكن المواطن من تحقيق ما يصبو إليه.

****

مقالات

إشكالية الاقتصاد الانتقالي للأستاذ شارل بتلهايم *

بقلم: إبراهيم كبة

شارل بتلهايم (1913 – 2006) مفكر اقتصادي ومؤرخ ماركسي فرنسي مرموق، مؤسس مركز دراسات وأنماط التصنيع (CEMI) في جامعة السوربون العريقة بفرنسا. عمل بتلهايم مستشارا اقتصاديا للعديد من حكومات البلدان النامية خلال فترة تفكيك النظام الكولونيالي، وكان له تأثير كبير على حركات " اليسار الجديد " في فرنسا، كما يعد واحدا من أهم المفكرين الماركسيين في العالم الرأسمالي. وخلال فترة الخمسينات والستينات من القرن العشرين كانت دراسة الاقتصادات الانتقالية محل مناقشات حامية في الأوساط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية، الماركسية وغيرها. وقد أسهم الأستاذ بتلهايم في هذه المناقشات بعدد كبير من المقالات والمحاضرات جمعت في العديد من المؤلفات أصبح بعضها كلاسيكيا.

في مقالته هذه يتناول الأستاذ إبراهيم كبة بالعرض التفصيلي ما يسميه بتلهايم " إشكالية الاقتصاد الانتقالي "، أي طرح المشاكل التي يثيرها هيكل الاقتصاد المذكور وتطوره، وبالتالي، الطرح العلمي للمفاهيم النظرية الأساسية اللازمة لمعرفة مرحلة الانتقال واستيعاب قوانين التطور التي تخضع لها

يرى الأستاذ بتلهايم أن ما نملكه حتى الآن من مفاهيم " مرحلة الانتقال " هذه، لم يتجاوز المفاهيم العلمية، أي المفاهيم التابعة لإشكالية قديمة واجبة الاستبدال بإشكالية جديدة هي إشكالية المرحلة الانتقالية بالذات. إن هذه المفاهيم العلمية لا تقدم الحلول المناسبة لمشاكل الاقتصاد الانتقالي، بل تقتصر على وصف وتحديد مشاكل الاقتصاد المذكور، وتعين مكانها داخل الإشكالية القديمة، على مستوى الممارسة النظرية وحدها.
إن أهمية قضايا الاقتصاد الانتقالي لا تحتاج لتأكيد، لان عصرنا برمته هو في الواقع - عصر الانتقال- بين الرأسمالية والاشتراكية. ولو تتبعنا عشرات الإشكال المختلفة المعاصرة لمرحلة الانتقال لرأينا أنها قابلة للتصنيف إلى نوعين أساسيين:
الأول هو الانتقال الجذري، أي الانتقال من نمط الإنتاج الرأسمالي إلى نمط إنتاج جديد هو النمط الاشتراكي وذلك بقلب علاقات الإنتاج والعلاقات الطبقية وإحلال دولة جديدة ذات محتوى طبقي جديد محل الدولة الرأسمالية.

أما الشكل **الثاني** فهو الانتقال المحدود ذو المضامين القلقة وغير الثابتة، وهو انتقال مجتمعات واقتصادات كانت حتى الأمس القريب خاضعة للنظام الاستعماري (الكولونيالي) وهي تنتقل الآن لمرحلة ما بعد الكولونيالية Post- Coloniale. وهذا النوع الانتقالي الأخير هو الذي يثير المشاكل التي تحددها وتدل عليها بعض المفاهيم العلمية التي نستخدمها، من أمثال (الامبريالية الجديدة) و (الاشتراكيات الخاصة) التي تشير إلى بعض الحقائق الاجتماعية وبعض المفاهيم الإيديولوجية التي تصفها، من قبيل (الاشتراكية البوذية)... الخ. ويرى بتلهايم انه من الضروري في دراسة هذه الأشكال الانتقالية، تجاوز الحقل الأيديولوجي إلى حقل التغيرات الحقيقية في العلاقات الطبقية وعلاقات الإنتاج والطبيعة الطبقية للدولة.

نظرية ماركس ومشاكل الاقتصاد الانتقالي

يرى بتلهايم أننا لانملك الآن إلا مفاهيم علمية نستطيع بواسطتها استيعاباً أفضل لعدد من الوقائع المعاصرة، بغية تحويل هذه المفاهيم العملية إلى مفاهيم علمية، أي مفاهيم تنتظم في نظرية تسمح بفهم العلاقات بين الحقائق الاجتماعية موضوع البحث. ولهذا فقبل البدء بهذه المهمة يجب أن نفهم موقفنا النظري الحاضر بالنسبة لمشاكل الاقتصاد الانتقالي. إن نقطة الانطلاق يجب أن تكون نظرية ماركس، لأنها وحدها تسمح بدراسة مرحلة الانتقال دراسة عملية، وذلك عن طريق استخدام الأدوات المفهومية ومناهج البحث العلمي التي استخدمها ماركس وذلك من أجل طرح وحلول قضايا الاقتصاد الانتقالي التي تجابهنا في الوقت الحاضر. ومن الضروري التأكيد على أن ماركس وأن كان قد طرح مشاكل الاقتصاد الانتقالي وقدم أدوات التحليل اللازمة لحلها، إلا انه لم يقم نفسه بحلها، أي انه لم يقدم النظرية العلمية لمرحلة الانتقال.

ولإيضاح هذه النقطة يبدأ بتلهايم بتلخيص الموضوعات الخمس التي لخص فيها المفسر الماركسي المعروف التوسر [1] جوهر الانجاز الماركسي في هذا الصدد:

1 - **الموضوعة الأولى:** هي أن ماركس في (رأس المال) استهدف دراسة الفرق النوعي المميز لنمط الإنتاج الرأسمالي، ضمن شروط دراسة أنماط الإنتاج الأخرى بنفس الوقت، باعتبارها أنماطاً توحيدية ملموسة للجميع Verbindung[2] بين عوامل الإنتاج وكذلك بين علاقات أنماط الإنتاج المختلفة ببعضها، ضمن عملية تكوين أنماط الإنتاج.
2 - **الموضوعة الثانية:** هي أن ماركس في دراسته للتراكم البدائي لرأس المال يكون قد وضع التخطيط الأول، أو المسودة، لعملية تكون نمط الإنتاج الرأسمالي، أي أشكال الانتقال بين نمط الإنتاج الأقطاعي ونمط الإنتاج الرأسمالي، أي أن ماركس، بهذه النصوص، يضع مجرد (مسودة) لنظرية الانتقال، ولكن ليس النظرية نفسها، بالنظر لأنها لم تكن هدفه الأساس [3].
3 - **الموضوعة الثالثة:** يظهر مما سبق أن الهدف النظري لماركس هو دراسة نمط الإنتاج الرأسمالي في هيئته الجوهرية- أو حسب تعبير ماركس Kerngestalt - وتشخيص العوامل المحددة للهيئة المذكورة، انه لا يدرس، على سبيل المثال الرأسمالية الانكليزية، التي يستشهد بها فقط في نظرياته بل يدرس موضوعاً مثالياً، يتحدد بمقولات المعرفة، أي المفاهيم المجردة. ولهذا نجد أن الرأسمالية التي يدرسها ماركس تتكون من طبقتين فقط، في حين أن أية رأسمالية في الواقع تتكون من عدة طبقات. أو بعبارة أخرى، أن الفرق النوعي للرأسمالية الذي يدرسه ماركس لا يكون معدلاً أو وسطاً تجريبياً Moyenne Empirique للرأسمالية الواقعية، بل مجرد (مفهوم) النظام الرأسمالي.

4 -**الموضوعة الرابعة:** هناك إذن فرق أو فجوة Ecart بين نمط الإنتاج الرأسمالي في حقيقة مفهومة وبين الرأسمالية الانكليزية مثلاً. وهذه الفجوة هي ما يسميها (التوسر) أحيانا (بالفضلة الواقعية) Residu Reel وأحيانا أخرى(بالشائبة) Impurete ومرة ثالثة (بالبقية) Survivance، القائمة في صلب نمط الانتاج الرأسمالي السائد في انكلترا[4].

5 -**الموضوعة الخامسة:** وهي أكثر ارتباطاً بموضوعنا، يصوغها (التوسر) بالشكل التالي: (أن هذه الشائبة تشكل موضوعاً يعود لنظرية أنماط الإنتاج، وخاصة لنظرية الانتقال بين أنماط الإنتاج الأمر الذي يندمج بنظرية عملية تكوين نمط الإنتاج المعين) [5].

على أن الأستاذ بتلهايم، يبدي الملاحظات التالية بشأن محتوى الموضوعتين الرابعة والخامسة:-

- إن هذه الشوائب أو البقايا..الخ كما يسميها (التوسر) تعود فعلاً لنظرية أنماط الإنتاج، إلا أنها لاتكون الموضوع النوعي، أي الخاص، بنظرية الانتقال بين أنماط الإنتاج، ذلك لان هذه الشوائب موجودة دائماً في الواقع، فلا يمكن أن تكون خاصية لمرحلة الانتقال بالذات، إلا إذا تصورنا جميع الأنظمة الاقتصادية الواقعية اقتصاديات انتقالية، مما يفقد مفهوم (الاقتصاد الانتقالي) خصوصيته. أما إذا أردنا إعطاء معنى محدداً لإصلاح الاقتصاد الانتقالي، وهو الأمر الذي لا مندوحة عنه، وجب تحديد (مركز) Statut هذه الشوائب والبقايا، التي لم يجر التفكير بها حتى الآن ضمن مفهوم علمي، بديل استمرار إطلاق هذه التعابير الرمزية عليها. والمهم هو أن نطرح السؤال التالي بصددها: أليس من الأرجح أن ما يميز الاقتصاد الانتقالي هو شكل نوعي معين من التعايش والوجود المشترك والتفاعل بين عدة أنماط إنتاجية بنفس الوقت؟ إن هذا السؤال يثير السؤال الأهم التالي: إلا تكون هذه الأشكال الخاصة في الوجود المشترك والتفاعل بين أكثر من نمط إنتاجي معين، أنماطا نوعية معينة من الإنتاج؟ ليس المقصود طبعاً منذ الآن تطوير المفاهيم العلمية التي تثيرها هذه الإشكالية بل تقديم جملة تأملات تساعد على شق طريق لتطوير هذه المفاهيم. وهنا ينتقل المؤلف للملاحظة الثانية:

- إن ما سميناه قبل قليل بالبقايا التاريخية في نمط إنتاج قديم لم يستطع التاريخ أزالتها، إنما تمثل في الواقع - منتجات - Poroduits لهياكل اجتماعية معينة، ولا يمكن اعتبارها غريبة أو شاذة عن الهياكل المذكورة، لأنها نتاج لمجموع العلاقات التي تكون تلك الهياكل، وخاصة نتاج للمستوى المعين من تطور القوى المنتجة، وما يميزها من التطور المتفاوت، وبالتالي ما يميز العلاقات الإنتاجية من هذا التفاوت في التطور. أما النظرة إليها باعتبارها(**شذوذا**) فهي وليدة العجز عن الاستيعاب العميق لعلاقات الترابط بين الهياكل التي تنتجها. وهنا يؤكد بتلهايم على أن النظرية لأية اقتصاد واقعي - بصرف النظر عن كونه انتقاليا أم لا - يجب أن تقوم على أساس اعتباره **(تركيباً معقداً ذا اتجاه مسيطر)** Structure Complexe A Dominance أي مزيجاً معيناً من جملة أنماط إنتاجية يتميز واحد منها فقط بالسيطرة، وهذا النمط **المسيطر** هو الذي يطبع مجموع النظام الاجتماعي بطابعه الخاص، **ويعدل** شروط عمل وتطور أنماط الإنتاج **التابعة** أو المسيطرة عليها. أو بعبارة أخرى أن هذه الأنماط التابعة، بحكم تبعيتها تكون مختلفة عنها في حالة (الصفاء)، إنها تصاب، حسب تعبير ماركس بالهزال أو الضمور Etiolement. وكذلك الحال في النمط المسيطر فأنه هو الآخر يتعرض لتغيرات جزئية بحكم طابعه أو دوره المسيطر. والواقع أن هذه التراكيب المعقدة، ليست مجرد **(تواجد)** Iuxtaposition لعدة أنماط إنتاجية بل أنها تكون **تركيباً** Structureمعقداً، له طابع موحد، ويملك عليته الهيكلية الخاصة،ولكنه في نفس الوقت خاضع لتركيب محدد آخر ذي طابع مسيطر يتفق مع نمط إنتاجي معين كالنمط الرأسمالي مثلاً. وإذا كان التواجد والتفاعل بين عدة أنماط إنتاجية يميزان جميع الهياكل الاقتصادية الواقعية. فأن هذا ينسحب

أيضا على الاقتصاد الانتقالي. إلا أن عنصرا جديدا يدخل في هذا النمط الأخير، وهو **شكل السيطرة** بالنسبة للنمط المسيطر، **وأشكال الاستبعاد** بالنسبة للأنماط التابعة، وهذه هي إحدى مشاكل نظرية الاقتصاد الانتقالي. وهنا يستشهد بتلهايم بعبارة للينين وردت في تقريره الشهير " الضريبة العينية " [6] المكتوب في 9 نيسان 1921، يصف فيها النظام الاجتماعي الروسي الجديد في تلك الفترة بأنها تركيب معقد يتضمن خمسة أنماط إنتاجية في الواقع: النمط الفلاحي الأبوي البدوي أو شبه البدوي، والنمط السلعي الصغير، والنمط الرأسمالي الخاص، ونمط رأسمالية الدولة، والنمط الاشتراكي. ويرى **بتلهايم** بأن ما يصفه هنا **لينين** هو نموذج رائع لمفهوم (التركيب الاقتصادي المعقد) من جهة، ومفهوم (الاقتصاد الانتقالي نحو الاشتراكية) من جهة أخرى، باعتبار أن الطبقة العاملة بالذات، كما لاحظ **لينين** نفسه، هي التي تهيمن على السلطة، فضلاً عن هيمنتها على المعامل ووسائل المواصلات والتجارة الخارجية. وفي مثل هذه الظروف، لا تغير بعض التنازلات المحدودة للرأسمال الأجنبي، وبعض الامتيازات الممنوحة للرأسمالية الداخلية، من الاتجاه العام المسيطر، بالنظر للطابع العمالي للدولة، وسيطرة هذه الدولة العمالية على ما يسميه لينين (القمم المسيطرة للاقتصاد). والآن كيف يمكن طرح مشاكل (التركيب الاقتصادي المعقد) بصورة عامة والقيام بعملية تحليلية ودراسة تطوره بصورة خاصة؟ قد يقال بأن الإجابة على ذلك تكمن في مجرد استخدام معارفنا عن قوانين عمل وتطور الهياكل الأولية التي يتألف منها التركيب المعقد. ولكن من الواضح أن هذا المنهج هو منهج تقريبي فقط، وان أهم نقطة ضعف فيه هو تصور هذه الأنماط الإنتاجية الأولية التي تدخل في عضوية التركيب المعقد، وكأنها أنماط **(مستقلة) أو نقية**، ولذلك فان ما نحصل عليه من نتائج في هذا الصدد لا تخرج عن حدود التقريب، وبالتالي فان الفروق الملحوظة بين هذه النتائج والواقع الاقتصادي يجب أن تدفعنا الى محاولة بناء مفهومي جديد للتركيب المعقد ذي الطابع المسيطر، يستجيب بصورة أفضل لطبيعة النظام الاقتصادي الواقعي.

- إن هذا الطابع (المختلط) للأنظمة والهياكل الواقعية لا يقتصر على الاقتصادات القومية، بل هو يسم، وبصورة ابرز، الاقتصاد الدولي، كما يلاحظ **بتلهايم** بحق، ذلك لان تطور القوى المنتجة في أي بلد، مشروط جزئياً بعلاقات الإنتاج العالمية. وهذا يصدق على البلدان الخاضعة للامبريالية، كما يصدق على البلدان المسيطرة أيضاً. ومعنى ذلك أن الاقتصاد العالمي نفسه يكون (تركيباً اقتصادياً لجملة هياكل معقدة). إن الاقتصاد العالمي إذن يشكل الحقيقة الاقتصادية النهائية، وفي إطاره تمتزج، بأبعاد مختلفة، مختلف أنماط الإنتاج ومختلف الاقتصادات القومية، التي تكون أجزاء عضوية من هذا الكل المعقد. ويستنتج **بتلهايم** من كل هذا التحليل بأن دراسة أي اقتصاد قومي واقعي معين، ولنقل مثلاً، اقتصاد أحد بلدان أمريكا اللاتينية، حيث يظهر أن النمط المسيطر هو الملكية الزراعية الكبيرة، **يجب أن لا يتم بمعزل عن شكل علاقته بأنماط الإنتاج السائدة على الصعيد العالمي.** ذلك لان فهم هذا الاقتصاد القومي المحدد يقتضي دراسته كجزء لا يتجزأ من علاقات الإنتاج العالمية، أي اعتباره كتركيب مندمج Integre ولنقل في مثلنا السابق، مسيطر عليه من قبل الاقتصاد الأمريكي. وتصدق هذه الملاحظة أيضا على التحولات الهيكلية والمراحل الانتقالية للاقتصادات القومية. إنها هي الأخرى يجب أن تحلل في ضوء إعادة وضعها في المجموع الهيكلي العالمي. واستناداً لهذه المقولة المنهجية، يؤكد **بتلهايم** بأن مراحل الانتقال للبلدان التي أنجزت ثورتها الاشتراكية **في أوقات مختلفة**،لا يمكن أن تختلف عن بعضها، ليس بسبب العوامل الداخلية الخاصة بكل منها فقط، أي الاختلاف في مستوى تطور قواها المنتجة، والتفاوت في تراكيبها الطبقية ... الخ، بل بسبب التغير الطارئ على **المركب العالمي** نفسه أيضا. وبهذا المعنى تعتبر ثورة أكتوبر الروسية ليست بداية لمرحلة جديدة بالنسبة للاقتصاد الروسي فحسب بل بالنسبة

للاقتصاد العالمي أيضا بسبب التغير العميق الذي أحدثته الثورة في تركيبه الكلي. ويستنتج **بتلهايم** مما سبق، بأن ثورة أكتوبر مزقت وحدة الاقتصاد العالمي الذي كان قد تشكل مع سيطرة الامبريالية، وبذلك بدأت(**مرحلة انتقال للاقتصاد العالمي**).

إن خصائص هذه المرحلة وأطوارها المتعاقبة يجب أن تدرس باعتبارها ظاهرة موضوعية لها جوانبها القومية إلى جانب جوانبها الدولية. وفي الوقت الحاضر لا نملك بهذا الصدد إلا بعض المفاهيم الفقيرة بمحتواها من قبيل(التعايش السلمي العالمي) و(الصراع العالمي بين النظامين). أن أمثال هذه المفاهيم تؤشر فقط إلى وجود المشكلة، مشكلة أشكال وأطوار الانتقال على الصعيد العالمي، ولكنها لا تسمح بطرح المشكلة على الصعيد العالمي. إن وجه الصعوبة في المشكلة هو ليس فقط حجمها وجدتها بل أيضا خصوصية هذا الانتقال العالمي الذي ينطوي على تحولات سياسية وأيديولوجية على مستوى جميع الدول، ذلك لأن هذه التحولات هي التي تغير سيطرة نمو الإنتاج داخل كل دولة. إنها هي التي أدت، على سبيل المثال، إلى تغيير طبيعة الاقتصاد الكوبي في بضعة اشهر فقط، ناقلة إياه من اقتصاد خاضع للرأسمال الأمريكي إلى اقتصاد مندمج بالاقتصاد الاشتراكي العالمي، وسائر في طريق البناء الاشتراكي. إن الطابع القومي المباشر لهذه التحولات يجب أن لا يحجب عنا رؤية الطابع الدولي لعملية الانتقال.

بعد هذه الملاحظات العامة ينتقل بتلهايم لمعالجة بعض المصطلحات تمهيداً لصياغة أكثر دقة لمشاكل الاقتصاد الانتقالي.

حول بعض مصطلحات الاقتصاد الانتقالي

من أجل شق طريق واضح للصياغة النظرية لمفاهيم الاقتصاد الانتقالي، يقترح **بتلهايم** صياغة النظريات والمفاهيم التالية، المترابطة ببعضها، والمتميزة عن بعضها في نفس الوقت:

1 -يقترح أولا الكلام عما يسميه **نظرية نشوء نمط أنتاج معين** Constitution، بمعنى توفير **شروط** نمط أنتاج جديد، أو بعبارة أخرى، نظرية أصول أو جذور النمط المذكور. وقد قدم ماركس نظرية نشوء بهذا المعنى عندما أشار إلى التراكم البدائي لرأس المال، موضحاً كيف انه **في داخل نمط الإنتاج الإقطاعي**، تجمعت **شروط** نمط الإنتاج الرأسمالي، وذلك ليس بفعل العوامل الاقتصادية فقط، بل أيضا بفعل التراكيب السياسية، مثال ذلك تدخل الدولة في بريطانيا لتشريع وتنفيذ القوانين الزراعية (....). أن نظرية تكوين شروط نمط إنتاجي معين في داخل نمط أنتاجي آخر هي إذن، بنفس الوقت، نظرية تحول وانحلال علاقات الإنتاج القائمة. وهذا الانحلال لا يمس هيكل الإنتاج فحسب بل مجموع البنيان الاجتماعي، وهو يتميز بأشكال نوعية معينة من تدخل البناء الفوقي السياسي في البناء التحتي.

2 -ثم ينتقل بتلهايم ثانيا إلى ما يسميه نظرية (الانتقال) Passage من تركيب معين إلى تركيب آخر، موضحاً أن المقصود بذلك هو الانتقال المثالي أو الفكري أو التصوري وليس الانتقال الواقعي التاريخي. إن من نتائج الطابع المثالي لجميع أنماط الإنتاج هو أن تعاقبها **في الفكرة** قد يختلف عن انتقالها **في الواقع**، ذلك لان ما يجري في الواقع هو ليس إطلاقا تعاقب أنماط إنتاجية **نقية بل دائما انتقال** (نمط إنتاجي معقد ذي اتجاه مسيطر) إلى نمط آخر معقد ذي اتجاه مسيطر أيضا. وهذا النوع من الانتقال الواقعي لا يمكن أن يكون في اتجاه مستقيم، ذلك لان المستويات المختلفة للبناء الاجتماعي برمته، تتفاعل مع بعضها، ويمكن أن تخلق الشروط اللازمة لانتقال مباشر من نمط إنتاجي مسيطر لنمط إنتاجي آخر، بالرغم من عدم إمكان حصول هذا الانتقال

على الصعيد النظري المجرد. أو بعبارة أخرى أن تعقد التراكيب هو الذي يستبعد أي طابع مستقيم للانتقال، وقد بينا أن هذا التعقيد يمتد إلى النطاق الدولي، طالما أن كل اقتصاد قومي ما هو إلا (**حلقة**) قد تكون مسيطرة أو تابعة، في سلسة الاقتصاد العالمي. وبهذا الاعتبار فان التناقضات التي تنشأ داخل كل بلد، ليست مجرد تناقضاً **داخلياً** ، بل هي أيضا وليدة شكل اندماج البلد المذكور في المركب العالمي الاقتصادي والسياسي. ومن هنا نشأت فكرة " الحلقة الأضعف". وإذا كان بالإمكان تصور قوانين مجردة للانتقال من نمط إنتاجي إلى نمط إنتاجي آخر، فلا يمكن التأكيد بوجود ضرورة تاريخية لتعاقب مستقيم بين أنماط الإنتاج المسيطرة في الأنظمة الاجتماعية، ذلك لان انحلال أي نمط إنتاجي معين لا يعني أكثر من خلق **شروط** نمط آخر، ولكنه لا يقرر **ضرورة** هذا النمط الجديد، لان هذه الضرورة التاريخية لا تتحدد فقط بالهيكل الاقتصادي، بل بمجموع شروط تحول الهيكل الاجتماعي برمته، بما في ذلك أبنيته الفوقية السياسية والأيديولوجية. ويستشهد **بتلهايم** بمثل انحلال النظام الرأسمالي في الوقت الحاضر. إن هذا الانحلال لا يخلق **مجموع** شروط التحول إلى النظام الاشتراكي إلا إذا توفرت الشروط السياسية والأيديولوجية. ويتوقف توفر هذه الشروط على هيكل الظروف الخاصة Structure des Conjonctures التي تمر بها الأنظمة الاجتماعية. ..(...).

3 -وهكذا يستنتج المؤلف من التحليلات السابقة ضرورة تطوير نظرية ثالثة، بالإضافة الى نظرية النشوء ونظرية الانتقال التجريدي، هي نظرية " هيكل الظروف الخاصة " التي تفتح الطريق للانتقال بين الأنماط الإنتاجية. ويمكن القول بصورة عامة أن (الظرف الخاص) بهذا المعنى هو انفجار مجموعة من التناقضات تعطي للحظة تاريخية معينة طابعا ثورياً، وتثير ضرورة إعادة تركيب النظام الاجتماعي، أي ضرورة استبدال النظام القديم بنظام جديد. ومنذ هذه اللحظة تبدأ- مرحلة الانتقال- التي يجب أن تكون بحد ذاتها موضوعاً لنظرية أخرى هي (نظرية الانتقال) Transition .

4 -بالنسبة " لنظرية الانتقال "هذه، يلاحظ المؤلف أنه على مستوى الاقتصاديات القومية، يمكن ملاحظة نمطين رئيسيين من الانتقال في الوقت الحاضر:

النمط الأول: من " الانتقال " ، بالمعنى الضيق، وهو الانتقال من اقتصاد كان سابقا خاضعاً للنظام الرأسمالي، وان كانت رأسماليته الداخلية ضعيفة أو حتى غير موجودة الى اقتصاد متجه نحو الاشتراكية **والشرط الضروري المسبق في هذا النمط هو انتقال سلطة الدولة الى الطبقة** العاملة أو مجموعة الطبقات المستغَلة سابقا مع الاحتفاظ بالدور المسيطر للطبقة العاملة.

والنمط الثاني: هو الانتقال بالمعنى الواسع، الذي يعني الانتقال من اقتصاد كولونيالي مباشر الى ما يسميه المؤلف (المرحلة ما بعد الكولونيالية). وفي هذا النمط لا تزول أشكال الاستغلال القديمة ولا تلغي السيطرة السابقة، بل تتعدل فقط. **ذلك لان النظام الذي لا تسيطر فيه جماهير الشغيلة على السلطة، ويحتفظ بسيطرة الطبقات المستغِلة - بكسر الغين - لا يمكن إلا أن يستند الى ذلك الجزء من النظام الاقتصادي والسياسي العالمي الذي يكافح من اجل الاحتفاظ بالامتيازات الطبقية ويتضامن مع كل أنظمة الاستغلال.**

وهكذا فان الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية **الداخلية** هي التي تحدد، في التحليل الأخير، اندماج البلد بالنظام الرأسمالي العالمي أو النظام الاشتراكي العالمي. وبالنسبة لهذا النمط الثاني، أي النمط ما بعد الكولونيالي - يمكن أن يتخذ تعبير- الاقتصاد الانتقالي معنيين: الأول هو تغيير أشكال السيطرة دون تغيير جوهرها أو طبيعتها. ومن أوضح الأمثلة على ذلك، الاقتصاد الهندي حيث تستخدم البرجوازية الهندية - رأسمالية الدولة - لإحكام سيطرتها الطبقية، دون إمكانية الخروج من قبضة الرأسمال الأجنبي،

بحكم القيود التي يضعها النظام نفسه على تطوير الاقتصاد الهندي. أما المعنى الثاني الذي يستخدم فيه تعبير (الاقتصاد الانتقالي) فهو حالة حصول توازن مؤقت بين القوى الاجتماعية الطبقية المتصارعة، ولا شك أن مثل هذا التوازن الذي قد يصل الى حد ظهور تحالفات طبقية، علنية أو خفية، يتسم أساسا بعدم الاستقرار، ولا يمكن أن يكون أساسا اجتماعياً لنظام اقتصادي، له قوانين تطوره الخاصة. والمثل الذي يضربه المؤلف على هذه الحالة هو مثل الاقتصاد الاندونيسي قبل انقلاب أيلول 1965.

ولهذا السبب لا يحبذ المؤلف استعمال تعبير(الاقتصاد الانتقالي) على هذه الحالات - بل يفضل عليه تعبير " الوضع الانتقالي " Situation de Transition ، ومن أهم سماته على المستوى الاقتصادي، انعدام النمو الاقتصادي بالمرة تقريباً.

ويستنتج بتلهايم من كل ما سبق بأن إشكالية الاقتصاد الانتقالي تكمن على الصعيد النظري، في إيجاد نظرية لنمط إنتاجي معقد أو انقطاع في الكل المركب القديم. واستناداً الى هذه الملاحظة المنهجية العامة يكون الاقتصاد الانتقالي هو اقتصاد عشية الانفصام وبالتالي فلا تشمل نظرية الانتقال (نظرية نشوء أنماط الإنتاج) بل أنها بطبيعتها نظرية - بدايات - النمط الإنتاجي الجديد. ومن موضوعاتها الهامة دراسة فترة عدم الاستقرار الأولى، تلك الفترة التي تسبق ما سماه **ماركس** فترة "التوطيد الاجتماعي لنمط الإنتاج "[7]. وفي هذه الفترة الأولى، يكون مصير النمط الجديد معلقاً وغير محسوم، ولكنه على كل حال، يعقب مباشرة القطيعة الكاملة مع النمط القديم المسيطر، أو على الأقل يعقب زعزعة سيطرته - حالة الفترة التي تعقب مباشرة التحرر من النظام الكولونيالي- .

إلا أن مشاكل الاقتصاد الانتقالي لا تقتصر طبعاً على دراسة هذه الفترة الأولى، التي يمكن اعتبارها - الطور الأول- لمرحلة الانتقال، بل تمتد لكل الفترة التاريخية التي تمثل فترة التحول من النظام القديم الى النظام الجديد ، والتي تعتبر نفسها مرحلة أولى لنظام تأريخي معين. **وهنا يصل المؤلف الى الفكرة الرئيسة في نظرته وهي أن ما يميز - مرحلة الانتقال- مثلا المرحلة الفاصلة بين الرأسمالية والاشتراكية- هو ليس عدم الاستقرار أو غياب السيطرة بل واقع عدم الانسجام Inadequation الكبير نسبياً، بين جوهر العلائق الاجتماعية الجديدة التي أصبحت مسيطرة، والقوى المنتجة، الأمر الذي ينعكس أيضا في ظهور نوع من التناقض بين نمط الملكية الشكلي ونمط السيطرة الفعلي على القوى المذكورة. وفي مثل هذه الظروف لا تكون العلاقات الاجتماعية الجديدة قادرة على السيطرة بقواها الخاصة، أو بعبارة أخرى لا تكون شروط إعادة الإنتاج الموسع لهذه العلاقات الاجتماعية متوفرة بشكل تام. ولهذا فتلجأ العلاقات الاجتماعية الجديدة، لضمان سيطرتها الى طرق وسيطة Mediations ، وعلى سبيل المثال بالنسبة للاقتصاد الانتقالي نحو الاشتراكية، قد يلجأ النظام الجديد أما الى السوق(حالة السياسة الاقتصادية الجديدة، النيب، في الاتحاد السوفيتي)، أو الى المركزية الإدارية (حالة الخطط الخمسية الأولى في الاتحاد السوفيتي).**

إن اللجوء الى هذه البدائل يدل على استمرار التناقضات الداخلية[8]. وهذه التناقضات إنما تجد حلها في تنمية وتطوير القوى المنتجة لضمان إعادة الانسجام بين العلاقات الاجتماعية وقوى الإنتاج. وبالنسبة للاقتصاد الاشتراكي لابد من دفع عملية اندماج وترابط القوى المنتجة ببعضها الى حد القدرة على الاستغناء عن آليتي السوق والمركزية الإدارية، واستبدالها بالتوجيه المنسق للاقتصاد القومي عبر آليات جديدة مبتكرة، على رأسها آلية التخطيط من نوع جديد.

وعند هذه النقطة من البحث يقترح المؤلف استعمال تعبير (المرحلة) PHASE للدلالة على الفترتين التاريخيتين المهتمين في تطور الأنظمة الاجتماعية وهما فترة (بدايات) النظام، وهذه هي (مرحلة الانتقال) بالمعنى التكنيكي المحدد، والتي تميز، كما ذكرنا، بعدم التلاؤم بين العلاقات الإنتاجية والقوى المنتجة، وثانيا (فترة إعادة الإنتاج الموسع لهيكل الإنتاج)، والتي تتميز بديناميتها الخاصة. أن كلاً من هاتين

المرحلتين تميز بنوع خاص من الترابط بين مستويات النظام الاجتماعي، والترابط بين تناقضاتها الخاصة، التي تميز بالتطور غير المتساوي، وخلال المرحلة بكاملها تغير مواقع التناقضات المذكورة، فما كان تناقضاً رئيسياً قد يصبح تناقضاً ثانوياً، وما كان وجهاً ثانوياً للتناقض قد يصبح وجهاً رئيسياً. وهذا التغير في مواقع التناقضات هو الذي يحدد **أطوار** Stades المرحلة نفسها ويؤكد انتقالها من طور إلى آخر، تبعاً لتغير العلاقات بين الطبقات الاجتماعية أو بين المراتب المختلفة لنفس الطبقة الاجتماعية، والمشكلة النظرية التي يطرحها الأستاذ **بتلهايم** هي: هل يوجد انقسام نمطي للمرحلة الانتقالية إلى أطوار معينة، لها خصائصها النوعية الخاصة بها؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فما هي العلاقة بين هذه الأطوار النموذجية وبين الفترات التاريخية التي اجتازتها اقتصاديات البلدان الاشتراكية. أن الجواب على هذه الأسئلة هو من صميم نظرية الاقتصاد الانتقالي.

الخصائص الأساسية للمرحلة الانتقالية

يرى الأستاذ **بتلهايم** أن المشكلة النظرية الأساسية للمرحلة الانتقالية تجسد في تلمس الإجابة، أو على الأقل بداية الإجابة على السؤال التالي:

بالنسبة لمرحلة الانتقال على مستوى الاقتصاد القومي هل توجد خصيصة عامة مشتركة تميز المرحلة بكاملها وتبرراعتبارها نظريا مرحلة واحدة؟ وإذا كان الجواب ايجابياً، فيثور السؤال الأتي: في حالة وجود خصيصة عامة مشتركة تميز مجموع مرحلة الانتقال من نمط إنتاجي إلى نمط إنتاجي أخر، هل تتميز مراحل الانتقال المختلفة بخصائص عامة مشتركة مماثلة؟ أو بعبارة أخرى إذا كانت هناك خصيصة مشتركة تميز مرحلة الانتقال من النمط الرأسمالي مثلاً، فهل تتكرر هذه الخصيصة العامة بشكل أخر، أي بوسائل أخرى في المرحلة الانتقالية من نمط الإنتاج الرأسمالي إلى نمط الإنتاج الاشتراكي؟

يرى **بتلهايم** أن الإجابة على هذه الأسئلة يجب أن تنطلق من التحليلات المتوفرة لدينا عن مرحلة الانتقال إلى الرأسمالية . لقد أوضح الأستاذ **(باليبار)** بان هذه المرحلة تتميز بنوع من **عدم التوافق بين نمط الملكية الشكلي ونمط السيطرة الحقيقي.** لقد كان النمط الشكلي للملكية لمرحلة الانتقال إلى الرأسمالية هو النمط الرأسمالي، أي تجريد العامل من ملكية وسائل الإنتاج، ولكن نمط السيطرة الفعلي (على القوى المنتجة)، بالعكس، لم يصبح بعد النمط المميز للرأسمالية، وهو نمط الصناعة الكبيرة، ذلك لان رأس المال - كما كتب ماركس نفسه- يسيطر على العمل أولاً في الشروط التكنيكية التي يوفرها التطور التاريخي ، ولا يستطيع مباشرة تغيير نمط الإنتاج[9].

إن هذه المرحلة الأولى من الرأسمالية، مرحلة الانتقال إلى الرأسمالية، هي مرحلة الصناعة اليدوية (المانفكتورة) أن المانفكتورة هي في الواقع نمط إنتاج مرحلة الانتقال إلى النظام الرأسمالي، وان ما يميز هذا النمط الإنتاجي هو دفع خصيصة العامل الحرفي إلى أقصى حدودها أي خصيصة **الوحدة** بين قوة العمل ووسيلة العمل، وهكذا بينما نجد أن علاقة الإنتاج الاجتماعية تعمل هنا على فصم العلاقة الشكلية بين العامل ووسائل الإنتاج، تعمل عملية العمل نفسها، بالعكس على شد الوحدة بينهما. وقد حل هذا التناقض فيما بعد، عن طريق الثورة الصناعية التي أصبح تطورها ممكناً، بالضبط بسبب خضوع العمل الشكلي لرأس المال. إن هذه الثورة الصناعية تتضمن فصم الوحدة بين العامل والوسائل الإنتاجية، لان هذه الوسائل لا تعود وسائل **فردية**، بل تتحول إلى وسائل **جماعية**، بحيث أن الانفصال بين العامل ووسائل العمل لا يتم على صعيد عملية العمل وحدها، بل على صعيد العلاقات الاجتماعية للإنتاج، أو بعبارة أخرى، تعمل الصناعة الكبيرة على تحويل خضوع العامل **الشكلي** لرأس المال إلى خضوع **فعلي**، حسب تعبير **ماركس**[10].

ويعبر الأستاذ (**باليبار**) عن هذا الدور التاريخي للصناعة الكبيرة، بأنها تعمل على توفير الانسجام Homologie بين أشكال التملك والسيطرة، ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا الانسجام نفسه ينطوي بنفس الوقت على تناقض أساسي هو التناقض بين الملكية **الخاصة** لوسائل الإنتاج، والطابع **الاجتماعي** للقوى المنتجة.

الخلاصة أن مرحلة الانتقال إلى الرأسمالية تتميز بنوع من **عدم التوافق**، كما أنها تتميز أيضاً بنوع من الفجوة الزمنية في تكوين العناصر المختلفة للهيكل الاجتماعي. إن الرأسمال كعلاقة اجتماعية، يتكون قبل، وباستقلال عن الخضوع الفعلي الذي يميز نمط الإنتاج الرأسمالي[11].

وهنا يعود الأستاذ **بتلهايم** لطرح السؤال التالي: هل أن مرحلة الانتقال إلى الاشتراكية تتميز هي الأخرى بنوع من عدم التوافق ونوع من الفجوة التاريخية؟ وهل أن هذا التناقض ينتهي هو الآخر بنمط جديد من الثورة الصناعية، أي بسيطرة القوى المنتجة، ذات السمات المتقنة مع العلاقات الاجتماعية الجديدة للإنتاج؟ وهل هذه السيطرة ممكنة بالضبط بفضل الظهور **المسبق** لعلاقات الإنتاج الاشتراكية، أي بفضل نوع معين من الفجوة الزمنية Decalage Chronologique ؟.

يرى الأستاذ **بتلهايم** أن هذه الفجوة تستتبع عدة نتائج هامة، من زاوية الترابط بين المستويات المختلفة للهيكل الاجتماعي. إنها تؤدي من جهة إلى منح المستوى السياسي فعالية خاصة، وتؤدي من جهة ثانية إلى عجز النظام الاقتصادي عن أداء وظائفه بوسائله الخاصة دون اللجوء إلى بدائل وسيطة مؤقتة. مثال ذلك بالنسبة للاقتصاد الانتقالي نحو الاشتراكية، يلجأ النظام لرأسمالية الدولة أو إلى آلية السوق، أو إلى المركزية الإدارية. وتتضح أهمية هذه المسألة بصورة خاصة عند دراسة الأبنية الفوقية السياسية لمرحلة الانتقال، وخاصة أشكال الديمقراطية ودور الجهاز الإداري. وهذا ما يفسر اهتمام (**لينين**) الخاص بما سماه (الصراع ضد البقرطة)، وما سماه أيضاً (الأسس الاقتصادية لتلاشي البيروقراطية). وهكذا يستنتج **بتلهايم** من كل ما سبق بأنه انطلاق من هذه الفكرة الرئيسة، فكرة عدم التوافق بين نمط التملك الشكلي ونمط السيطرة الفعلي على قوى الإنتاج، مع الاهتمام بدرجة عدم التوافق هذا، **وأشكاله النوعية**، يمكن معالجة مشاكل (الأطوار المختلفة) للاقتصاد الانتقالي نحو الاشتراكية، ومحاولة صياغة نظرية عامة لهذه الأطوار.

كما يرى **بلتهايم** أن درجة عدم التوافق هذا في بداية المرحلة وأشكاله النوعية المختلفة حسب البلدان هي التي تقرر البعد التاريخي للمرحلة الانتقالية، والدور المختلف للجهاز البيروقراطي وبالتالي الأشكال المختلفة للديمقراطية الاشتراكية خلال المرحلة. وكذلك على المستوى الاقتصادي يجب أن تطرح، ابتداء من تحليل درجة وأشكال عدم التوافق هذا، مجموع القضايا الاقتصادية للمرحلة الانتقالية، من قبيل دور السوق والنقود والعلاقات المباشرة بين المشروعات الاشتراكية وأشكال تنظيم الزراعة والتغيرات اللازمة في آليات التخطيط نفسه..الخ.

ولا شك أن جميع هذه المشاكل هي مشاكل اقتصادية وسياسية في نفس الوقت، وحلها لابد أن يطرح مشكلة العلاقات بين الطبقات وبين مراتب هذه الطبقات، كذلك العلاقات بين (القمة) و(القاعدة)... الخ. أو بعبارة أخرى لابد من إلقاء الضوء على (التناقضات) التي يثيرها عدم التوافق المذكور، مع العلم أن بعضها قد يتخذ شكلاً عدائياً وبعضها قد يتحول من تناقض ثانوي إلى تناقض رئيس ، ومثال ذلك أن عدم معالجة (الملكية الفلاحية الصغيرة) بشكل صحيح، قد يؤدي أما إلى تخلف القوى المنتجة في الزراعة، كما حصل في الإتحاد السوفيتي قبل تدشين سياسة النيب، أو يؤدي إلى استفحال دور السوق إلى حد التهديد الخطير لنفس علاقات الإنتاج الاشتراكية، كما يحصل الآن في يوغوسلافيا. وهنا يلاحظ بتلهايم بأن (القطيعة) Coupure بين (مرحلة الانتقال نحو الاشتراكية) و (مرحلة التطور اللاحق للاشتراكية) سوف تكون اشد وأعمق من القطيعة بين المرحلتين بالنسبة للنظام الرأسمالي. ومنذ الآن يمكن ملاحظة أن هذه

القطيعة بالنسبة للتطور اللاحق للاشتراكية، سوف تعني نهاية الانفصال بين العمل اليدوي والعمل الذهني، وبين العمل التنفيذي والعمل التوجيهي، أي نهاية الانقسامات الجزئية التي لا تزال قوية داخل صفوف الطبقة العاملة نفسها.

سمات الاقتصاد ما بعد الكولونيالي

بعد هذه الملاحظات العامة عن (الاقتصاد الانتقالي إلى الاشتراكية) يبدي الأستاذ بتلهايم بضعة ملاحظات حول الاقتصاد الانتقالي، بالمعنى الآخر أي (الاقتصاد الخارج من العهد الكولونيالي). يرى الأستاذ أن هذا الاقتصاد يتميز بالسمات التالية:-

1 - إن الوجه الرئيس للوضع الحالي لهذا النوع من الاقتصاد الانتقالي ليس وليد التطور **الداخلي** لهيكله الاقتصادي السابق، أي القوى المنتجة التي تدفع به من طور إلى أخر. إن هذه القوى المنتجة هي، على العكس، قوى راكدة بصورة عامة في هذه البلدان، ولهذا فان وضعها الجديد - ما بعد الكولونيالي - محكوم بقطيعتها مع التبعية السياسية. إن هذه القطيعة هي التي تطلق الإمكانيات الجديدة بفعل التدخلات الخاصة للمستوى السياسي على مستوى هياكل الإنتاج. وكما أن حدث التقاء هذه المجتمعات بالمجتمعات الرأسمالية الغربية هو الذي أثار تغير أنماطها الإنتاجية، فكذلك يتجه حدث انفصامها عن التبعية السياسية الى تغير أنماطها الإنتاجية أيضاً، عاجلاً أو آجلاً ، تدريجياً أو بالعنف.

2 -يلاحظ الأستاذ كذلك إننا نجد هنا - كما نجد في كل انتقال مماثل - نوعا خاصا من تدخل الدولة والقانون والسلطة السياسية في نمط الإنتاج. إن التطور السريع لتدخلات الدولة، وإعلان خطط التنمية، والتأميمات المختلفة للمشاريع الإنتاجية، أوالتجارة الخارجية... الخ ما هي إلا علامات على هذه الانفجارات المتسارعة في التراكيب الاقتصادية. على أن ما يميز التدخلات السياسية هنا عن مرحلة الانتقال نحو الاشتراكية هو أنها غير صادرة عن جهاز دولة تسيطر عليه الطبقة العاملة أو التحالف الطبقي الذي تقوده الطبقة المذكورة، بل عن جهاز دولة لا يزال يحتفظ بالامتيازات للطبقات المسيطرة اقتصادياً ويدافع عنها، أي أن ما يلعب الدور الحاسم هنا هو التناقضات بين بعض الاستثمارات الخاصة والمصالح الأجنبية وليس التناقضات الاجتماعية بصورة مباشرة.

3 -وأخيراً يلاحظ الأستاذ بتلهايم هذه الملاحظة العميقة: بالنسبة لهذه الاقتصادات الخارجية من العهد الكولونيالي ، يبدو لأول وهلة، أننا بصدد دراسة **(الطور الأول) من مرحلة الانتقال** نحو نمط إنتاجي جديد، ولكن قد يكون من الأرجح والأقرب للواقع اعتبار هذه الاقتصادات ممثلة **للطور النهائي من نمط الإنتاج القديم، أي إنها تمثل (انحلال) النظام الذي يسبق الانتقال الحقيقي.** (...)

4 -

القضايا الرئيسة للاقتصاد الانتقالي

الخلاصة - كما يستنتج الأستاذ بتلهايم- أن كل نظرية للاقتصاد الانتقالي يجب أن تعالج مشاكل هذين النمطين من الاقتصاد الانتقالي اللذين يميزان العالم المعاصر:

1 - **مشاكل الاقتصادات التي أطلقت الثورة الاشتراكية، أي التي تطرح فيها مشاكل البناء الاشتراكي. وبالرغم من تعدد هذه المشاكل وتنوعها، إلا أن من أهم هذه المشاكل التي لها طابع نظري أساسي هي أولاً دور الإنتاج السلعي البسيط أو حتى دور الإنتاج الصغير الرأسمالي، في الأطوار الأولى من مسيرة البلدان المتجهة نحو الاشتراكية. وقد أثيرت هذه القضايا بشكل واضح وحاد في أثناء فترة السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) في الاتحاد السوفيتي.** كذلك من القضايا الأساسية في هذا النمط الانتقالي هي قضية أشكال الانتقال من الإنتاج السلعي البسيط إلى **الإنتاج التعاوني.** وهنا تبرز أمامنا مشكلة التجميع الزراعي في الاتحاد السوفيتي، ولكن يجب أيضا دراسة الأشكال الأخرى

للتحول الزراعي، وخاصة التجربة الصينية. أما القضية الثالثة التي تستحق الاهتمام في نظر المؤلف، فهي قضية مختلف أشكال **التوسطات** الضرورية للسيطرة الفعلية على التناقضات التي تنشأ عن عدم التوافق بين نمط الملكية الشكلي ونمط السيطرة الحقيقي. إن من المهم تفحص الدور التقدمي الذي قد تلعبه التناقضات المذكورة وذلك بتصعيدها لنمو القوى المنتجة، وبتوفيرها للشروط اللازمة لتحقيق ذلك. ومما يدخل في هذا النطاق دراسة الترابط بين مشاكل التخطيط ومشاكل التسيير الاقتصادي وخاصة عبر التجربة الكوبية وما أثارته من مناقشات مثمرة. إن المهم في إثارة جميع هذه القضايا هو إبراز محتواها النظري عبر دراسة وتحليل جميع تطوراتها التاريخية الحديثة، مع التأملات النظرية التي صيغت حتى الآن حول هذه التطورات.

2 ـ مشاكل (**الاقتصادات ما بعد الكولونيالية**): ويبرز الأستاذ بتلهايم، بين أهم القضايا واجبة الطرح والتحليل في هذه البلدان: أولا دور وأهمية **رأسمالية الدولة**، وخاصة الفروق النوعية التي تميزها هنا عن رأسمالية الدولة القائمة على الرأسمالية الاحتكارية في البلدان الامبريالية الكبرى. وكذلك الفروق التي تميز رأسمالية الدولة في بلد، كالهند مثلاً، تسيطر عليه برجوازية صناعية قوية، ورأسمالية الدولة في بلد لا تزال فيه القوى المنتجة ضعيفة وبطيئة النمو، ولا يزال خاضعاً إلى فئات محدودة جداً من البورجوازية الصغيرة، اغلبها فلاحي وتجاري، كما هي الحال مثلاً في مالي وكمبوديا. أما القضية الثانية التي تستحق الاهتمام بالنسبة لهذه البلدان فهي دراسة **البنى الجديدة للرأسمالية العالمية**، وذلك لسببين: الأول لان هذه الدراسة تلقي أضواء جديدة على طبيعة بعض المشاكل المطروحة الآن في البلدان الاشتراكية نفسها، والسبب الثاني لان التطور الحديث للرأسمالية ينطوي على آثار بعيدة الغور بالنسبة للتطور اللاحق الممكن للاقتصادات ما بعد الكولونيالية. وفي هذا الإطار بالذات تثور المشكلة المهمة التي يعبر عنها عادة بالمفهوم العلمي (الكولونيالية الجديدة) أو الاستعمار الجديد.

هذه هي مجمل المشاكل والقضايا التي يقترح الأستاذ بتلهايم على جميع المعنيين طرحها والإجابة عليها في سبيل صياغة نظرية علمية متكاملة للاقتصاد الانتقالي.

كلمة تقييم للدراسة

ليس هناك شك في أن دراسة بتلهايم هذه، هي أهم دراسة ماركسية متوفرة لطرح وتحليل إشكالية الاقتصاد الانتقالي. وإذا قارناها، على سبيل المثال، بدراسة الاقتصاد الماركسي الايطالي (**بيزنتي**) Pesenti المكتوبة عام 1956 حول (مرحلة الانتقال)[13]، نجد أنها تجاوزتها بمراحل. لقد كان **بيزنتي** يستخدم مفهوم (المرحلة الانتقالية) Fast di Transizione للتأكيد على **الجانب الانتقالي من الرأسمالية المعاصرة**، أي للدلالة حسب تعبيره الحرفي على (المرحلة التي تتجمع فيها الظواهر التي تشكل الأساس الموضوعي للانتقال من نمط إنتاجي إلى نمط إنتاجي آخر)، أو بعبارة أخرى أن جانب التفسخ والانحلال والاحتضار الذي يميز الامبريالية المعاصرة، هو الذي يكون في نظر(بيزنتي) الجانب الانتقالي من الرأسمالية إلى الاشتراكية. ولهذا بذل الأستاذ المذكور جهوداً ضخمة في دراسته لتفحص وتحليل واكتشاف دلالات الظواهر الأساسية التي يعتبرها مجسدة لهذا الطابع الانتقالي للنظام الرأسمالي، وعلى الأخص تطور القوى المنتجة وتطور أشكال تنظيم الإنتاج وتطور الثورة التكنولوجية ـ العلمية، وتطور العلاقات الإنتاجية الناجمة عن ذلك، مع التأكيد على نمو قوة الطبقة العاملة.

أما بتلهايم فيخرج هذه الحالة نهائياً من مفهوم (**المرحلة الانتقالية**)، ويضع مفهوم هذه المرحلة في سياقه التأريخي العام ضمن المفاهيم الثلاثة الأخرى التي يحددها بدقة ووضوح وواقعية ومنطق نظري رائع، وهي مفاهيم (النشوء) و (الانتقال المثالي) و (هيكل الظروف الخاصة) كما رأينا في أعلاه. كذلك إذا قارنا دراسة بتلهايم بأحدث دراسة متوفرة حول الموضوع وهي دراسة الأستاذ الماركسي الأمريكي (بول

سويزي)، المنشورة في شباط 1972 (حول منهج لدراسة الانتقال نحو الاشتراكية) [14] وجدنا أن مفهوم سويزي (للمرحلة الانتقالية) قاصر على (الاقتصاد الانتقالي بين الرأسمالية والاشتراكية) ولا يتضمن النمط الاقتصادي بالمعنى الواسع ، أي النمط ما بعد الكولونيالي.

والواقع إن أهم ما يميز دراسة الأستاذ بتلهايم، هو تأكيده الصائب على ضرورة إيجاد (الأدوات النظرية) أولاً، استنادا إلى المنهجية الماركسية، قبل إمكان الاستفادة الحقيقية من الدراسات التجريبية أو الوصفية العديدة المتوفرة عن مختلف المجتمعات الانتقالية.

لقد استخدم الأستاذ بتلهايم مفاهيمه الجديدة فعلا في دراسة المجتمعات الاشتراكية والنامية، وخاصة الاتحاد السوفيتي، وبعض البلدان الاشتراكية الأوربية، وتوصل إلى نتائج خطيرة يجلها في كتابين مهمين : الأول هو **(الانتقال نحو الاقتصاد الاشتراكي)**.... والثاني هو **(الحساب الاقتصادي وأشكال الملكية)** [15] الذي صدر بالفرنسية في أواخر عام 1970. هذا بالإضافة إلى عدة دراسات سجالية جديدة حول نفس الموضوع كتبها **بتلهايم** خلال العامين الأخيرين [16]. هذا وهناك شبه إجماع بين الاقتصاديين الماركسيين المعاصرين على أن مؤلفات ودراسات بتلهايم هي أحسن مدخل لدراسة هذا الموضوع البكر والخطير.

ومن المؤكد أن عددا كبيراً من التحليلات الجديدة لاقتصاديات البلدان الاشتراكية والنامية على السواء، قد استثمرت صراحة أو ضمنا بعض المفاهيم والأدوات النظرية الأساسية التي يطرحها بتلهايم في دراسته هذه. وأشير على سبيل المثال، إلى المفهوم الغني الذي يستخدمه الأستاذ الشيلي (آنيبال كيخانو) في دراسته المشهورة لاقتصاديات النظام العسكري الجديد في جمهورية البيرو، وهو مفهوم **(الاستقلال النسبي) للقطاعات المتوسطة في تركيب المجتمع والسلطة**، وما ترتب عليه من ظاهرة (تجزئة السلطة) في البلد المذكور، وبالتالي إتاحة الفرصة أمام الجيش للاستيلاء على مقاليد السياسة والاقتصاد[17]. **ومن الواضح أن جميع هذه المفاهيم هي تطوير وتطبيق لمفهوم بتلهايم عن (الوضع الانتقالي)** القائم على توازن القوى القلق بين الطبقات الاجتماعية الرئيسة، وان كان مفهوم بتلهايم نفسه مستمداً تاريخياً، في رأيي، من بعض التحليلات الماركسية الكلاسيكية وخاصة من تحليلات - انكلز- لطبيعة الدولة. ومن الملاحظ أن الأستاذ سويزي استخدم نفس هذا المفهوم لتشخيص طبيعة النظام الجديد في الشيلي[18] بعد وصول (الجبهة الشعبية) Frerite Popular للحكم.

كذلك تستند بعض تحليلات الاقتصاديين الراديكاليين (سويزي وتلامذته خاصة) لاقتصاديات الدولة الاشتراكية الأوربية، في السنوات الأخيرة، بل حتى تعريفاتهم الجديدة لمفهوم الاشتراكية نفسها، وتقييمهم للتجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ... الخ إلى بعض مفاهيم بتلهايم الواردة في هذه الدراسة، وخاصة فكرة التناقض بين الملكية الشكلية لوسائل الإنتاج والسيطرة الفعلية على قوى الإنتاج، وفكرة - البدائل الوسيطة - كوسائل - تكميلية مؤقتة لحل التناقض المذكور.

إن جميع هذه الحقائق تدل على مدى خصوبة وحيوية نظرية الأستاذ بتلهايم، وسعة الآفاق التي فتحتها، من اجل فهم أعمق لمشاكل العصر واستيعاب أدق لاتجاهات تطوره وصياغة ستراتيجية ثورية أكثر فاعلية لاجتياز الطريق الصعب نحو المستقبل الاشتراكي.

ومع ذلك فهناك بعض الهنات الهينات يمكن تسجيلها على دراسة بتلهايم: **منها أن المؤلف نفسه لم يلتزم دائماً بالمصطلحات التي يقترحها** لدراسة الاقتصاد الانتقالي، فهو مثلاً يستعمل أكثر من تعبير واحد للدلالة على (المرحلة الانتقالية) منها: تعبير Periode ، وأحياناً تعبير Phase .. الخ، كذلك يستخدم الأستاذ أحيانا اصطلاح (نمط الإنتاج) Mode بمعنى تكنيكي ضيق، أي طرائق الإنتاج الفنية، وليس بالمعنى الاجتماعي الواسع المعروف في الأدب الماركسي.

والظاهر أن بتلهايم يستثني مرحلة التراكم البدائي لرأس المال (1500-1750)، أو على الأقل الفترات الأولى من هذه المرحلة من نطاق (المرحلة الانتقالية إلى الرأسمالية) ويعتبرها جزءاً مما يسميه (مرحلة

النشوء). **إننا نعتقد أن هذا الفصل الحدي بين هاتين المرحلتين، يثير عدة صعوبات نظرية لا مجال لاستعراضها هنا، كما أنه لا يتفق مع واقع التداخل التاريخي بينهما، خاصة بالنسبة لأوربا الغربية. كذلك يبدو لي أن ليس هناك فائدة علمية كبيرة من إدخال اقتصاديات البلدان النامية ضمن مفهوم (الاقتصاد الانتقالي) بل أن ذلك، على العكس، يبعث على الاضطراب والخلط، بين هذا النوع من الاقتصاديات التي هي جزء لا يتجزأ من الاقتصاد الرأسمالي العالمي، والاقتصاديات الأخرى المتجهة نحو الاشتراكية،** خاصة وان الأستاذ بتلهايم نفسه، كما رأينا، يرجح اعتبار هذه الاقتصاديات (**التطور الأخير**)، أي طور التفسخ، من النظام القديم، وليس الطور الأول من المرحلة الانتقالية نحو النظام الجديد.

ولكن هذه الانتقادات البسيطة لا تقلل طبعاً من القيمة البالغة لدراسة بتلهايم أو تنال من شأنه كمنظر من اكبر المنظرين الماركسيين المعاصرين.

* العنوان الأصلي للدراسة هو:

C. Bettelheim, Problematique de L,Economie de Transition,Paris 1968

وقد نشرت دراسة الراحل الاستاذ إبراهيم كبة هذه في مجلة "***الاقتصاد***"، العدد 19/السنة الثانية/تموز 1972.

هوامش الدراسة

1 - راجع التوسر ورفاقه - قراءة رأس المال- ، باريس 1965، دار ماسبرو، الجزء الثاني، ص 179- 185 بالفرنسية.

2 - وردت الكلمة الألمانية في النص الفرنسي، بخطأ إملائي واضح، ص11 من دراسة بتلهايم.

3 - راجع تفاصيل وافية عن هذه النقطة في دراسة - باليبار- BALIBAR - حول (المفاهيم الأساسية للمادية التاريخية)، المرجع الوارد في الحاشية الأولى أعلاه، ص 187-332.

4 - التوسر، المرجع السابق ص 183

5 - نفس المرجع ، ص 183

6 - لينين: (المؤلفات الكاملة)، موسكو، 1962، الطبعة الرابعة ص 313، بالفرنسية.

7 - ماركس: (رأس المال) ، المجلد الثاني ص174، طبعة الايدسيون سوسيال، بالفرنسية.

8 - يلاحظ الأستاذ بتلهايم في إحدى حواشي دراسته(الحاشية رقم 10 على الصفحة 20 من الأصل الفرنسي) بأن هذه الحالة هي نقيض الحالة الأخرى التي تنطبق على الامبريالية في طورها النهائي، حيث نجد العلاقة الاجتماعية القديمة عاجزة عن السيطرة على القوى المنتجة، التي تطغى على إطار العلاقات الإنتاجية الذي تعمل ضمنه، فتلجأ الامبريالية في هذه الحالة أما إلى وسائل العنف والإكراه، وأما إلى زيادة النفقات غير الإنتاجية وخاصة النفقات الحربية.

9 - ماركس: (رأس المال) المجلد الأول، ص 53، حسب ترجمة باليبار لعبارة ماركس.

10 -ماركس، نفس المصدر، ص 535.

11 -باليبار ، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص 228-229.

12 -لينين ، نفس المرجع، ص 316، بالفرنسية.

13 -راجع دراسة (بيزنتي) في المجلة الايطالية (النقد الاقتصادي) Critica Economica ، العدد الخامس، لسنة 1956، ص 82-99 ، باللغة الايطالية.

14 -راجع الدراسة في مجلة (مونثلي ريفيو) الأمريكية عدد شباط 1972، المجلد 23، المقال الافتتاحي ، بالانكليزية.

15 -راجع :.Calcul Economique et Formes de Propriete,1970

16 -راجع على سبيل المثال مقالة بتلهايم(مزيد حول المجتمع الانتقالي) المنشورة في مجلة (مونثلي ريفيو) عدد كانون الأول 1970، بالانكليزية.

17 -راجع تعليقنا على كتاب الأستاذ كيخانو، في العدد السابق، حزيران، من هذه المجلة، ص77.

18 -راجع مقال سويزي الافتتاحية في العدد الثاني 1972 من مجلة - مونثلي ريفيو- ص 13/ معلقا على سياسة الحكومة الشعبية في الشيلي.

ثنائيات الطبيعة و الإنسان والمجتمع

أ.د.عبد الكاظم ماجود

الدكتور عبد الكاظم ماجود عون أستاذ الفيزياء في جامعة التحدي/ليبيا، حاصل على درجة الدكتوراه في فيزياء البصريات والليزر من جامعة مينسك عام 1981. عمل أستاذا في العديد من الجامعات الجزائرية والليبية. عاد الى العراق خلال الفترة 2005- 2006 حيث عمل أستاذا في الجامعة المستنصرية ولكن وبسبب الظروف الأمنية التي شهدتها البلاد خلال تلك الفترة، وخصوصا 2006، اضطر الدكتور ماجود الى العودة من جديد الى ليبيا حيث ما زال يعمل هناك. كتب العديد من الأبحاث إضافة الى تأليفه خمسة كتب منهجية في موضوع اختصاصه وهي: *دراسة في النظرية الاهتزازية* (الجزائر 1985)، *تمرينات في الضوء الهندسي* (الجزائر 1987)، *مقدمة في ميكانيك الكم* (الجزائر 1992)، *البصريات* (ليبيا 2002)، *الليزر في النظرية والتطبيق* (ليبيا 2002). ويقدم الدكتور عبد الكاظم في مقاله هذا مقاربة ملفتة حيث يحاول البحث في المشتركات بين فيزياء الكم والحياة الاجتماعية.

ما سأطرحه الآن قائم على أساس المقاربة والتشابه وليس فيه شيء من القطع أو اليقينية: الدخول من باب ميكانيك الكم، القائم على الاحتمالات واللايقينية واللا مطلق، في العالم المنظور، المتحرك والمتغير دائما، عالم الإنسان الخلاق المبدع، مستعينا بما يمكن تسميته بـ **فلسفة الكم**. وهو اتجاه طرفاه الإنسان، ممثلا للعالم المرئي الكلاسيكي، والذرات وأشباه الذرات ممثلة للعالم اللامرئي الكمومي. إنه اتجاه يبحث في التداخل والتفاعل الممكن بين عناصر هذين العالمين وفهم آليات هذا التداخل والتفاعل والاقتراب من طبيعة حركة وسلوك عناصر هذين العالمين، وهو ما رصدته مدارس رصينة متعددة في فيزياء الكم، مفترضة نوعا ما من التأثير المتبادل بين الإنسان وكل الكائنات الحية، المرئية وغير المرئية، من جهة، والذرات وكل ما هو غير حي بالمفهوم المباشر السائد وغير مرئي، من جهة أخرى، الأمر الذي يتطلب من الجانبين قدر ما من الوعي. فلا تفاعل ولا تأثير متبادل بين كائن حي وآخر أو بين كائن حي وآخر غير حي دون وجود الوعي لدى الجانبين. هذا يعني أن جميع مكونات الكون، الحية وغير الحية، عاقلة بدرجات متفاوتة بحسب درجة رقيها، وهذا هو أساس القول الرصين" أن الإنسان ابن بيئته". بمعنى أن ثمة رابطة ترقى الى رابطة الأبوة، بكل ما فيها من تعقيدات، بين الإنسان والطبيعة بكل تنوعاتها، ممثلة بأصغر بنياتها، الذرات. تعتمد قوة هذه الرابطة ومديات ظهورها على مستوى وعي الإنسان وثقافته وصفات الطبيعة نفسها. وهي رابطة ليست ثابتة ولا أبدية، بل هي متغيرة في الزمان والمكان ولا تخص شعبا معينا دون آخر. فلابن البادية طبائع وصفات تختلف تماما عنها لدى ابن المدينة، ولابن الجبل طبائع مختلفة عن طبائع ابن السهل. كل يتبادل التأثير مع كلية الأشياء المحيطة في بيئته، يأخذ من الطبيعة ويعطيها بقدر وعيه هو ووعي الطبيعة. فتفاعل الإنسان مع الصورة، مثلا، هو تفاعل مع لغة ألوان ناطقة ، كل لون يعود الى ذرة معينة تم تهييجها أو إثارتها الى أحد مستوياتها الطاقية وعند عودتها الى مستوى استقرارها بعثت طيفا بذلك اللون المرئي، الأحمر، مثلا، او الأزرق. بمعنى أن تفاعل الإنسان مع الألوان هو تفاعل مع الذرات التي بعثت هذه الألوان. وتفاعل الإنسان مع الموسيقى هو في الحقيقة تفاعل مع الطيف الطاقي لاهتزازات ذرات الهواء الناقلة لاهتزازات الآلة الموسيقية، وتفاعله مع الحرف المكتوب واللوح الجداري والماء العذب وخضرة الأرض الخلابة والوجه الحسن، جميعها تفاعلات تتطلب قدرا من الوعي لدى المؤثر والمتأثر، المرسل والمستقبل. الطبيعة بوعيها الجمعي ترسل والإنسان بوعيه الذاتي يستقبل، يعالج، يتحدى ويقبل التحدي. يتعلم اللعب على العود، ويقود الطائرة ويحل مسائل الفيزياء

والرياضيات ويتعلم السياسة و الأعمال المصرفية والحاسوب وغيرها. كل هذه التفاعلات، مع الآلة ومع الألوان والموسيقى والجمال تتطلب لغة للتفاهم، لغة تعلم الإنسان قبل كل شئ الحوار مع الآخر وتكسبه رقة ومهارة في التعامل مع الطبيعة وثنائية أو رابطة تلازمية معها، وترفع من مستوى وعيه وعطائه وإيثاره. والآخر هنا يبتدئ مع الذات أولا. الذات المؤنسنة، العاقلة، المبدعة، الخلاقة، المحاورة، المرتبطة بالآخر الأبعد، فتتشكل أولى الثنائيات بينها وبين الأنا الرغوبة، العاطفية، الجامحة، الساعية للتفرد والاستئثار. ثنائية الأنا والذات هي ثنائية الوعي والسلوك. وقد يكون الاخر هو كل ما يحيط بنا من بشر وشجر وماء وهواء وقانون ودولة. ولأننا مرتبطون بجميع مكونات محيطنا هذه، إذن لابد من مفهوم فلسفي ينظم هذه الرابطة، مفهوم يستند على فلسفة الطبيعة الممثلة بفلسفة ميكانيك الكم التي ترى أن جميع عناصر الكون يمتلك وعيا طوره هو ذاته مع الزمن وكل أفعاله وتعامله مع الأخر هي نتاج هذا الوعي. الكل يتعامل مع الكل من خلال بنية وعيه. فنحن جميعا موجودون في كون واحد هو كوننا الذي تكون قبل أربعة مليارات ونصف المليار عام فيما يعرف بـ " الانفجار الكبير"غير منفصلين بالمطلق عن بعضنا بعضا، بل أن انفصالنا هو انفصال في السلوك والحركة فقط وليس في الحيز المكاني أو الزماني. فالعالم اللامرئي **(الكمومي- الذرات وشبيهات الذرات)** فينا ونحن بتفاصيلنا الدقيقة نتكون منه، لكننا وبسبب تضخمنا وكبر حجمنا فقدنا إمكانية قياس خواصنا الكمومية المشتركة معه، لكن يمكن جدا الحديث عن تشابهات عديدة في المفاهيم والصفات و السلوك. نحن نعيش، إذن، في سلسلة لا نهائية من الثنائيات في كون لا نهائي.

والثنائية تعني التلازم بين المتغيرات الديناميكية في النظام المجهري (ذرة، جزيء، وكل الأشياء والجسيمات غير المرئية في الكون) كثنائية الـ موجة/ جسيم (wave /particle duality)، ثنائية الموقع /الزخم (position /momentum duality)، وثنائية الطاقة / الزمن (energy/time duality)، وغيرها من الثنائيات العديدة الأخرى التي يمتلكها النظام ألمجهري والتي يمكن رصدها وقياسها منفردة من خلال إخضاع الجسيم لتجربة قياس موقعه، مثلا، خلال فترة من الزمن وإخضاعه لتجربة أخرى لقياس زخمه خلال فترة مساوية من الزمن، أي أن الخاصيتين المتلازمتين لا يمكن قياسهما في أن. نجد أن نتيجتي القياس تشكلان متأرجحة بين مقداري الخطأ والصواب في قياس كلا المتغيرين الديناميكيين (وبالنسبة للموقع والزخم) أو (وبـالنسبة للطاقة والزمن) تعرف بـ " متأرجحة هايزنبرج أو بـ مبدأ الشك أو اللايقين (Heisenberg uncertainty principle).
مضمون مبدأ اللايقين أو الشك هذا هو: أن الدقة العالية المفرطة في قياس موقع الجسيم أو ادعاء ذلك تتلازم مع الإفراط في خطأ أو لا دقة كمية حركته أو زخمه، والعكس صحيح أيضا. وهي (أي الثنائية) مفهوم كمومي (من مفاهيم ميكانيك الكم) تتصف بها كل الأشياء في الكون، ولا يمكن رصدها والكشف عنها إلا في العالم الميكروي (اللامرئي)، لأنها تشترط صغر مقاييس الجسم الخاضع للتجربة خصوصا كتلته. أما بالنسبة لنا نحن البشر والشجر والماء والشمس والنجوم والجبال والقطار وغيرها من الأجسام ذات الكتل الضخمة قياسا بكتل الجسيمات غير المرئية، فالتجربة لا تتحقق، لكن فضاءاتها ونتائجها يمكن الاقتراب منها، مثلما كان يعمل (أينشتين) في تجاربه التخيلية التي تحقق معظمها بعد مماته في أواخر القرن الماضي، عندما أمكن صناعة أجهزة وأدوات بمقاييس ذرية. إذن المسألة بيننا نحن في العالم الكلاسيكي الماكروسكوبي (macroscopic World) والذرات في العالم الكمومي الميكروسكوبي (Microscopic World) هي مسألة مقياس. فبسبب ضخامة كتلنا، قياسا بكتل الذرات، فان خواصنا

الكمومية صغيرة جدا لا يمكن قياسها والكشف عنها بواسطة أجهزة القياس الذرية المتوفرة الآن لكن وجودها مسألة لا يمكن إنكارها أو التغاضي عنها.

بمعنى أن للإنسان أيضا ولكل الكائنات الحية خصائص و طبائع ثنائية، تشابه إلى حد ما أو تقترب من تلك التي للذرات. فمثلا، مقابل ثنائية الموجة /جسيم للذرات هناك ثنائية الوعي و السلوك للكائن الحي. فالموجة المحمولة من قبل الجسيم الذري أو الجزيء الهوائي أو المائي تنقل الطاقة والمعلومات، مخزنة إياها وباثة لها بعد التأثير فيها والتأثر بها. وبعبارة أخري يمكن القول، أن الذرات تستقبل المعلومات كطاقة منتشرة في الفضاء، تتعامل معها، مؤثرة فيها ومتأثرة بها، ومن ثم تعيد بثها من جديد حاملة لصفاتها هي نفسها، إضافة لصفات الموجة الأصلية التي استقبلتها. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود وعي من درجة ما لدى الذرات، ولا يمكن أن يكون عملية عشوائية بأية حال. هذا يدعونا للتوقف والتأمل والبحث عن إمكانية عمل مقاربة بين ما تعمله الذرات ككيان واعٍ وبين ما يعمله الكائن الحي، وخصوصا الإنسان، في تعامله مع الطبيعة. فنشاط دماغه الممثل لوعيه يعبر عن قدرته على استقبال المؤثرات الخارجية التي تصله عن طريق حواسه الخمسة بهيئة إشارات كهرومغناطيسية والتعامل معها والرد عليها بصورة مناسبة وفقا لقاعدة الفعل ورد الفعل المعروفة لدى العالم الماكروسكوبي. ومن هذا الرد نستطيع تحديد صفات الكائن الحي والحكم على مستوى وعيه ودرجة تطوره وتراكم خبرته وقيمه الاجتماعية. وهنا نستطيع أن نسوق مثالا عمليا نجريه لطلبتنا في مختبراتنا الفيزيائية. ففي دراستنا لطيف الأشعة السينية باستطارتها على بللورة ملح الطعام بطريقة براغ، لا نفهم الطبيعة المميزة لطيف الأشعة السينية فحسب، وإنما نفهم أيضا البنية الدقيقة للبللورة نفسها: مواقع ذراتها، الفواصل فيما بين الذرات، الى غير ذلك من صفات البللورة. إن ثنائية الوعي والسلوك لدى الإنسان ترتبط بحقيقة أن للكائن الحي بنيتان للوعي: بنية بدائية لوعي متدني تتلازم مع سلوك أناني، عنصري، استئثاري، تخندقي، عنفي (طائفي أو قومي) يميل الى الجريمة، غايته تبرر وسيلته، وبنية وعي معرفي خلاق متلازم مع سلوك إيثاري، معطاء، حضاري، لا تخندقي، لا طائفي ولا قومي شوفيني. ثنائية الوعي والسلوك لدى الإنسان هي ليست صفة لإنسان أو لشعب معين، كما يسميها بعض علمائنا الأجلاء في علم الاجتماع كعالمنا الجليل د.علي الوردي (ازدواجية الإنسان العراقي)، بل هي خاصة ملازمة للكائن الحي، عابرة للزمان والمكان، تعبر عن التشابه بين عالمين يرتبطان عند النهايات، عالم الكائنات الحية، من خلال متأرجحة شبيهة بـ متأرجحة هايزنبرج تعبر عن الثنائية بين مقدار الخطأ في قياس وتحديد مستوى وعي الكائن الحي ومقدار الخطأ في قياس سلوكه.

هذا يعني انه لا يجوز الحكم على سلوك الكائن الحي بمعزل عن مستوى وعيه، لأننا إذا ركزنا على سلوك الكائن الحي وعلى ردود أفعاله على مؤثرات المحيط الخارجي دون الأخذ بنظر الاعتبار مستوى وعيه ودرجة تعليمه ومقدار خبرته وحتى دوافعه وحاجاته الإنسانية نكون قد أخللنا بأهم قوانين الطبيعة التي تضمن للكائنات الحية وغير الحية توازنها. ومن هنا تنبع ثنائية جديدة غاية في الأهمية، هي ثنائية الكائن الحي والمجتمع، ثنائية الإنسان بوصفه العنصر الأساس في البنية الاجتماعية، وثنائية المجتمع كنسيج عنكبوتي متماسك، يحمي ويغذي من بداخله، وعلى هذا الأخير أن يفعل الشيء نفسه بما يحقق متأرجحة هايزنبرج أعلاه. والثابت هنا هو أن الدولة المؤسساتية هي التي تضبط إيقاع متأرجحة هايزنبرغ الاجتماعية.

من هنا تبدو مسؤولية الدولة في رفع مستوى وعي الإنسان المتشبع بمنظومة القيم الإنسانية الحضارية البعيدة عن التعصب والتمييز العنصري، وتلبية متطلباته الإنسانية وتطوير قدراته على المشاركة الفعالة في بناء وتنمية المجتمع و التعامل الصحيح مع الآخر ومع الطبيعة لتستطيع بعد ذلك وضعه في ميزان المتأرجحات. إن الفقه القضائي القائل: "القانون لا يحمي المغفلين "، هو فقه جائر. فالقانون سيف ذو حدين، فقد يقطع أيدي المجرمين والمفسدين، وهذا لابد منه لحماية المجتمع ككل وصيانة مؤسساته وإضفاء

الهيبة عليها، ولكنه قد يقطع رقاب البسطاء من الناس غير المتعلمين الذين أغفلتهم الدولة والمجتمع. وهنا يكمن الانتهاك الأساس لمتأرجحة هايزنبرج: التركيز على والاهتمام المفرط بفئة مختارة من المجتمع وإهمال الكتل البشرية الأخرى المكون الأساس للنسيج الاجتماعي العام.

لتحقيق أي من متأرجحات هايزنبرج، علينا أن ندرك أن لا أحكام مطلقة على أي من ثنائياتها ولا دقة مفرطة في قياساتنا لأي من متغيراتها الديناميكية. وهذا ليس مرده عجز في قدراتنا أو قدرات أدوات القياس المستخدمة، بل هو من فعل الطبيعة. فكل القياسات والأحكام الممكنة التي تجرى للمتغيرات الديناميكية تتحقق بمقدار ما من الخطأ لا يمكن أن يقترب من الصفر، وإلا لأصبح المتغير الثاني غير معرف، وهذا بحكم المتأرجحات الرياضية نفسها. قد تبدو هذه الثنائيات لدى الذرات ولدى الإنسان هي الأكثر تشابها. فبالنسبة للذرات في متأرجحة الطاقة والزمن، مثلا، فان التدفق الطبيعي للطاقة والزمن يمكن أن يحقق متأرجحة هايزنبرج في قياس متلازم لمقدار الخطأ في قياس جريان الطاقة ومقدار الخطأ في قياس جريان الزمن. أما بالنسبة للإنسان، فان الجريان الطبيعي للطاقة الحركية الجمعية للمجتمع، المتلازم مع وعاء زمني مناسب، يعطينا نتائج احتمالية محسوبة للتغيرات الممكنة للحالة الاجتماعية الجديدة، لكن في حالات التغيير الدراماتيكي المفاجئ وغير المحسوب للحالة الاجتماعية كما حصل عندنا يوم 9 نيسان 2003، يوم سقوط الطاغية، فان ثنائية الطاقة/ الزمن تختل لدى الإنسان والمجتمع ويختل معها تطبيق متأرجحة هايزنبرج .

فالتدفق السريع للطاقة الحركية التي رافقت الفرح الهيجاني الغامر لملايين المحرومين والمضطهدين وضحايا النظام البعثي الفاشي من العراقيين لم يكن متلازما ولا كان ممكنا أن يتلازم مع وعاء زمني كافٍ لاستيعابه، ما أسقط إمكانية تحقيق ثنائية الطاقة /الزمن لدى الإنسان العراقي، التي لا يمكن أن تمسك بها إلا قوى التغيير الاجتماعي الحقيقية، التي كان النظام المذكور قد أقصاها عن مسرح الفعل اليومي، فسادت المجتمع الحيرة وغابت الرؤيا وتعطلت قدرة الوعي العراقي الخلاق في البحث عن حلول مناسبة و التوازن مع الطبيعة. أضف الى ذلك قصدية المحتل في إبعاد القوى الوطنية عن المشاركة الفعالة في رسم خارطة مستقبل البلد آنذاك، متوهما أن القوى الدينية والقومية، التي تدعي أنها تمثل المحرومين والمهمشين من أبناء الشعب العراقي، قادرة على ضبط الأوضاع كذراع يمين له، متجاهلا أو هو جاهلا أصلا بالطبيعة المركبة غير البسيطة للشعب العراقي، فضلا عن استهانته ولا مبالاته بقوة ودهاء الجيران الشرقيين والغربيين والرعب الذي سببه لهم بمفاهيمه المقلقة لأنظمتهم الاستبدادية الفردانية المتحجرة، الأمر الذي دفعهم لان يجعلوا من العراق ساحة تصفية حسابات مع هذا الذي يهدد أنظمتهم الأبدية، غير مبالين بالإنسان وبالوطن العراقي، فعم الاضطراب واللاتوازن الحالة الاجتماعية العراقية وأضاع العراقي بوصلته ووهن وهج الهوية الوطنية، فانتهزت بعض القوى، مشاعر الألم التي خلفتها جرائم الإبادة الجماعية التي اقترفها سفاحو البعث الصدامي بحق أبناء الشعب العراقي بكافة انتماءآتهم القومية والدينية والطائفية، لتتصدر المشهد السياسي بوصفها ممثلة للمعذبين والمضطهدين العراقيين، ليرسموا، وهم الجاهلون بعلم الرسم الهندسي، خارطة سياسية مشوهة لعراق الحضارات والخلق والإبداع، تقوم على أساس المحاصصة الطائفية والقومية، وليدخلوا الكثير من المفردات والمصطلحات الغريبة على المجتمع العراقي، ما أفقد الإنسان والوطن والدولة العراقية توازنهم وضياءهم المشع. وحتى بعد إعادة التوازن النسبي للوضع مازالت تداعيات الأحداث تسير لغير صالح قوى البناء والنمو والاستقرار، ما يفرض نضالا إضافيا مستمرا لبلوغ حالة من التلازم بين متطلبات حقوق الإنسان العراقي (....) ومتطلبات بناء دولة مدنية، عصري (...) دولة لكل القوميات ولكل الأديان و لكل المذاهب، لا مكان فيها لأكثرية قومية متسلطة، ولا أقلية قومية شوفينية متطلبة، ولا طائفة أكثرية سائدة أو طائفة أقلية مهمشة متربصة، دولة مواطنة ومؤسسات وعدالة اجتماعية. بهذا فقط نكون منسجمين مع الطبيعة وصادقين مع أنفسنا كالذرات.

ما يجب الإشارة إليه هنا أنه لا يمكن القول أن ما ينطبق على الذرات ينطبق تماما علينا ككائنات حية، إنما نفترض الاقتراب والتشابه كجيران نلتقي عند النهايات، ابتدأنا سوية و انفصلنا عندما نمت وتضخمت أجسامنا. وبحكم هذا الابتداء والتجاور، ثمة الكثير من التشابه بين متغيرات حركة عناصر هذين العالمين وإمكانية اقتداء سلوك أحدهما بسلوك الآخر . فالفضاءات الممتدة تلتقي عند اللانهاية مثل المستقيمات المتوازية.

بعض المفاهيم المشتركة بين الذرات والإنسان

ثمة مفاهيم مشتركة أخرى بين الذرات والإنسان : أقربها مفهوم التداخل . والتداخل هو خاصة موجية حصرا ويعني تشابك الموجات، تشبيها بتشابك الأيدي . فالموجات عندما تلتقي عند نقطة ما في الفضاء أو في المستوى، تتشابك مع بعضها وينتج عن هذا التشابك أن تتفاعل ايجابيا ويقال أنها تداخلت تداخلا بناءً، معززة بعضها بعضا أو تتفاعل سلبيا، ويقال أنها تداخلت تداخلا تدميريا، مطفأة إحداهما الأخرى، فتبدو نقطة الالتقاء مظلمة. هذا النوع من التداخل هو تفاعل آني لا ضابط له، وغير خاضع للتجربة كمصافحة إنسانية عابرة بين شخصين. أما إذا أريد للتداخل إثبات الخاصية الموجية للموجات أو استثماره لمنفعة تقنية معينة كنقل معلومات عن حالة جزء مريض في جسم الإنسان كما هو عليه الحال في استخدام الموجات فوق الصوتية في الظاهرة المعروفة بـ **"السونار**، أو الموجات الكهرومغناطيسية، التي تنقل الطاقة والمعلومات من منبعها الى نقطة استثمارها كما في الراديو والتلفزيون والنت والحاسوب، ففي كل حالة من هذه الحالات يلزمنا أداة مناسبة لتداخل دائم، تجسد فيه الأمواج وعيها وتحقق ذاتها في ظاهرة من أجمل واهم الظواهر في الطبيعة، وهي ظاهرة التداخل، الظاهرة الأكثر شهرة في الفيزياء المعاصرة، التي بدونها لا يتحقق أي عمل لوعي جمعي خلاق في الطبيعة. ففي التداخل، الذي يراد منه الكشف عن الخاصية الموجية للذرات توضع أداة التداخل على مسافتين محددتين من مصدر الموجات ومن الشاشة التي تظهر عليها الطبيعة المدهشة لظاهرة التداخل متجلية في عملية إعادة توزيع للطاقة الأصلية المحمولة بواسطة الموجة حسب ألوان الطيف الطاقي الساقط على أداة التداخل (إذا كانت الأطوال الموجية للموجات المتداخلة مرئية) بهيئة أهداب تداخلية مرئية، مرتبة يمين ويسار مركز الشاشة كل حسب لونه أو طوله الموجي .

أداة التداخل هذه تسمح لمكونات الطيف الطاقي وألوانه بالمرور خلالها عبر ممرات ضيقة، يقارن عرضها ببعض من الأطوال الموجية المتداخلة دون تمييز بين لون وآخر أو طيف وآخر، بمعنى أن تكون أداة التداخل على مسافة واحدة من جميع ألوان الطيف. عندها فقط تظهر الألوان بمواقعها وحجومها وقممها وألوانها الزاهية، من الأحمر، ثم الأصفر، ... الى البنفسجي، بتناسق هارموني رائع، كل حسب مساهمته في الطيف الطاقي الأصلي، لا زحزحة ولا تجاوز ولا استحواذ من قبل لون أو طيف على آخر، كل له مكانه المحجوز على خارطة التداخل حتى وان غاب أو غيب. خاصية التداخل البناء هذه هي الصفة أو الخاصية الأولى للذرات، التي تعبر عن مستوى وعيها الأعلى. أما إذا أردنا الكشف عن الخاصية الجسيمية للذرات التي تمثل مستوى وعيها المتدني، فإننا نلغي شروط تداخلها، وذلك باستبدالنا لأداة التداخل بأداة أخرى، كالسطح الصلب الخشن، مثلا. وفي هذه الحالة ترتد ألوان الطيف الطاقي عن السطح، ممثلة بجسيمات الضوء المعروفة بـ **" الكمات أو الفوتونات"** ككراة البليارد، متبعثرة في اتجاهات عشوائية شتى، متصادمة مع بعضها البعض، أو ممتصة من قبل مادة الحاجز بعد تصادمها غير المثمر مع ذراته.

أداة التداخل بالنسبة للإنسان هي الدولة، حيث تقف في منتصف المسافة بين حقوق الإنسان كمواطن وواجباته في المساهمة الفاعلة في بناء وإعمار بلده وصناعة تاريخه، تنمي وتراكم فيه منظومة القيم الإنسانية والسلوك الايجابي في تعامله مع الآخر .. الدولة بالنسبة للمواطن يفترض أن تكون أداة تداخل،

كتلك التي للطيف الضوئي، بعلاقتها المتكافئة مع كل الناس، عندما تقف على مسافة واحدة منهم، تخضع وتوجه سلوكهم نحو العطاء والإيثار والتعايش السلمي والتسامح الاجتماعي، ليس بالنصح الغيبي الزائف أو الأحلام الوهمية بخطب مضللة أو بعبارات الايدولوجيا الجامدة، ولا بالأدوات القهرية الصدامية، إنما بتقديم النموذج لدولة الخدمات الساعية للعدالة الاجتماعية، المتماهية مع مصلحة المواطن قبل الوطن . دولة لا تأخذ من الدين أوالقومية أو المذهب وسيلة للهيمنة والتسلط، بل سلطانها الوحيد هو أنها أداة تداخل بناء لكل فعاليات المجتمع الذي تخدمه، دولة التداخل التي تنمي وترعى الوعي الاجتماعي الإنساني الخلاق بين مواطنيها وترسخ مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان، فلسفة وأداء. دولة تبني ثنائية طبيعية بينها وبين مواطنيها على قدم المساواة. في الحالة المعاكسة، عندما لا تتفاعل الدولة بصورة متكافئة مع جميع مواطنيها تكف حينئذ أن تكون أداة تداخل بناء لهم، بل أداة تداخل هدام، وعندها تسود المجتمع بنية الوعي المتدنية التي تتمظهر بالعنف والأنانية والتخندق الديني والطائفي والقومي، والسنوات السبع العجاف التي مرت على شعبنا هي خير مثال على ذلك. من هنا نستنتج أن ثنائية بنية الوعي الخلاق الإبداعي للإنسان وبنية وعيه المتدني العنفي الطائفي القومي الشوفيني هما منتجان مباشران لعلمانية الدولة في الحالة الأولى ولدينيتها وقوميتها وطائفيتها في الحالة الثانية. والمقارنة البسيطة بين تلك الدول التي تسمي نفسها بدين معين وتقصي الأديان الأخري أو قومية معينة وتهمش القوميات الأخرى وتلك التي تسمي نفسها باسم كل الوطن وباسم كل الأديان والقوميات ضمنا، هي برهان حاسم ونهائي على صحة ما ذهبنا إليه. على الدولة أن تكون أداة تداخل بناء لجميع ألوان الطيف الوطني العراقي الذي يمثل ضوء الشمس الأبيض الذي يضيء كل ارض الرافدين، بكافة ألوانه مجتمعة، الأحمر، الأصفر، الأخضر، الأزرق، البنفسجي. على الدولة أن لا تقول أنها " إسلامية أو مسيحية أو صابئية أو أيزيدية" ولا تقول أنها عربية أو كردية أو آشورية أو تركمانية، بل يكفي أن تسمي نفسها باسم الوطن . ما الذي يضيرنا إذا لم نقل نحن امة عربية إسلامية؟ هل ينقص إسلامنا إذا لم نكتب في دستورنا بأننا امة عربية إسلامية ؟هل نقصت ألمانية الألمان أو نقصت مسيحيتهم وهم الأكثر تشددا لقوميتهم وتمسكا بدينهم؟ أو الفرنسيين؟ أوالتشيك...الخ... عندما لم يكتبوا في دساتيرهم أنهم ألمان أو أنهم مسيحيون ؟ فالأمة العراقية تتكون من عدة أديان وكل الأديان مقدسة ومصانة بالدستور. ما الذي يضيرنا إذا لم نقل أو لم نكتب في دستورنا أننا أمة " عربية، أو كردية أو تركمانية أو كلدواشورية "؟ فهذه القوميات هي ألوان شمس بلادنا الرافدينية والشمس لا تعطي لونا ابيض إذا حجب أي من ألوانها الأساسية.

الكلدواشوريون هم أهل بلاد الرافدين الأصليون، وهم مؤسسو حضارة سومر وبابل، الأكراد هم من زينوا قمم جبال بلادنا بأروع قصص البطولة والنضال من اجل الحرية والعدالة الاجتماعية وهم من الشعوب القديمة في هذه الأرض، والتركمان هم من اغنوا الجميع بهذا وذاك. فالوطن يسعنا وهو لنا جميعا، فلا إقصاء ولا تهميش ولا استحواذ. إذا كنا نريد بلدا آمنا، مزدهرا، سعيدا يسوده العدل والسلم الاجتماعي علينا أولا أن لا نسمي وطننا بأسماء دينية أو قومية فردانية.

علينا أن لا نتخندق ولا نتكئ على عتبات هي ملك مقدس للجميع ومن قبل الجميع. لنبدأ بالتدريج وبالإقناع: ننقي أسماء أبنائنا وأحفادنا من الطائفية أولا، ولتأخذ الدولة دورها في ذلك، ولغاتنا فيها من الغنى والثراء ما يجعل الأمر ميسرا. ذلك هو أول ما يجب علينا فعله. ثانيا علينا أن لا نسمي أحزابنا بأسماء دينية وقومية، بل نعتمد المضمون والمنهج في ذلك. فالاحترام للتاريخ النضالي لكل حزب يظل محفوظا في قلوب كل أبناء وبنات الشعب العراقي.

دعونا نفكك التكتلات الطائفية والقومية المقيتة، وان لا نعيد إنتاجها من جديد، ولنكن صادقين مع أنفسنا وحضاريين في تعاملنا مع الآخر وان نصطف مع شعبنا المحروم وان لا نزيد آلامه، فذلك خير لنا وهو آت لاريب. هذا هو دور مثقفي العراق بالدرجة الأولى. فلا للصمت بعد ألان، لا للانتظار، ولا للتطبيل للحاكم

المتفرد الجديد. لنناضل من اجل إعلاء شأن مؤسساتنا الديمقراطية وتعزيز دور منظمات المجتمع المدني وتنشيط النضالات المطلبية السلمية لعمال البلاد وفلاحيها ومثقفيها.

والى زملائي الأكاديميين النبلاء، وأساتذتي في الجامعات والمدارس العراقية، يا رواد العلم والمعرفة، آن الأوان لان تبادروا للتصدي الى مهمة تثبيت مفاهيم الديمقراطية والتبادل السلمي للسلطة التي وردت في دستور بلادنا، بعيدا عن الطائفية تحت أي مسمى، وتعضيد العملية السياسية الجارية والحفاظ عليها من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص للجميع . فانتم من يزرع ويحمي القيم الحضارية الحقيقية في وعي الأجيال الجديدة التي يمكن أن تعيد للوطن إشراقه وبهائه كمؤسس ومبدع للحضارة الإنسانية. بكم وبكل بناة الحضارة في وطننا العزيز تستقيم الممارسات الديمقراطية و تتحقق حقوق وواجبات المواطن. ومن أفواهكم يتعلم النشيء الجديد مفاهيم الحوار وقبول الاختلاف ونبذ العنف.

تلك هي الروافع التي تنهض بالعملية السياسية الجارية في بلادنا. علينا أن نخاطب أبناءنا في الجامعات والمدارس، مثلما علمونا أساتذتنا الأوائل، رواد الحرف والكلمة، بأن لا يختاروا مستقبلا، هم وآباؤهم، عبوديتهم طواعية مرة أخرى. علينا جميعا التصدي بحزم ضد التدخل والعنف الوافدين من الجيران وان نكشف أدوات هذا التدخل وحواضن العنف ومنفذيه وان يكون لنا إزاء ذلك موقف موحد واحد بصرف النظر عن اختلافاتنا، وان نشير الى مكامن الخطر الحقيقية دون خوف والى أدوات التدخل والإرهاب في الداخل والخارج والمتواطئين معهم. مهمتنا في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها بلدنا أن نرفع من مستوى الوعي للإنسان العراقي ونشجعه على النضال المطلبي من خلال المطالبة من أجهزة الدولة بتحسين الخدمات وتوفير فرص العمل للعاطلين والوقوف بشجاعة ضد الفساد المالي والإداري والكف عن الصراع على السلطة بأساليب غير حضارية ولا ديمقراطية. نستطيع ذلك إذا عملنا من أنفسنا سياجا لحماية المفاهيم العلمية والحضارية التي تعبر عن وجودنا وكينونتنا وحضارتنا من محاولات الطمس والتضليل من قبل تلك القوى التي تحاول أن تستبدل العلم بالجهل والنور بالظلام، مستغلة في ذلك عواطف ناسنا البسطاء. لنفشل محاولاتهم الالتفاف حتى على القليل المتحقق من مكاسب بسيطة في سياقات الممارسة الديمقراطية في الحياة اليومية، وان لا يحولوا المكسب الأجمل للعراق الجديد، الانتخابات على أساس البرامج الى انتخابات طائفية بامتياز، والتبادل السلمي للسلطة الى ساحة لإذكاء الحقد والكراهية بدل المحبة والسلم الاجتماعي. لنزرع الوعي لدى أبناء شعبنا الطيبين من اجل حقوقهم في المساهمة الفعالة في تقرير مصيرهم وعدم السماح للجهلة والظلاميين من الانفراد و التحكم في مصائرهم، فانتم قادرون على فعل الكثير إذا عزمتم.

****

إصابات العمل ومسؤولية رب العمل
مدخل أولي لدراسة دور التأمين

المحامي منذر عباس الأسود

أولا: الخلفية التأريخية والنظرية

إن نشأة وتطور نظام الضمان الاجتماعي في العالم ترتب على التقدم الصناعي وازدياد استخدام الآلة وازدياد حجم العمال وتجمعهم في مناطق أو مصانع كبيرة، وزيادة المخاطر التي يتعرضون لها سواء كان هذا التعرض بشكل إصابات عمل أو أمراض مهنية. وقد عجز النظام القانوني في عكس هذه التطورات وفشل إلى حد كبير في حماية الطبقة العاملة، إذ أن التعويض الذي ضمنه القانون للعامل لم يكن تلقائياً بل كان قائماً على مبدأ إثبات إهمال رب العمل. ولم يكن التعويض عن إصابات العمل كافيا لتحقيق الأمان الاجتماعي له في الحالات التي تخلف الإصابة عجزا دائما أو طويل الأمد أو قد تؤدي إلى الوفاة لأن التعويض كان يتمثل بمبلغ من المال يدفع للعامل دفعة واحدة.

لقد عرف أول قانون للتأمين الاجتماعي في ألمانيا حيث صدرت ثلاثة قوانين على التوالي: قانون 15 حزيران 1883 للتأمين ضد المرض وقانون 6 تموز 1884 للتأمين ضد حوادث العمل وقانون 22 حزيران 1889 للتأمين ضد العجز والشيخوخة. واعتمدت هذه القوانين مبدأ التأمين الإجباري الذي يمول عن طريق الاشتراكات التي يدفعها أصحاب العمل والعمال باستثناء التأمين ضد إصابات العمل الذي يمول من اشتراكات أصحاب العمل.

في عام 1911 أصدرت انكلترا أول قانون للتأمين مقررا نظام التأمين الإجباري إلا أن هذا القانون لم يكن تنظيما للتأمين قائماً على افتراض مسؤولية رب العمل عن إصابات العمل، لأن المشرع الانكليزي كان قد أقام مسؤولية صاحب العمل عن تعويض العامل عنها على أساس نظرية المخاطر المهنية التي كانت ترجع إلى قوانين تعود لسنة 1897. وتتأسس هذه النظرية على إثبات الخطأ على رب العمل الذي كانت له دفوع قانونية ضدها ممثلة بتحويل المسؤولية على العامل نفسه بإثبات إهمال العامل نفسه.

وفي عام 1928 أصدرت فرنسا قانون التأمين الاجتماعي، ويقوم على مساهمة كل من العمال وأصحاب العمل في تمويل النظام للتأمين الصحي ضد العجز والشيخوخة والوفاة. في أمريكا كان هناك

مقترح مشروع للضمان الاجتماعي، يتضمن تأمين الشيخوخة والعجز والوفاة والتأمين ضد البطالة حيث اقره الكونغرس الأمريكي في 14 آب 1935. وشهدت روسيا مولد أول نظام للتأمينات الاجتماعية بعد الثورة البلشفية سنة 1917.

كما أصدر المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية اتفاقية تحمل رقم 102 لعام 1952 واقترح فيها للدول المنظمة إليها على تطبيق الضمان الاجتماعي ومنها طوارئ العمل. وقد شهدت تسعينيات القرن العشرين تطوراً ملحوظاً في أنظمة التأمينات والضمانات الاجتماعية العربية على صعيد برامج التأمين أو على صعيد الأداء أو التمويل. كما أن الحكومات العربية أدرجت التأمينات الاجتماعية في سُلم أولوياتها لما لها من دور ايجابي على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

ثانيا: الخلفية التأريخية للضمان الاجتماعي في العراق والقوانين المنظمة

أ– تطور التشريع

أصدرت الحكومة العراقية أول قانون للضمان الاجتماعي للعمال برقم 27 لسنة 1956، إلا أن هذا القانون لم يكن في حقيقة الأمر قانونا للضمان الاجتماعي رغم إطلاق هذه التسمية عليه وإنما كان خليطا من التأمين والادخار الإلزاميين.

من حيث أسلوب التمويل قرر القانون أن يتم بمساهمة ثلاثة أطراف هي العامل وصاحب العمل والدولة. أما من حيث الحقوق التي تنشأ للعامل فقد كانت لا تتجاوز في كل الأحوال رصيد العامل في حالات العجز الدائم والشيخوخة والوفاة. أي إن الوصف لهذا القانون بأنه قانون للتأمين والادخار الإلزاميين يرجع إلى أن ما يحصل عليه العامل كان يتحدد دائما بالرصيد المتجمع له من اشتراكاته (الادخار الإلزامي) والتأمين لمصلحته (اشتراكات صاحب العمل والدولة).

على أن هذا القانون كان يكتنفه القصور من نواحي عديدة أخرى. فقد استبعد أهم المخاطر التي يتعرض لها العمال من أحكامه. وهي إصابات العمل التي ظلت مسؤولية صاحب العمل عنها خاضعة لأحكام قانون العمل. كما أن نطاق سريانه على الأشخاص كان محدود جدا إذ لم يكن يسري إلا على المشاريع الصناعية الكبيرة التي يشتغل فيها أكثر من (30) عاملاً.

ثم صدر قانون الضمان الاجتماعي رقم 140 لسنة 1964. وتعرض قانون الضمان الاجتماعي رقم 27 لسنة 1956 إلى نقد شديد نتيجة قصوره وعيوبه، لأن هذا القانون كان عاجزا عن تحقيق الأمان الاجتماعي للطبقات الكادحة التي أعلنت ثورة 14 تموز 1958 التزامها بقضاياها. ولهذا تمت الاستعانة بمنظمة العمل الدولية التي أرسلت خبيرين إلى العراق، ووضعت المنظمة في ضوء الدراسات التي قاما بها مشروعاً لقانون الضمان الاجتماعي، إلا انه لم تتهيأ الفرصة لإصداره حينذاك. وأخيرا شرع القانون رقم 140 وصدر في 10-10-1964 على أن ينفذ بعد سنة من نشره في الجريدة الرسمية أي في 10-10-1965 إلا إن نفاذه تأجل بعد ذلك إلى 1-4-1966.

ليس هناك شك في أن هذا القانون يعتبر أول خطوة حقيقية في ميدان التأمين الاجتماعي للعمال في العراق رغم انه كان ينطوي على الكثير من النواقص.

ب – نطاق السريان والمخاطر التي يغطيها القانون

جاء النص على تطبيق القانون تدريجيا وعلى مراحل من دون أن يحدد طبيعتها ومواعيد حلولها وإنما أحال ذلك إلى صدور نظام (نظام الخدمة المضمونة) بتاريخ 28- شباط-1966.

أما من حيث المكان فقد نص على تطبيقه في مناطق وحرمان مناطق أخرى من شموله.

أما بالنسبة للمخاطر المضمونة فقد قسمها القانون إلى ثلاثة فروع:

1. المرض: يشمل المرض والولادة والوفاة.

2. التقاعد: يشمل العجز والشيخوخة والخرف.

3. إصابات العمل يشمل أيضا الأمراض المهنية.

أما بالنسبة للمشمولين فقد نص القانون على أن كل (مستخدم) يكون خاضعا للضمان الإلزامي بشرط اشتغاله في مشروع من مشاريع القطاع الخاص يتجاوز عدد عماله العشرين أو في دائرة أو مؤسسة رسمية أو شبه رسمية مدنية كانت أم عسكرية ومن دون تحديد للعدد بشرط أن لا يكون خاضعا لقوانين التقاعد للدوائر والمؤسسات الرسمية وشبه الرسمية. ولا يهم بعد هذا إذا كان العامل يشتغل في مشروع خاص أو عام أو مختلط أو صناعي أو تجاري أو كان عراقيا أو أجنبيا.

ولغرض احتساب الحد الأدنى اللازم لخضوع المشروع في القطاع الخاص للقانون في حالة توزع العمال على أكثر من محل واحد فان مجموع عددهم في مختلف محلات العمل هو المعول عليه.

ج- قانون رقم 112 لسنة 1969

سجّل صدور قانون التقاعد والضمان الاجتماعي رقم 112 لسنة 1969 تقدماً إذ جاءت أحكامه على نحو روعي فيها إنصاف العمال على اختلاف درجاتهم ومدد خدمتهم وظروفها. ولكن يبدو أن هذا القانون قد وضُع على عجل وبطريقة أفقدت واضعيه الفرصة لتطوير شكل ومضمون الضمان الاجتماعي في العراق، فاقتصرت مهمتهم على زيادة حقوق المضمونين من حيث الكم فقط. ولذلك فإن القانون لم يصمد طويلا في التطبيق.

د- قانون رقم 39 لسنة 1971

الغي القانون رقم 112 لسنة 1969 وصدر قانون جديد حقق تغييرا جذريا في نظام الضمان الاجتماعي في العراق وكان يحمل رقم 39 لسنة 1971. وجاء هذا القانون ليشكل نقلة نوعية في فن ومضمون الضمان الاجتماعي. ويمكن تحديد أهم الملامح الرئيسة للتغيير الذي أحدثه هذا القانون كما يلي:

1. التغيير في النظام: إن كلا من القانونين رقم 140 لسنة 1964 و 112 لسنة 1969 اعتمدا مبدأ تقسيم العمال إلى خمسة أصناف وقد تخلى القانون الجديد عن هذا التقسيم.

2. التغيير في الشمول والموضوع:

أ. من حيث الشمول: جاء القانون الجديد مقررا مبدأ الشمول التام لجميع العمال بالضمان الاجتماعي على أن يتم هذا الشمول تدريجيا وضمن اجل زمني محدد.

ب. من حيث الموضوع: أصبح لأول مرة في العراق نظام حقيقي للضمان الاجتماعي في حالات المرض والولادة والخدمات.

3. التغيير في الجوهر والمحتوى: في ظل هذا القانون الجديد لم يعد مقياس استحقاق التعويض أو المكافأة أو الراتب ما يكون قد أدخره العامل أثناء قدرته على العمل. بل أصبح الأساس الجوهري الأول للاستحقاق هو وجود الحاجة الفعلية للحماية الاجتماعية.

هـ – نطاق سريان قانون رقم 39 لسنة 1971

1. من حيث المكان: لم يحدد بنص صريح إلا انه يمكن استنتاج ذلك على نحو غير مباشر من بعض نصوصه. ويستفاد من المادة (2) منه إن القانون يسري على جميع أرجاء العراق حيث لم يرد في القانون أي قيد يقيد إطلاق هذا النص، أي أن النطاق المكاني لسريان قانون الضمان الاجتماعي هو جميع أرجاء العراق دون أي استثناء.

2. من حيث الزمان والأشخاص:

– من حيث الزمان:

يعمل بهذا القانون من تأريخ صدوره واعتبارا من 1-4-1971 وعلى جميع العمال المشمولين بأحكام قانون التقاعد والضمان الاجتماعي رقم 112 لسنة 1969 المعدل.

– من حيث الأشخاص:

تقرر بموجب قرار مجلس قيادة الثورة (المنحل)المرقم 150 في 19-3-1987 أن يقتصر سريان أحكام قانون العمل على عمال القطاع الخاص والمختلط والتعاوني فقط ، مع ملاحظة حكم قرار مجلس قيادة الثورة المرقم 1634 في 20-12-1978 الذي قضى بتطبيق أحكام القانون على المشاريع التي تستخدم

خمسة عمال فأكثر، مما يعني أن العمال الذين يعملون في مشاريع تستخدم اقل من هذا العدد لا زالوا غير مشمولين بأحكام القانون.

و- نطاق التغطية: المرض – العجز والشيخوخة – إصابات العمل

وما يهمنا هو ضمان إصابات العمل. إن الحماية في قانون التقاعد والضمان الاجتماعي رقم 39 لسنة 1971 لا تقتصر على الإصابات التي تقع في محل العمل بل تمتد إلى الإصابات التي تقع في الطريق إلى العمل أو العودة منه كما تشمل الأمراض المهنية التي تعتبر بحكم إصابات العمل.

ثالثا: الاشتراكات في صندوق التقاعد والضمان

إن مصادر تمويل صندوق التقاعد وضمان العمال بموجب قانون وزارة العمل والشؤون الاجتماعية رقم 29 لسنة 1987 تتكون مما يلي:

1. الموجودات النقدية والعينية التي آلت من المؤسسة العامة للتقاعد والضمان الاجتماعي للعمال الملغاة.

2. مصادر تمويل دورية تتحدد أساسا بما يلي:

أ. الاشتراكات التي يلتزم بدفعها العمال وأصحاب العمل.

ب. حصة الصندوق من الأرباح وفقا لأحكام القانون رقم 101 لسنة 1964 والبالغة 14% من الأرباح.

ج. عائد استثمار فائض أموال الصندوق.

د. الغرامات القضائية التي تفرض على المخالفين لأحكام قانون الضمان والفوائد التأخيرية المترتبة على أصحاب العمل الذين يتأخرون عن تأدية الاشتراكات.

والاشتراك هو استقطاع نقدي إجباري يتحمله الممول يدفعه مساهمة منه في تمويل التأمينات الاجتماعية، وقد عرفته المادة الأولى من قانون الضمان الاجتماعي بأنه (المبلغ الواجب دفعه على الجهات التي يحددها القانون لقاء أي من الخدمات أو التعويضات أو المكافأة أو الرواتب التي تقدمها المؤسسة للشخص المضمون وفقا لأحكام هذا القانون). إن القانون لا يلزم العمال إلا بالمساهمة في تمويل التقاعد، في حين يلزم الإدارات وأصحاب العمل بتمويل ضمان جميع المخاطر المقررة في القانون.

واعتمد قانون رقم 39 لسنة 1971 أسلوب تحديد الاشتراك على أساس نسبة مئوية من الأجر حيث قضت المادة 27 منه بما يلي:

يستقطع من العامل المضمون نسبة 5% من اجر العامل لقاء اشتراكه في المؤسسة.

نسبة 12% من الأجور على جميع أصحاب العمل ما عدا الذين استثنوا من أحكام المادتين الأولى والثانية من القانون رقم 101 لسنة 1964 المعدل.

رابعا: التعريف القانوني لإصابة العمل

هي الإصابة نتيجة حادث وقع للعامل أثناء تأدية العمل أو بسببه ويعتبر في حكم ذلك كل حادث يتم خلال فترة ذهابه لعمله أو عودته منه. أي المقصود بالإصابة هي ضرر جسماني ينشأ عن واقعة خارجية مباغته وعنيفة.

وتنقسم إصابات العمل إلى:

1. الإصابات المباشرة التي تحدث:

- في موقع العمل.

- خلال فترة ذهاب العامل من والى العمل.

- بسبب العمل لأية مهمة تناط للعامل من قبل صاحب العمل خارج أوقات العمل.

2. الأمراض المهنية التي يتعرض إليها العمال لمخاطر مهنية فيزيائية أو كيماوية أو حيوية.

3. الإصابات بسبب الإجهاد والإرهاق اللذان قد يصيبا العامل في حالة إناطته للقيام بمسؤوليات إضافية وساعات عمل إضافية.

وقد ينتج أو لا ينتج عن الإصابة ضرر والذي بدوره قد يؤدي أو لا يؤدي إلى عجز.

خامسا: شروط إصابات العمل

يشترط في الحادث الذي تنشأ عنه الإصابة أن يقع أثناء العمل فإذا لم يقع أثناء العمل فقد يكون العمل هو سبب وقوعه كما في أدناه.

وقوع الحادث أثناء العمل: يعتبر الحادث قد وقع أثناء العمل إذا كان قد وقع أثناء الفترة المحددة للقيام بالعمل والقيام بالعمل وبالتالي يتحقق الوصف ولو انتفت السببية بين العمل والحادث. وفي حالة وقوع الإصابة أثناء العمل فإنها تعتبر إصابة عمل أيا كان السبب إذ قد يكون سببها قوة قاهرة ولا يرجع إلى ظروف العمل أو نتيجة اعتداء شخص ثالث ففي كل هذه الحالات تعتبر الإصابة إصابة عمل.

وقوع الحادث بسبب العمل:يشترط لاعتبار الإصابة إصابة عمل أن تقع بسبب العمل. والمقصود بذلك الإصابة الناشئة عن الحوادث التي تربطها بالعمل رابطة سببية ولو أنها وقعت في غير مكان العمل أو زمانه. لذلك، يقتضي إثبات الارتباط بين العمل والحادث، أي إثبات أنه لولا العمل لما وقع الحادث. إذن

لا يشترط أن يكون الحادث ناشئا عن العمل بالذات، أي عن مادية العمل لأنه في هذه الحالة يكون أساس التعويض مبنيا على مخاطر المهنة وهذا لا يتفق مع قصد المشرع.

سادسا: الإجراءات والتحقيق عند وقوع الإصابة

ألزم القانون أصحاب العمل بالتبليغ عن وقوع الإصابة حال وقوعها إلى كل من الشرطة وقسم تفتيش العمل في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.

ويترتب على أصحاب العمل الأتي:

على صاحب العمل المبادرة فورا للعناية بالعامل الذي يتعرض لإصابة عمل أثناء العمل أو بسببه.

تأمين إيصال العامل المصاب لأقرب مركز طبي تعتمده دائرة الضمان (عندما تستوجب ذلك).

الالتزام بدفع الأجر الكامل لليوم الذي وقعت فيه الإصابة للعامل المصاب وعن الأيام التي يتأخر فيها إيصاله إلى المركز الطبي المعتمد.

سابعا: التحقيق وتحديد المسؤولية

يقع على لجنة تفتيش العمل المختصة واجب التحقيق الفوري عن أسباب وقوع الإصابة وبيان ظروفها وجميع الملابسات التي رافقتها وإذا ظهر أن مسؤولية الإصابة تقع على العامل أو على صاحب العمل أو على جهة ثالثة بينت ذلك بوضوح في تقريرها.

إن تقرير التفتيش يعتبر مستندا رسميا يركن إليه في توجيه المسؤولية وتحديد المتسبب في حدوث الإصابة. ولذلك يقتضي في هذه الحالة أن يكون التقرير واضحا بحيث يحدد المسؤولية بشكل دقيق.

كما أن القانون النافذ لا يقر للعامل المصاب حق الخيار في الرجوع على المتسبب بالإصابة وإنما اكتفى برجوع دائرة الضمان على الغير المتسبب بالإصابة الذي يلزم بدفع التعويض الذي تقرره المحكمة وفقا للقواعد العامة في القانون المدني.

ثامنا: التزامات دائرة الضمان في حالة وقوع الإصابة

عندما تتوفر الشروط التي حددها القانون للإصابة تترتب للعامل المصاب حقوق تتناسب مع جسامة الإصابة ودرجة العجز الناشئ عنها.

تلتزم الدائرة برعاية ومعالجة العامل المصاب عند إخطارها بالحادث وحتى شفائه تماما أو وفاته.

يعتبر العامل من تاريخ إصابته وحتى شفائه أو ثبوت عجزه بحالة إجازة بدون اجر أي أن صاحب العمل لا يدفع أجرا إلى العامل المصاب إذ يستحق في هذه الحالة تعويض إجازة إصابة طوال فترة معالجته يساوي كامل أجره الذي دفعه عند الاشتراك الأخير.

المكافأة التعويضية: إذا نشأ عن الإصابة عجز يقل عن 35% من العجز الكامل يستحق العامل المصاب مكافأة تعويضية تمنح دفعة واحدة على أساس الرصيد الناجم عن نسبة عجزه الجزئي مضروبة بمبلغ إجمالي يساوي راتب تقاعد الإصابة بالكامل عن أربع سنوات.

الراتب التقاعدي عن العجز الجزئي: قد يؤدي حادث العمل إلى إصابة احد أعضاء جسم العامل بضرر بحيث يؤثر ذلك على قدرة العامل في العمل والكسب، وقد يكون عجزا جزئيا دائما. إن العجز يتقرر بعد شفاء العامل تماما.

الراتب التقاعدي عن العجز الكامل: إن العجز الكامل هو الذي تتحدد درجته بـ 100% وهو الذي يَحُول كلية وبصفة مستديمة بين العامل المضمون وبين مزاولته لأية مهنة أو عمل يكتسب منه. وفي هذه الحالة يستحق راتبا تقاعدياً عن العجز المذكور على أساس 80% من متوسط الأجر في سنة عمله الأخيرة أو خلال مدة عمله إن كانت اقل من سنة. أما في حالة الوفاة للعامل المتقاعد المصاب بعجز كامل فيحول راتبه إلى خلفه.

حالة وفاة العامل نتيجة إصابة العمل: يستحق راتب تقاعد الإصابة الكامل الذي يمثل 80%من متوسط اجر العامل المتوفي في سنة عمله الأخيرة أو خلال مدة عمله إن كانت اقل من سنة.

حالة تكرار الإصابة: إذا تكررت الإصابة للعامل الواحد تراعى القواعد التالية:

إذا كانت نسبة العجز في إصابته الأخيرة مضافة إلى نسبة عجزه السابقة لا تبلغ 35% من العجز الكامل يمنح مكافأة نقدية على أساس نسبة العجز في الإصابة الأخيرة مضروبة بمبلغ إجمالي يساوي راتب تقاعد الإصابة عن أربع سنوات.

إذا كانت نسبة العجز في إصابته الأخيرة مضافة إلى نسبة عجزه السابقة قد بلغت 35% من العجز الكامل فأكثر يمنح راتب تقاعد إصابة على أساس مجموع نسب العجز التي إصابته دون الرجوع عليه بما سبق ا ن تقاضاه من مكافاءات تعويضية عن إصابته السابقة.

تاسعا: دور شركات التأمين

إن تأمين إصابات العمل في العراق لا يتم عن طريق شركات التأمين وإنما يطبق قانون الضمان الاجتماعي ومن خلال دائرة الضمان الاجتماعي. كما انه برأينا لا يوجد هناك دور لنقابات العمال وتنظيمات أرباب العمل في الاهتمام بالحماية التأمينية وتطويعها ضمن متطلبات القانون حيث لم المس ذلك.

إن دور شركات التأمين العراقية، في الوقت الحاضر، هو أنها تقوم بإصدار وثيقة تأمين من الحوادث الشخصية لمن يرغب من الشركات أو المصانع والمعامل. تغطي هذه الوثيقة الإصابات البدنية العرضية الناجمة فقط عن عوامل عنيفة وخارجية ومرئية تؤدي بمفردها ودون تدخل أي سبب أخر إلى الوفاة أو العطل الجزئي أو العطل الكلي الدائم المانع من مزاولة المصاب لعمله أو أي عمل أخر، وفقا لما يرد في جدول المنافع للوثيقة، لقاء قسط تأمين سنوي يحدد في جدول الوثيقة. وتتعهد شركة التامين بان تدفع للمؤمن عليهم أو للمستفيدين أو للورثة الشرعيين في حالة الوفاة المبلغ أو المبالغ المذكورة في الجدول شريطة أن تقع الإصابة خلال مدة التأمين المذكورة فيها. ويدفع مبلغ أية منفعة بموجب وثيقة التأمين خلال شهر من تاريخ ثبوت الإصابة وما يترتب عليها بعد أن تكون الشركة قد اقتنعت بصحتها، وان مثل هذا المبلغ عند دفعه سيكون خاليا من أية فوائد تأخيرية قد يدعى بها.

إن هذا النوع من التأمين يلجأ إليه الكثير من الأشخاص لحماية أنفسهم من المخاطر التي تواجههم إلا أن الذي حد من فاعليته في تحقيق ألامان الاجتماعي انه لم يكن بمقدور كل الأفراد اللجوء إليه إذ إن الانتفاع منه رهين بتوفر القدرة المالية على دفع أقساط التأمين، وهذا ما لا يتاح لأكثر الناس حاجة إلى الأمان وهم الفقراء. فحماية المؤمن عليه ترتبط بقدر القسط الذي يؤديه للمؤمن لا بالمخاطر الاجتماعية التي يواجهها، وما ينشأ عنها من أضرار.

وقد كان هذا التأمين الأساس الفني الذي قام عليه نظام التأمين الاجتماعي مع حرص هذا الأخير على تجنب مساوئ الأول فجاء التأمين الاجتماعي إلزاميا لا يستهدف الربح ساعيا إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، محققا مبدأ التضامن بأجلى صورة.

بغداد
آذار 2010

المراجع:
د. عدنان العابد، د. يوسف الياس، قانون الضمان الاجتماعي (بغداد، د.ن، د. ت، توزيع: المكتبة القانونية).
وثيقة التأمين من الحوادث الشخصية (الجماعية) المستخدمة من قبل شركات التأمين العراقية.

الاساس الطبقي لـ "الماركسيات" الصينية اليوم *

روبرت ويل Robert Well
ترجمة: عزيز سباهي

روبرت ويل هو مؤلف (القط الأحمر، القط الابيض، الصين ومتناقضات "اشتراكية السوق" Monthly Review Press 1966 وعديد من المقالات والابحاث حول الاقتصاد السياسي الصيني والعلاقات الطبقية.

في خاتمة (البيان الشيوعي) يصف ماركس وأنجلز مجموعة من "الاشتراكيات" كل واحدة منها تمثل محاولة من جانب الطبقات المختلفة لربط نفسها بالنظرية الآخذة بالتطور حديثاً، مستخدمة إياها للدفاع عن مصالحها الخاصة، كالمحافظين "الاقطاعيين" أو "البورجوازية" أو "البورجوازية الصغيرة" و "اليوتوبيا النقدية" وهلمجرا. شئ من هذا النوع يحدث الآن في الصين، مع وفرة في المواقف النظرية، كالادعاء بكونها "ماركسية" تنهض لتمثيل مختلف المواقع الطبقية. فـ "الاصلاحيون" الرأسماليون الذين مثلهم (دنغ تسياوبنغ) في نهاية السبعينات أوجدوا إنشقاقاً في الآسس الايديولوجية لليسار الصيني، وبذلك وسعوا ونوعوا من الانشقاقات التي كانت تجري خلال الثورة الثقافية. فالحركة باتجاه الرأسمالية، على الخصوص، في الوقت الذي تستمر بالادعاء انها تتمسك بالنظام الاشتراكي الذي يقوده الحزب الشيوعي، تنادي بـ "السوق الاشتراكية ذات الخصائص الصينية" وهكذا، فهي تحتاج في الواقع الى لي المفاهيم الماركسية لتوفير الشرعية للسياسات الجديدة. في الوقت ذاته "تتفتح" الصين على آراء جديدة، لاسيما تلك الوافدة من الغرب، وكانت النتيجة أن برز طيف واسع من "المنظرين" الذي يدعون "الماركسية" ولايزال بعضهم يتمسك بالسياسات الثورية لعهد ماو، حتى اولئك الذين يحتضنون الرأسمالية بدرجات مختلفة كضرورة للتقدم، لكنهم يرغبون في ذات الوقت في تقليل الاضطرابات والاستقطابات في النظام القائم؛ الى اولئك الذين يوفرون الغطاء للإيديولوجيا "الرسمية".

هذه السلسلة الطويلة من المواقع الايديولوجية ذات ترتيبات وتكوينات متحركة، وبضمنها تلك التي ترتبط بالادارة كالكونفشيوسية [1] والتاوية والقومية والديمقراطية اللبرالية.

هذه "الماركسيات" المختلفة الموجودة الآن في الصين تصطف من تلك التي تجد جذورها لتتحرى بدقة الأوضاع الاجتماعية الى أخرى تكاد تكون تجريدية بالكامل. ان الماركسية "الرسمية" التي تسود أوساط دوائر الحزب والدولة، على الخصوص، يُحرصُ في الغالب على ان تُركن الى مستوى عالٍ من التجريد لأنه يستحيل في الواقع ان تقرن مواقعها النظرية بأوضاع المجتمع الذي يحيط بها. من بين المواد العروضة هنا، الموقف الذي يتخذه البروفسور (جنهاي يانغ). ففي رأيه وهو يحشر "السوق" في الاشتراكية ان ذلك قد فتح عصراً جديداً كاملاً في التطور البشري ابتداءً من عام 1978، ليس للصين وحدها، وانما للعالم بأسره. فيما تؤطر مناقشته بسطحية فيما يتعلق بتأريخ الماركسية، ويقدم ملاحظات مهلهلة حول الحاجة، مثلاً، الى الوحدة ما بين "الكفاية" و "المساواة" في النظام الاشتراكي، الا ان تحليله

يستند الى مجموعة من المفاهيم التي صيغت بمثالية عالية. والشئ الرئيس هنا الزعم الشائع بأن "السوق" عامل محايد يمكن ان يتكامل مع الاشتراكية او الرأسمالية. كما يوظف يانغ الأمر، ان هذا المفهوم يسمح بالتلاعب النظري ببراعة. فبالنسبة له، طالما كان كل ما يوجد في الصين اليوم هو "السوق"، وطالما كان بوسع هذه السوق ان تعمل، وتعمل بالتأكيد في خدمة النظام "الاشتراكي"، فلا حاجة اذن لمناقشة طابع السياسات الرأسمالية التي تقحم في النسيج الاقتصادي والاجتماعي، مهما كان السبيل الذي ستتخذه هذه المناقشة.

ورغم ان يانغ يقر بان الرأسمالية يمكنها ان "تستقطب" و "تهاجم بوحشية" فان حجته خالية من اية مناقشة حول تطبيقها وظروف المجتمع الصيني اليوم. فطبقاً له، ليس هناك مكان في اليوتوبيا الجديدة بشأن "اشتراكية السوق" لكلمات معينة مثل "الرأسماليين" و "البروليتاريا" و "الفلاحين" وبوجه خاص "الاستغلال" و "الصراع الطبقي".

ان الاعداد المتزايدة من الملياردية، والمستغِلين الاحتكاريين الاجانب، والعمال المهاجرين المستغَلين في سن قبل البلوغ الذين يعملون بوجبات عمل تصل الى 16 ساعة في مصانع التصدير، والملايين المفصولين من العمل في المشاريع التي تملكها الدولة، والفلاحين والمزارعين الذين يناضلون في قطع أرضهم الصغيرة في وجه المنافسة العالمية – ليس من هذه كلها ما يدخل في تجريده النظري. وبدلاً من ذلك، كل ما في الأمر قليل من السمكرة غير البارعة للابقاء على التوزان ما بين "السوق" و "الاشتراكية" بحيث لاتستطيع لا "الفوارق" ولا "المساواة" ان تخرج عن الخط المرسوم. ولكن برغم انفصالها التام تقريباً عن المجتمع وإغفالها التناقضات المتفاقمة في الصين اليوم، فان لهذه الايدولوجيا استخدامها السياسي. هذا البناء "الرسمي" هو جزء من مشروع لا يزال ناقصاً لتوفير قاعدة إيديولوجية متماسكة لانبثاق طبقة رأسمالية في الوقت الذي يرمي بالغلاف الماركسي الظاهري الذي يغلف النظام، خافياً أعماق الاستغلال والاستقطاب المتعاظم، ومدافعاً عن الشرعية الأيديولوجية للموظفين "الشيوعيين" الذين هم على ترابط مع شركائهم الأجانب والخواص، الذين هم المنتفعون الأوائل من النظام الاجتماعي الراهن.

مع (جيتسيونغ يي)، يتخذ تحليل "الإصلاحات" الصينية على أساس أكثر متانة. هنا لا مفر من مناقشة تخريبات الأوجه الرأسمالية للنظام الراهن – الاستغلال، الفساد، الدمار البيئي، وهلمجرا – ولا مفر ايضاً من ان يضاف الى ذلك، الحاجة الى نقد الاوجة المختلفة لعهد ماو. تحليله يستند الى الماركسية، ليس لمجرد غطاء لنشاطات الحزب والدولة، وانما كنقد لاذع لبعض النظريات والسياسات الرسمية لاسيما تلك التي تعود الى (جيانغ زيمين). كذلك يزود (يي) عرضاً نافعاً لبعض الفروع الكثيرة لـ "اليسار" في الصين اليوم. في هذه وغيرها من الأوجه، فانها مناقشة، بوجة عام، اكثر جدية. وهي محاولة في العمق اكثرمن تلك التي جاء بها (يانغ) في الصراع مع التناقضات في النظام الصيني الراهن والمقاربات لحلها. رغم ذلك، هناك بعض التداخل في تحليلها برغم الاختلاف في التناول يي يؤكد ان "ماركس ينسب دوراً ثميناً وضرورياً للرأسمالية في البروز النهائي للأشتراكية" – قول سليم، لكنه تحليل ذو تطبيقات مختلفة في مجتمع مرَّ تواً بثورة اشتراكية، رغم انها مؤقتة وغير تامة. ورغم ان هذه الوظيفة الرأسمالية قد تعتمت في الحال، إلا أن قوله بـ "ان يورط المرء نفسه في وقت واحد بالاشتراكية وباقتصاد السوق" يبدو وكأنه يعاني من الانفصام النفسي بالنسبة للبعض و "ديالكتيكي" بالنسبة لآخرين، ولكن في الحالين هناك حاجة للمسألة" ومع هذا الاستبدال، فإن الرأسمالية تتحول مرة أخرى – كما هي الحال مع يانغ – الى ما هو اكثر من "تسويق" معتدل. وهنا كذلك، ينبغي الابقاء على الاستقطاب والاستغلال ولكن بـ "ضبط". وأفضل ما يمكن ان يؤمل من هذا، انه "يتوجب على الحزب ان يحاول ضمان العمال الصينيين بشكل أفضل لا أسوأ، أفضل، إن أمكن، من العمال في البلدان الرأسمالية المعروفة". ليست هناك أية اشارة للحاجة الى ان تطيح الطبقات العاملة في الدول الرأسمالية، ولتحديد الثورة الاشتراكية من أجل انهاء الاستغلال كلية.

تمتد جذور هكذا تحليل عميقاً، ولهذا، ففي محاولة الاضافة الى ماركس يجرى طرح مقاربة غير ثورية. وفي حال كهذا تنقلب الماركسية الى بحث عن تحرير "الانسانية". يقول يي: لإزالة القيم الانسانية الماركسية معناه إنكار الغرض

الأساسي لماركس، اي التحرير.. ان هدف "الرأسمال" (مؤلف ماركس) هو تفسير النماذج الاجتماعية، للكشف عن قوانين التطور الاجتماعي، التي تتمثل في تاكتيكات الصراع الطبقي، والثورة البروليتارية ودكتاتورية البروليتاريا، لكن التاكتيكات ليست هي الهدف.

هذا، أيضاً أمر دقيق، كقولنا تماماً ان "غرض" الأكل هو توفير ما تحتاجه المعدة من غذاء. اوباستثناء الحالات النادرة كالتغذية بالأنابيب، نقول ان "التاكتيكات" المكتشفة حتى الآن لتحقيق هذا الغرض هو وضع الغذاء في الفم ومضغه وبلعه. اي ان المجتمع لم يكتشف الى الآن طريقة للمرور مباشرة من الرأسمالية حتى الحدث النهائي الذي نادى به ماركس وهو "محو استغلال العمال وجميع المضطهدين في المسار نحو تحرير البشرية" بدلاً من اللجوء الى الثورة الاشتراكية. وفيما يقترح ماركس، بالتأكيد، انه في ظروف استثنائية معينة في النضال من أجل الاشتراكية، من الممكن لبلدان معينة ان تتجاوز الحاجة الى اي انقلاب ثوري. وفي غير هذه الاستثناءات النادرة لم يجز مثل هذه المحاولات. وهكذا، فلإختزال "الثورة" الى مالايزيد عن موقف "تكتيكي" هو تشويه كامل لها، ويجردها من محتواها الأساسي. إن النضال الطبقي الثوري، كما يراه ماركس، والاستيلاء على سلطة الدولة من جانب البروليتاريا، هما خطوتان جوهريتان في الانتقال الى الاشتراكية في الطريق الى الشيوعية. ولكن، مرة أخرى، مثل هذا التشويه يخدم غرضاً سياسياً. ان إحتضان ماركسيةٍ ما قائمة على "إنسانية" غامضة، يمثل محاولة لأيجاد "ارض وسطية" في النضال الطبقي "تليين حواف" الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية. ومثلما لاحظ ماركس، فإن مثل هذه الجهود هو تعبير ايديولوجي للبورجوازية الصغيرة، اي التذبذب ما بين البروليتاريا والبورجوازية، التي ترغب في الهروب من الاصطدام العنيف بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الحديث، بل هنا بعض الأوجه من:

الاشتراكية المحافظة، او البورجوازية.. اقتصاديين يتعاطون أعمال الخيرإنسانيين محسنين لتطور الأحوال الاجتماعية للطبقة العاملة، منظمي الإحسان (الذين) يرغبون في تقدم الظروف الاجتماعية الحديثة دون نضالات ومخاطر تنشأ عنها بالضرروة. هم يتوقون الى الحالة القائمة للمجتمع ناقصاً عناصرها الثورية وعناصرها المتحللة. (ماركس وانجلز، المؤلفات، طبعة 1962، ص56).

مع هذا، فان أنقى ممثلي آراء كهذه، كان البورجوازي الصغير (برودون)، الذي "*بدلاً من الحروب المرعبة التي كان يجري التحضير لها بين مختلف الطبقات داخل كل أمة، وبين مختلف الأمم، وبدلاً من النشاط العملي والعنيف للجماهير، والذي بواسطته فقط يمكن حل النزاعات " بدلاً من كل هذا يطرح هو تكويناته النظرية*" (من رسالة لماركس الى ب.ف. أننكوف، كانون الثاني،1846).

هكذا الأمر أيضاً مع النداء الكونفسيوسي من أجل "الانسجام الاجتماعي". من السخرية ان تستخدم افكار كونفشيوس التي تعود الى ما قبل 2500 سنة والمفاهيم التاوية والمفاهيم القانونية، كجزء من حملة لـ "التحديث" يبدو انها، والى حد بعيد، تفر من تحليلات كثيرة، لكنها تمنح بامتياز "خصائص صينية خاصة" لأية نظرة او سياسة. وبالنسبة للبعض، حتى من بين اليساريين هي جزء من عاطفة قومية جديدة. مثل هذه المفاهيم التقليدية تكاد تكون طيّعة بلا حدود، تعتمد على الأوجة التي يجري التأكيد عليها. فبالنسبة الى (يي)، فان الكونفشيوسية بعد ان تجرد من أبعادها الكهنوتية والمعادية للديمقراطية والمضادة للمساواة، تعير نفسها الى مفهوم انساني ماركسي عن الانسجام"، وعلى هذا النحو تصبح واحدة من الوسائل التي يمكن ان يلين الصراع الطبقي بها.

نظريات كهذه، تعكس في الغالب، مصالح البورجوازية الصغيرة لـ"الطبقة الوسطى الجديدة" والكوادر من المستوى المتوسط والمالكين والمديرين "الذين يتأرجحون بين البروليتاريا والبورجوازية" الذين انتفعوا بشكل هائل من نظام "اشتراكية السوق" الرأسمالية، ولكن الذين تضطرب اوضاعهم اكثر فأكثر من نمو التناقضات التي تهدد مكاسبهم التي تولدت حديثاً. وبينما يتعاطف كثرة منهم مع الطبقة العاملة، فأنهم يخافون من عودة الاضطرابات التي عرفتها سنوات

ماو، وهم يرتعبون من ذكريات الثورة الثقافية. هم ينشدون الاستقرار الاجتماعي قبل كل شئ، ويتوجسون خيفة من شبح عودة صراعات الطبقة العاملة. ولكونهم من النخبة التي تنال اكبر المنافع، فان قسماً منهم يدافع عن الاصلاحات السياسية، لكنهم يترددون بفعل الخوف الذي يطبق على "عشرات الملايين من الصينيين الاميين وظيفياً والذين يعوزهم الوعي الديمقراطي الى حد خطير". هكذا يقدم ممثلو هذه المرتبة الوسطية على هذا النحو وفرة من المفاهيم النظرية الجديدة التي يمكن ان تحتوى الماركسية بها، ولكن فقط بعد ان تتقلص الى سلبية ومدرسية "ومن دون عناصرها الثورية".

لدى (شاوبو تسي) و(فينغزين وانغ)، ترفض التجريدات وضبابيات الماركسية الصينية الرسمية. وهكذا ايضاً الجهود التي تبنى على حسن التغير لاستبدال الرأسمالية "السوق"، او اللجوء الى الانسانوية الماركسية الطوباوية. وهذا يسمح لهما ان يقدما تفسيراً مختلفاً جداً لبعض ذات القدر من التحليل الذي يقدمه (يانغ) و (يي). يناقش (تسي) "الغموض" النظري لمصطلح "اشتراكية السوق" وانحرافاتها عن الموديل الاقتصادي "الحر" الغربي مؤكدا ان "لا الاشتراكية قد خسرت ولا الرأسمالية قد ربحت في الصين" بينما يعرض (وانغ) الأمل لـ "الاستقرارالاجتماعي"، بل وحتى ان الصين قد "تبتدع نظاماً جديداً". وهما لايزالان واضحين ان "الحقيقة التجريبية" للأقتصاد "ليست بعيدة عن الرأسمالية الناضجة، مع الاستغلال والنزاعات، "الفوضى والتفاوتات الطبقية المثيرة". يرى (يي)، وهو يأخذ بنظر الاعتبار ماورد، ويستغيث بـ "الانسجام" ليس كخطة لانجاز النظام الاجتماعي، بل كقبول بالرأي القائل كم هو بعيد جداً النظام اليوم عن القاعدة، ومحاولة لتهدئة المشاعر الساخطة والوهم الاجتماعي" واحتواء الاستقرار. هكذا يؤكد وانغ أيضاً على "إجماع" الكونفشيوسية والبيئوية التاوية، التي تواجه الاستهلاكية الفردية الرأسمالية. بالنسبة لـ (يي) لم تعد الماركسية اللينينة وفكر ماوتسي تونغ "الرسمي" اعتقاداً سياسياً، وانما هو ستراتيجية، جزء من مزيج مطاطي للتعامل مع الأوضاع المتغيرة، بينما يؤكد وانغ "الانتقائية" التي تدرس بها المفاهيم الماركسية في الوقت الراهن، ويحذر من الاحتمال المفسد لقبول المزيد من الرأسماليين في صفوف الحزب. وهكذا، برغم مزايا معينة، وفوارق دقيقة بينهما، كلاهما يشدد على المزيد من الطبيعة الرأسمالية المتزايدة مستقبلاً في الصين، والانقسام الطبقي المتعاظم، والثمن الباهض الذي جلبه كل هذا للطبقات العاملة واغترابها ومقاومتها المتعاظمة.

ان (يي) و(وانغ)، وبرغم موقعهما الشخصي كموظفين في الحزب والدولة، وكونهما أكاديميين او مثقفين.. الخ، يواصلان انحيازهما شخصياً الى جانب الطبقات العاملة، ويحاولان تأكيد ثقافتها وانخراطها. والاساس الطبقي لتحليلها ربما كان قد لحظه وانغ في نهاية حديثه: "*أنا اعتقد أن القوة الحقيقية في كل مجتمع تكمن في الجماهير الواسعة للشعب. والمهمة الرئيسية لأي امرئ يرغب في تحقيق الشيوعية، هي، في الدرجة الأولى، الارتفاع بوعي الشعب بالشيوعية*".

وهكذا، هما قادران على تثمين مئات الملايين من العمال والفلاحين. ان العهد الاشتراكي الثوري في ظل (ماو) أنجز قدراً عظيماً من التطور الاقتصادي الجماعي والتضامن السياسي، وفي النهاية، التعليم والرعاية الصحية والضمان الاجتماعي التي ضاعت جميعها الآن او تكاد. ورغم انهما يقران بالإنجازات الاقتصادية الخام، وتعاظم فرص الحياة المتسعة للنظام الراهن، فانهما يشددان على الثمن الذي يتوجب دفعه، في المقام الأول، الاستغلال للطبقات العاملة، وتعاظم الاستغلال وأوجه الاغتراب للثقافة التي تزداد خصوصيتها. كذلك يلاحظ (وانغ) ان التفسير التأريخي لهذين العهدين ينقسم وفق خطوط طبقية مع أولئك الذين كابدوا مباشرة اكثر من غيرهم إبان الثورة الثقافية، والذين يمسكون الآن بزمام الأمور، ويحملون وجهات نظر سلبية تجاه عهد ماو اكثر من الطبقات العاملة التي انتفعت من سياساته. هناك قلق يتزايد بين موظفي الدولة والحزب، واكثر هؤلاء بين المراتب المثقفة والمهنية، وان النقد الذي قدمه ماو لـ "الطريق الرأسمالي" وتخديراته من تأثيره الكامن على الصين قد ثبتت صحتها، حاملاً معه تثميناً جديداً للأساس المنطقي الذي قامت علية حملاته الاخيرة.

هذا الادراك يفتح فسحة جديدة لليسار الصيني. اذ لأول مرة منذ عقود يدرك أعضاء الحزب أنهم اكثر حرية في الحديث على المكشوف فيما تجاهد الأجيال الشابة للتعرف على الاشتراكية الثورية للماضي. وهذا ما يشعر به في طول النظام وعرضه، بما في ذلك المستويات العليا من المركز. هناك نقاش يتزايد في الصين اليوم ما اذا كانت "الاصلاحات ضمن الاصلاحات" والتي وضعت اسسها من جانب الرئيس (هيوجنتاو) والرئيس (وين جياوباو) ستكون عميقة ودائمة، وما علاقتها بالماضي الاشتراكي. مثل هذه السياسات، كالمحاولة لاعادة الرعاية الصحية الى الريف هي ولاشك، متأثرة بحملة "الاطباء الحفاة" في عهد ماو والتي جرى تفكيكها الآن. غير ان اصلاحات هيو – وين تمثل في الغالب محاولة جزئية فقط من نوع New Deal بالنسبة للصين والتي تجمع بين اهتمام شريف معين باوضاع الطبقة العاملة مع الادراك بانه من دون تحسين هذه الاوضاع، فانه لايمكن البقاء للسلطة الراهنة. فبينما جلب تحسينات الى بعض قطاعات سكان الريف، وتوسيع حماية العمال، فان القدرة على قرص النظام بما فيه الكفاية لاحداث خلل طويل الأمل أمر مثير للجدل. ان الصين بـ "انفتاحها على العالم" قد بيعت الى النظام الرأسمالي العالمي بطريقة، تكاد تؤدي الى اضطراب حاد وانكماش تجاري ليس بعيدا في المستقبل. ويخيم الآن تباطؤ حاد، وانحدارات شديدة في الاستثمارات والصادرات و "فقاعات" انفجارية في الرهون العقارية وأسواق الأسهم. ومع غلق الالوف من المصانع ودفع ملايين العمال الى البطالة، فلن يطول الوقت لدفع الاقتصاد الصيني الى ميدان جديد وغير مجرب، والى اضطرابات اجتماعية كبرى، وتجديد نشاطات منظمة قد تدفع الى تحركات ثورية من جانب الطبقات العاملة.

إن قابلية اليسار لمواجهة تحديات كهذه والامساك بالفرصة التي توفرها لمساعدة العمال والفلاحين والمهجرين بل والمزيد من الاعضاء الذين يعانون من الاغتراب من الطبقة الوسطى للرد على هذه الأوضاع ستكون ذات تأثير رئيس في الاتجاه الذي ستسلكه الصين. والماركسية الرسمية التي يتبناها الحزب والدولة، ستكون في حالة كهذه، غامضة في الأساس، وتحجب أي تحليل صحيح للوضع، وايجاد الحلول الايجابية. اما بالنسبة للجهود التي ستبذل لايجاد سبيل ماركسي انساني "منسجم" فانها، هي الأخرى، يحتمل ان تسقط بسرعة على جانب الطريق في وجه أي تصعيد رئيسي في نضال الطبقة العاملة، وسيشرع اولئك الذين لايزالون يتمسكون بتقليد الثورة الاشتراكية في الصين، الذين يؤمنون في الغالب ويتحدون، حتى يخرجون بهدوء الماركسية "الرسمية" من أجل البحث عن السبيل الذي يدفع الى الامام. لكن طريقهم سيكون وعراً للغاية، وستحدث انقسامات في صفوف اليساريين – اكثر مما هي علية اليوم، وسترد الدولة بفظاظة على أية محاولة لتنظيم صفوفهم، ناهيك عن محاولات تعبئة الطبقات العاملة، وجعلهم في وضع ضعيف عاجز عن أخذ الدور القيادي، حتى وإن نما عددهم. وفي حالات نادرة استثنائية، ستجد الكوادر اليسارية والمثقفون سبلاً قليلة للاتصال بالاحتجاجات الكثيفة والتي تزداد عنفاً لملايين العمال والفلاحين والمهاجرين الذين لايعودون يطيقون النظام القائم. ان فشل تسي في الاجابة على السؤال النهائي الذي طرحته (بربارا فولي) حول دور اليسار والجواب العمومي والقصير جداً من جانب وانغ، يوضح هذه القضية. في الصين، كما هو الشأن في كل مكان، سيتمكن اليساريون من تخطي انعزالهم عن نضالات الطبقة العاملة ومن أجل قيادة الدرب الى امام، الى مرحلة جديدة من الاشتراكية.

* واحدة من عدة دراسات وأبحاث ستصدر قريبا عن مجلة (الثقافة الجديدة) ضمن كتاب بعنوان: ***الصين: الاشتراكية، الرأسمالية، السوق. ما هي الآن؟ والى أين تتجه؟***

1) الكونفشيوسية: من المدارس الفلسفية في الصين، تأسست في القرن الخامس قبل الميلاد. في رأيها ان مصير الانسان تحدده السماء والناس بشكل لايقبل التغيير. وعلى الصغار ان يخضعوا في تواضع للكبار ولمن هم اعلى مقاماً. وعدم المساواة من اراد السماء وفي القرن الحادي عشر ظهرت الكونفشيوسية الجديدة التي تقول بوجود شيئين رئيسيين في الكون: لي، المبدأ العقلي وتشاي، اي المادة السالبة، التي تدفع الى الرذيلة بينما يدعو المبدأ العقلي الى الفضيلة. (نقلاً عن المؤسوعة الفلسفية) لروزنتال ويودين، ترجمة سمير كرم.

المتغيرات المناخية الأخرى
لماذا يعد الكربون الأسود والأوزون أيضاً مسألة هامة

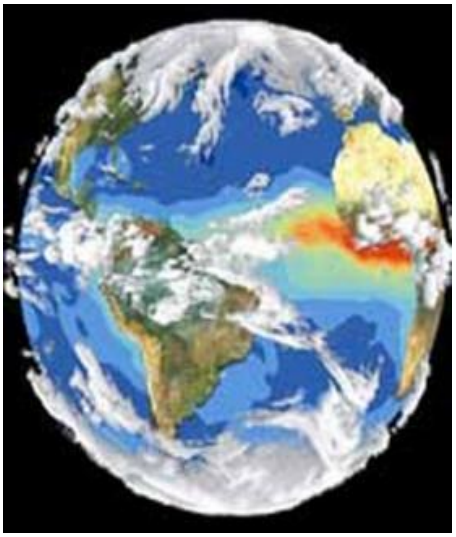

د. جيسيكا سيدون والاك
د. فيرابادران راماناتبان
ترجمة: د. هاشم نعمة

جيسيكا سيدون والاك، أستاذة جامعية، متخصصة بالاقتصاد السياسي، جامعة ستانفورد، حاليا، مديرة مركز تمويل التنمية التابع لمعهد الإدارة المالية والبحث في الهند، عملت في العديد من المنظمات الدولية ومراكز الأبحاث المتخصصة.

فيرابادران راماناتبان، بروفسور متميز في علوم المناخ والغلاف الجوي في معهد دراسات علم المحيطات التابع لجامعة كاليفورنيا، سان ديغو؛ وأستاذ زائر متميز في معهد الطاقة والموارد، في نيودلهي؛ مُنح عام 2009 جائزة تايلر للانجاز البيئي.

أخيرا، أقر قادة العالم بأن التغير المناخي يشكل تهديداً. ومن أجل إبطاء هذا التغير أو عكسه هم يطلقون المبادرات من أجل خفض غازات الاحتباس الحراري خصوصاً غاز ثاني أُكسيد الكربون، المسؤول عن حوالي نصف الاحترار العالمي حتى هذا التأريخ. من الضروري خفض انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون بشكل أساسي بسبب من إنها على الأرجح ستصبح السبب الأكبر للاحترار العالمي بنهاية هذا القرن. لكن المسألة المثبطة للعزائم هي: بقاء ثاني أُكسيد الكربون في الجو قروناً، ومن الصعب الحصول على حكومات تتفق على خفض الانبعاثات بسبب من أن منافع ذلك يتم الاستفادة منها عالمياً، بينما التكاليف تتحملها الدول منفردة. وبالنتيجة، لا توجد حكومات تتحرك بالسرعة الكافية لتعويض تأثير الانبعاثات الماضية والحاضرة. وحتى إذا تم خفض الانبعاثات الحالية إلى النصف في عام 2050 – أحد الأهداف التي نوقشت في مؤتمر تغير المناخ للأمم المتحدة عام 2008- وقتئذٍ ستظل المساهمة الإجمالية للبشرية في رفع مستوى ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي تشكل نسبة الثلث منذ بداية هذا القرن.

في غضون ذلك، أعطي قليل من الاهتمام لخيار ذي خطر أقل وفعال من ناحية الكلفة وذي مردود عال وهو: خفض انبعاثات مواد الكربون الممتص الخفيف (يعرف بالكربون الأسود) والغازات التي تكون الأوزون مجتمعة، هذه الملوثات تشكل تأثيراتها المدفئة حوالي 40-70% من تلك العائدة لثاني أكسيد الكربون. إن الحد من وجودها في الغلاف الجوي هو أسهل وأرخص، وهذا الاقتراح يمكن تحقيقه من الناحية السياسية أكثر مقارنة بالمقترحات المألوفة لإبطاء تغير المناخ- وسيكون له تأثيراً فورياً أكثر.

الوقت ينفذ. وقد تسببت البشرية برفع حرارة كوكب الأرض بأكثر من 0.5 درجة مئوية منذ القرن التاسع عشر وأنتجت غازات الاحتباس الحراري بدرجة كافية لترفع درجات الحرارة 2.4 درجة مئوية في نهاية هذا القرن. وإذا أستمر غاز ثاني أُكسيد الكربون وأُكسيد النيتروز في الجو بالزيادة عند المعدلات الحالية وإذا ثبت أن المناخ أكثر حساسية تجاه غازات الاحتباس الحراري مما هو متوقع، فيمكن أن ترتفع حرارة الأرض 5 درجات مئوية قبل نهاية القرن.

تغير الحرارة من درجتين إلى خمس درجات ستكون له تأثيرات بيئية وجيوبولتيكية عميقة. وبالتأكيد سيذوب تقريباً كل الجليد البحري الصيفي في القطب الشمالي. نتيجة لذلك سيمتص المحيط المتجمد الشمالي المزيد من أشعة الشمس والذي بدوره سيزيد من تضخم ظاهرة الاحتباس. مثل هذه الزيادة يمكن أن تقضي على الأنهار الجليدية في جبال الهملايا والتبت والتي تغذي الأنظمة النهرية الرئيسة لبعض من أفقر المناطق في العالم. وستعمل أيضاً على تسارع ذوبان الغطاءات الجليدية في كريلاند والقطب الجنوبي رافعة مستوى مياه البحار في العالم ومتسببة بهجرة سكانية واسعة النطاق من المناطق الساحلية المنخفضة. وستسبب دورات الجفاف والفيضانات الناتجة عن ارتفاع درجة حرارة الأرض كوارث للاقتصاديات المعتمدة على الزراعة.

ستكون بعض التأثيرات البيئية الناتجة من ارتفاع درجة حرارة الأرض في وضع لا يمكن إلغاءها؛ ولا يمكن السيطرة على بعض التأثيرات الاجتماعية. ونظراً لهذه النتائج، يجب على صانعي القرار السياسي في جميع أنحاء العالم الذين يسعون لإبطاء تغير المناخ أن يمعنوا النظر في خيارات أبعد من مجرد الحد من ثاني أكسيد الكربون، خصوصاً، تلك الخيارات التي ستكون لها نتائج سريعة. حيث يمثل خفض الكربون الأسود والأوزون أحدى هذه الإستراتيجيات.

الملوثات القوية

عرف التأثير المسخن لثاني أكسيد الكربون، على الأقل، منذ بداية القرن العشرين، وعرف تأثير الأوزون منذ سبعينات القرن الماضي، لكن اكتُشفت أهمية الكربون الأسود، أخيراً، فقط. وخلال العقد الماضي، أستخدم العلماء أدوات متقدمة في الطائرات والسفن والأقمار الصناعية لاقتفاء مواد الكربون الأسود والأوزون من مصادرها إلى أماكن تبعد آلاف الأميال وقياس ووضع نماذج حول مقدار ما تسببه هذه المواد من رفع لحرارة الغلاف الجوي.

إن الكربون الأسود، هو شكل واسع الانتشار لتلوث الهواء بالجزيئات والتي تكون الدخان المصحوب بالسخام ذا اللون الضارب إلى السواد أو أسود بعض الشيء. وهو يتشكل من الناتج الجانبي للاحتراق غير المكتمل وغير الكفء- دلالة على أن نفايات الطاقة بقدر استخدام الطاقة. حيث تطلق المركبات والسفن التي تستخدم الديزل والسيارات ذات الصيانة غير الجيدة هذه المواد. كذلك ينتج من حرائق الغابات والمنازل والمصانع التي تستخدم الخشب، الروث، مخلفات المحاصيل، أو الفحم للطبخ، أو للتدفئة أو أي احتياجات أخرى للطاقة.

يغير الكربون الأسود البيئة بطريقتين. في السماء، تمتص الجزيئات العالقة أشعة الشمس، وتسخن الغلاف الجوي وبدورها تسخن الأرض نفسها. وعلى سطح الأرض، فإن مخزونات الكربون الأسود، على الجليد والثلوج تمتص أشعة الشمس وبواسطتها تسخن الأرض وتذوب الجليديات. على سبيل المثال، جليد البحر القطبي وجليديات جبال هملايا والتبت، تذوب نتيجة الكربون الأسود وظاهرة الاحتباس الحراري الناتجة من ثاني أكسيد الكربون. ويعادل التأثير المسخن للكربون الأسود حوالي 20-50% من تأثير ثاني أكسيد الكربون وبذلك فإنه يحتل المرتبة الثانية أو الثالثة كأكبر مساهم في الاحترار العالمي. لا أحد يعرف بالضبط مقدار ما يسببه من تسخين، لكن أكثر التقديرات تحفظاً تشير إلى إن تأثيره غير القليل. وتمثل مساهمته الكبيرة في إذابة الجليديات والجليد البحري، أحدى أكثر الأدلة الواضحة، على المدى القريب، والمنذرة بتغير المناخ، والموثقة جيداً.

ويوجد الأوزون في الطبقة السفلى من الغلاف الجوي وهو مساهم رئيسى آخر في الاحترار العالمي والذي يستحق الاهتمام. (هذا يختلف عن الأوزون في طبقات الجو العليا الذي يحمي الحياة على الأرض من الأشعة فوق البنفسجية) ويعادل تأثير هذا الغاز القوي المكون للاحتباس الحراري حوالي 20% من تأثير ثاني أكسيد

الكربون. وهو لا يشبه الكربون الأسود الذي يوجد على شكل جزيئات، فالأوزون غاز. ولا ينبعث في الغلاف الجوي مباشرة لكن يتكون من غازات أخرى، "مكونات الأوزون" مثل أول أكسيد الكربون (من حرق الوقود الاحفوري أو الكتلة الحيوية)، وأكاسيد النتروجين (من الإضاءة، والتربة، وحرق الوقود الاحفوري)، والميثان (من الزراعة، والماشية، وتسرب الغاز وحرق الأخشاب)، و هيدروكاربونات أخرى (من حرق المواد العضوية والوقود الاحفوري ومن مصادر أخرى).
المسألة الأكثر أهمية، هي بقاء الكربون الأسود والأوزون في الجو لفترة أقصر بكثير مقارنة بثاني أكسيد الكربون الذي يبقى في الجو لقرون- ربما حتى آلاف السنين- قبل أن يتم امتصاصه من قبل المحيطات، والنباتات والطحالب. وحتى إذا توقفت انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون بمعجزة الآن، فهي سوف تأخذ عدة قرون لكي يقترب ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي من المستوى الذي كان عليه قبل العصر الصناعي. على العكس، يبقى الكربون الأسود في الغلاف الجوي فقط أياماً إلى أسابيع قبل أن يُغسل من قبل الأمطار، ويبقى الأوزون (بالإضافة لمكوناته) فقط أسابيع إلى أشهر قبل أن يتحلل. رغم ذلك، بسبب انتشارهما الواسع وانبعاثهما بشكل مستمر تبقى تركزاتهم في الغلاف الجوي وتسبب أضراراً جدية للبيئة.
رغم أن خفض انبعاثات غازات الاحتباس الحراري الأخرى مثل الميثان يمكن أن ينتج عنه نتائج آنية، لكن الكربون الأسود والأوزون مكونات مغيرة للمناخ تعيش فترة أقصر، وهي نسبيا تحت الإقرار أو الاعتراف في الجهود الرامية لوقف تغير المناخ. إن خفض انبعاثات هذه المكونات على الأرض سوف ينتج عنه قلة تركزاتها في الغلاف الجوي بسرعة وبدوره يؤدي إلى انخفاض تأثيرها في الإحترار العالمي.

خطوة إضافية أسهل

ملمح مؤمل آخر يتعلق بانبعاثات الكربون الأسود ومكونات الأوزون والتي يمكن الحد منها بتكاليف منخفضة نسبيا وباستخدام التكنولوجيا الموجودة بالفعل. رغم اختلاف مصادر الكربون الأسود ومكونات الأوزون على المستوى العالمي، فإن معظم الانبعاثات يمكن خفضها بدون الحاجة إلى تحديد أو قصر النشاط الأساسي الذي يولدها. وهذا راجع إلى كونها لا تشبه ثاني أكسيد الكربون، حيث لا يمثل الكربون الأسود ومكونات الأوزون منتجات جانبية أساسية لاستخدام الطاقة.
استعمال الوقود الاحفوري، خصوصاً الديزل، يكون مسؤولاً عن حوالي 35% من انبعاثات الكربون الأسود على مستوى العالم. إن تكنولوجيا تصفية الكربون الأسود تم اختراعها من قبل: لذلك فإن تصفية الديزل خصوصا في السيارات والشاحنات على سبيل المثال يمكن أن يخفض انبعاثات الكربون الأسود بنسبة 90% أو أكثر مع تخفيض غير جدير بالذكر في اقتصاد الطاقة. وقد قدرت دراسة حديثة لمنظمة بحث بيئية أمريكية غير ربحية بأن تجهيز الشاحنات بمليون من المصافي سيوفر نفس المنافع للمناخ في حال منع أكثر من 165.000 شاحنة و5.7 مليون سيارة من السير في الطرق بشكل دائم لمدة عشرين سنة.

النسبة الباقية 65% من انبعاثات الكربون الأسود تكون مترافقة مع حرق الكتلة الحيوية- من خلال حرائق الغابات التي تحدث بشكل طبيعي، والحرائق من قبل الإنسان لتنظيف أراضي المحاصيل الزراعية واستخدام الوقود العضوي للطبخ، والتدفئة وللصناعات الصغيرة الحجم. الخيارات الأكثر نظافة بالنسبة للنشاطات الناتجة من صنع الإنسان موجودة. حيث تتمثل الخيارات الخضراء للمنازل باستخدام مواقد الطاقة الشمسية أو الغاز الناتج من النفايات العضوية، لكن التصاميم التي يتم تحديثها للمواقد المستخدمة للكتلة الحيوية تستطيع أيضاً وبشكل أساسي خفض انبعاث كمية الكربون الأسود والملوثات الأخرى. وتمثل بقايا المحاصيل الزراعية والخشب والفحم وفحم الخشب الوقود الأرخص لكن أيضاً الأقل كفاءة والأوسخ ولذلك تتجه المنازل لتبديلها حالما تتوفر خيارات أخرى يمكن الاعتماد عليها. إن تحدي خفض انبعاثات الكربون الأسود لا يكون مقنعا للناس للتضحية بأساليب حياتهم، بقدر ما يكون عليه الحال في إقناع الناس لخفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون. لذلك يكمن التحدي في جعل الخيارات الأخرى متاحة.

تنبعث معظم مواد الأوزون التي هي من صنع الإنسان من خلال العمليات الصناعية واستخدام الوقود الأحفوري، خصوصاً في قطاع النقل. لذلك يمكن خفض انبعاثاتها بواسطة جعل عملية الاحتراق أكثر كفاءة (مثلا، من خلال استخدام مواد إضافية لتحسين الوقود) أو بواسطة إزالة هذه الغازات بعد الاحتراق (مثلا من خلال استخدام المحولات المحفزة). إن التكنولوجيا التي تقلل إلى أدنى حد من المواد المكونة للأوزون وتصفي أو تحلل الانبعاثات تستخدم بالفعل على نطاق واسع وهي تخفض مواد الأوزون في العالم المتقدم. لذلك فإن التنفيذ الأكثر حزما للقوانين التي تمنع استخدام الغازولين السيء والديزل ومواد أرخص وأوسخ سيساعد أيضا في خفض الانبعاثات.

ويستطيع التطبيق الكامل للتكنولوجيا الموجودة للسيطرة على الانبعاثات من خفض انبعاثات الكربون الأسود بنسبة حوالي 50%. وذلك سيكون كافيا لتعويض تأثيرات الاحترار لما يعادل عقد إلى عقدين من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون. وخفض الأوزون الذي يسببه الإنسان في الطبقة السفلى من الجو بنسبة حوالي 50% سيكون ممكنا بواسطة التكنولوجيا الموجودة، وسيعادل حوالي قيمة عقد آخر. في أسابيع، سيقل تأثير الاحترار الناتج من الكربون الأسود، وفي أشهر، سيقل أيضاً تأثير الاحتباس الحراري الناتج من الأوزون. وفي عشر سنوات، سيتباطأ اتجاه الاحترار الكلي للأرض، المتمثل في تراجع الجليد البحري والجبال الجليدية. وسيكون الدليل العلمي لانخفاض انبعاثات الكربون الأسود ومواد الأوزون واضحاً.

الإمكانية السياسية

يمثل خفض انبعاثات الكربون الأسود والمواد المكونة للأزون، أيضاً، من الناحية السياسية مشروعا واعداً. فهو سيوفر منافعاً مهمة فضلاً عن أبطاء التغير المناخي، ويعطي الحكومات محفزات اقتصادية وتنموية من أجل خفض الانبعاثات. وسيكون لخفض مواد الأوزون منافع زراعية متميزة. حيث أن الأوزون يضعف غلة المحاصيل من خلال إتلاف الخلايا النباتية ويتعارض مع إنتاج الكلوروفيل وهو المادة الملونة التي تدخل في تركيب الصبغة التي تمكن النباتات من امتصاص الطاقة من أشعة الشمس. وقد قدرت دراسة حديثة بأن الخسارة الاقتصادية المرتبطة بها (حسب الأسعار العالمية لسنة 2000) تتراوح بين14 مليار دولار إلى 26 مليار دولار، ثلاث إلى خمس مرات بالقدر الذي يعزى إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض. بالنسبة لصانعي القرار السياسي وفيما يتعلق بالإنتاج والأمن الغذائي، هذه التأثيرات سيكون لها صوت مدون بعمق.

في البلدان التي مازال قسم كبير من سكانها يعتمد على وقود الكتلة الحيوية، فإن خفض انبعاثات الكربون الأسود من المنازل سيحسن الصحة العامة والإنتاج الاقتصادي. حيث أن نسبة 50% تقريبا من سكان العالم، و95% من سكان الأرياف في البلدان الفقيرة، تعتمد على الوقود الصلب الذي يشمل الكتلة الحيوية والفحم. ويرتبط تلوث الهواء في المناطق المغلقة بحوالي ثلث التهابات الجهاز التنفسي الحادة المميتة وسط الأطفال في عمر أقل من خمس سنوات، أو حوالي 7% من وفيات الأطفال على مستوى العالم. وتمثل أمراض الجهاز التنفسي المرتبطة بانبعاثات الوقود الصلب السبب الرابع الأكثر أهمية للوفيات في البلدان النامية (بعد أمراض سوء التغذية والأمراض الجنسية غير المأمونة ومصادر المياه).

إن المشاكل الصحية هذه تديم الفقر. والتعرض للملوثات في وقت مبكر من الحياة يضر بنمو الرئة لدى الأطفال وأولئك الذين يعانون من أمراض الجهاز التنفسي تقل فرصهم في الالتحاق بالمدرسة. إن تلوث الهواء يترك الفقير الذي في الغالب يكسب مورد عيشه خصوصاً من العمل اليدوي في وضع أسوأ. وإجمالاً، يقدر أن العمال في الهند يفقدون 1.6- 2.0 مليار يوم عمل سنوياً نتيجة تأثيرات تلوث الهواء في المناطق المغلقة. لذلك سيعزز خفض انبعاثات الكربون الأسود من المنازل النمو الاقتصادي، وبالنسبة للنساء الريفيات والأطفال خصوصاً فإنه سيحسن الصحة العامة.

إضافة لذلك، تميل انبعاثات الكربون الأسود ومواد الأوزون لتكون ذات عواقب محلية، لذلك فإن موافقة الحكومات على استراتيجيات خفض الانبعاثات تكون أكثر احتمالاً لأن هذا الخفض يحقق منافع محلية. بالنسبة لثاني أكسيد الكربون وغازات الاحتباس الحراري الأخرى التي تبقى لفترة طويلة وتنتشر على نطاق أوسع فإن انبعاثاتها تساهم حيثما كانت في الاحترار العالمي أي في كل مكان. بينما تكون تأثيرات الكربون الأسود

والأوزون محصورة أكثر في النطاق المحلي. وعندما يدخل الكربون الأسود في البداية إلى الغلاف الجوي، فإنه ينتشر محلياً وبعد ذلك وفي غضون أسبوع يتبدد أكثر على المستوى الإقليمي قبل أن يختفي من الغلاف الجوي كلياً على شكل تساقط. أيضاً تكون مواد الأوزون محصورة أكثر في النطاق الإقليمي مقارنة بثاني أكسيد الكربون، رغم أن المستويات الأساسية للأوزون تتزايد في جميع أنحاء العالم.

بسبب من أن تأثيرات الكربون الأسود والأوزون تكون في معظمها محصورة في نطاق إقليمي، لذلك فإن الفوائد المتأتية من خفضها ستستفيد منه بدرجة كبيرة المناطق التي يتحقق فيها الانخفاض. لذلك يشكل ذوبان جليد جبال هملايا والتبت تقريبا سبباً كافياً للبلدان الواقعة في جنوب وشرق آسيا للشروع بعمل سريع لخفض انبعاثات الكربون الأسود. كذلك الحال، بالنسبة لتراجع الجليد البحري القطبي للدول المجاورة للمحيط المتجمد الشمالي. إن التجمعات الإقليمية تتوفر على فرص أكثر مقارنة بالمجموعات الكبيرة من البلدان في العمل على إقامة شبكات كثيفة من العلاقات الاقتصادية، والثقافية والدبلوماسية التي تدعم تسهيل المفاوضات الصعبة. علاوة على ذلك، أن كلا من الكربون الأسود والأوزون يمكن حصرهما أو احتوائهما من خلال تبني إستراتيجية محددة جغرافيا بسبب من أن الكثير من مصادر الكربون الأسود والأوزون تكون ثابتة إلى حد كبير. وحتى لو سعت دولة واحدة في المنطقة لتنظيم الانبعاثات، فإن الأنشطة التي تلوث البلاد من غير المرجح أن تنتقل إلى بلد آخر حتى مع وجود سياسات أقل صرامة – لكن هذا الأمر يمثل مصدر قلق مشترك فيما يتعلق باتفاقيات الحد من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون.

تنظيف

ما الذي يمكن عمله من أجل كبح انبعاثات الكربون الأسود ومادة الأوزون؟ الخطوة المنطقية الأولى بالنسبة للحكومات ووكالات التنمية الدولية ومحبي البشرية هي زيادة الدعم المالي للجهود الرامية لخفض الانبعاثات. ورغم توفر بعض الأموال لهذا الغرض حالياً، إلا أنه لم يبرز ملوث كهدف لتيار رئيسى من أجل الحصول على التمويل العام والخاص. ببساطة إن تحديد الكربون الأسود والأوزون كمشاكل بيئية مع ثاني أكسيد الكاربون سيجل صانعي القرار السياسي يميلون أكثر لصرف الأموال المخصصة للتنمية وللأجزاء "الخضراء" من حزم التحفيز في مبادرات تهدف للتصدي لهذه المشاكل البيئية. وتستطيع الدول المتقدمة بدورها أن تساهم في تكييف تكنولوجيا خفض الانبعاثات وجعلها بخدمة العالم النامي وتعزيز انتشارها- ستكون هذه مبادرة ذات مغزى لحسن النية وانطلاقة لبداية التغيير.

بغض النظر عن أهمية التمويل، يجب أن تدعم المساعدة توسيع اختيارات الطاقة النظيفة للمنازل والصناعات الصغيرة في العالم النامي وتكنولوجيا خفض انبعاثات وسائط النقل على المستوى العالمي. يمكن أن يعني هذا نشر الفوانيس الشمسية والمواقد التي تستخدم مصادر الوقود المحلية بكفاءة أكثر أو دفع المشاريع أو المؤسسات التجارية الصغيرة للتحول نحو تكنولوجيا أنظف. إجراء تعديلات معينة في الصناعة الصغيرة سيختلف حسب نوع النشاط الاقتصادي- جعل أفران الآجر أو الطابوق أنظف يختلف عن جعل معامل الشاي والتوابل المجففة أكثر كفاءة- غير أن عدد الزبائن الذين يتم تمكينهم لاستخدام التكنولوجيا الجديدة يوفر بعض وفورات الحجم. بالنسبة للنقل، تشمل الخيارات السياسية الدعم المالي للمحركات والمصافي المتطورة التي تحول مخلفات الوقود إلى حالة أنظف، وإلغاء المحفزات التي تتمثل في الدعم المالي المقدم من قبل الحكومات التي تفضل بعض أنواع الوقود على غيرها وهذا ينطبق على الوقود المغشوش واستخدام الديزل.

نشر التكنولوجيا من أجل خفض الانبعاثات من هذا العدد الكبير من الأنشطة التي تمثل جزءا لا يتجزأ من البنية الثقافية، من الطبخ إلى السياقة سيكون عملية غير سهلة. ويكون تعزيز السيطرة على انبعاثات الملوثات الصغيرة المتحركة والكثيرة أصعب من تنظيم السيطرة على المصادر الأكبر، مثل مصانع الطاقة. وبالنسبة لتكييف التكنولوجيا، ستكون هناك حاجة لتوجيه اهتمام أساسي إلى الاحتياجات المتنوعة للمنازل والصناعة. غير أن خلق وتقوية التنظيم والدعم المالي ونشر تكنولوجيا الطاقة ذات الكفاءة تمثل تحديات قد تمت مواجهتها من قبل.

حيث أن "الثورة الخضراء" – النمو اللافت للنظر للإنتاج الزراعي الذي حدث في النصف الثاني من القرن العشرين- أحدثت تغيرات جذرية (راديكالية) في الزراعة الصغيرة الحجم. وقد أثرت مبادرات التنمية الأخرى في الخصوبة السكانية، والمساواة في الجنس، والتعليم وقرارات الأسرة الأخرى التي تتسم بحساسية أكثر من تلك المتعلقة بالطبخ والسياقة.

علاوة على ذلك، فإن البنية التحتية للتمويل المالي الدولي ونقل التكنولوجيا موجودة بالفعل في شكل البنك الدولي، وبنوك التنمية الإقليمية، وبرامج الأمم المتحدة التي دعمت التنمية على مستوى العالم لعقود. وقد بدأ مرفق البيئة العالمي، وصندوق التنمية والبيئة، العمل باعتباره برنامج البنك الدولي ويعد الآن أكبر ممول في العالم للمشاريع البيئية وهو مناسب تماماً لتمويل التكنولوجيا الأنظف.

أيضاً، ينبغي على الوكالات الحكومية والدولية أن تمول التكنولوجيا التي تؤثر في نوعية الهواء والتي هي عموما أقل مراقبة. ففي المدن الكبيرة، في معظم الدول النامية يكون عدد أجهزة الاستشعار لا يتماشى مع نمو السكان أو النشاطات الاقتصادية. وفي المناطق الريفية لا تتم مراقبة تلوث الهواء على الإطلاق. إن تحسين نوعية مراقبة الهواء ونشر المعطيات ستفيد صانعي القرار والناشطين في مجال البيئة. والتأثير في انبعاثات الأفراد- من خلال مراقبة تلوث الهواء في المناطق المغلقة أومن خلال إضافة أجهزة مرفقة بمؤخرة السيارة- يمكن أن يساعد على تحفيز الناس على كبح انبعاثاتهم. وقد أثبتت المبادرات التجريبية لقياس آثار الكربون واستخدام الطاقة من قبل الأفراد أنها تساهم في تغيير سلوك الناس في بعض الأماكن.

المساعدات لوحدها لن تكون كافية، ولكن يجب أن تساعد المنظمات الدولية الحكومات على تحديد الخيارات التي تعمل على تخفيف التغير المناخي وتدعم التنمية. و تستطيع مؤسسات التنمية الدولية، مثل برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة وبنوك التنمية الإقليمية المتعددة الأطراف، تبني البحوث، وتشكيل مجموعات عمل مشتركة بين الوزارات، ووضع معايير للمراقبة والإبلاغ عن النفقات العامة. هذه المبادرات ستجعل من السهل تحديد المجالات الممكنة للتنسيق في مجال برامج الصحة العامة، والبرامج الزراعية والبيئية ومكافحة الفقر. في معظم الدول، لا تدعو المؤسسات المحلية لتشجيع التعاون بين مختلف السلطات. لذلك فإن اختيار خفض انبعاثات الكربون الأسود ومواد الأوزون كسياسات لتحسين الصحة العامة والزراعة يمكن أن يساعد في مثل هذه الجهود من خلال الاشتراك في الأموال الشحيحة؛ إن إجراء حساب أكثر وضوحاً للفوائد البيئية لسياسات التنمية ستجعل صانعي القرار أكثر استنارة في هذا الجانب. وفي نفس الاتجاه، هناك الكثير من العمل الذي تدعم فيه منظمات التنمية الدولية، حالياً، الحكم الرشيد من أجل تحسين البنية التحتية والخدمات، كذلك ينبغي أيضا أن تعمل على تشجع تحسين الإدارة البيئية.

الاستجابة الإقليمية

بالنسبة لعلم المناخ، الطريقة الحالية لحل المشكلة تدريجيا - خصوصاً الميل لعلاج تلوث الهواء وتغير المناخ كقضايا منفصلة- قادت مع الوقت إلى انتهاج سياسة سيئة. حيث أن قرار الكثير من الدول تعزيز استخدام الديزل كوسيلة لرفع كفاءة استخدام الوقود، على سبيل المثال، قد يكون له أثر غير مقصود في زيادة انبعاثات الكربون الأسود. إن قوانين تلوث الهواء الرامية للحد من استخدام بخاخات الكبريتات المضغوطة التي تسبب المطر الحامضي، من المفارقات، أنها قادت إلى مزيد من الاحترار لأن الكبريتات تمتلك تأثيراً مبرداً. بدلا من ذلك، إذا دمج صانعو القرار السياسي جهود خفض تلوث الهواء مع الجهود التي تعمل على أبطاء الاحترار العالمي، فإنهم يستطيعون التأكيد بأن خفض الكبريتات يترافق مع خفض مساو في مستوى الغازات الدفيئة.

سيكون الإطار العالمي الوحيد للعمل، متمثلاً، بالطريقة النموذجية التي تدمج الاستراتيجيات المختلفة التي تعمل على تخفيف التغير المناخي. وهناك فرص متوفرة أكثر للتصديق على الاتفاقيات الثنائية أو المتعددة، وذلك للبدء

في خفض انبعاثات الكربون الأسود ومادة الأوزون. وهذه بدورها تستطيع تقوية دوافع الحكومات للعمل على عدم تشجيع القيادة الحرة للسيارات وتحفيز الحكومات لتأخذ في الاعتبار التأثيرات الكبيرة الحجم للانبعاثات العائدة لها. وبسبب اختلاف مصادر الكربون الأسود والأوزون من إقليم إلى أخر، فإن الاتفاقيات الهادفة لخفضها تحتاج لتكون أكثر ملائمة للظروف الإقليمية. ففي النصف الشمالي من الكرة الأرضية، على سبيل المثال، يأتي معظم مواد الأوزون من العمليات الصناعية والنقل، بينما في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية خصوصاً المناطق المدارية، يأتي معظمها من الانبعاثات الطبيعية (التربة، النباتات وحرائق الغابات). وأيضاً، تختلف مصادر الكربون الأسود حسب الأقاليم: ففي أوروبا وأمريكا الشمالية يلعب النقل والنشاط الصناعي دوراً أكبر من حرق الكتلة الحيوية، بينما يكون العكس صحيحاً في الأقاليم النامية.

يكون تأثير الانبعاثات على المناخ من الناحية العلمية معقداً، وهو يعتمد على عدد من العوامل التي لم تؤخذ بنظر الاعتبار بشكل كاف عندما ابتكرت نماذج المناخ. بعد ذلك، يتمثل التحدي، في الوصول بسرعة إلى اتفاقيات تأخذ في الاعتبار العلاقات المعقدة بين النشاطات البشرية، والانبعاثات، وتغير المناخ وهذه أمور يمكن ضبطها بمرور الوقت مع تطور الفهم العلمي للمشكلة. ويكون تحديث الاتفاقيات الإقليمية المتعلقة بتلوث الهواء أسهل مقارنة بالاتفاقيات العالمية التي تستلزم الكثير من الموقعين. لذلك وفرت اتفاقية الأمم المتحدة الطويلة الأمد حول تلوث الهواء العابر للحدود (معظم الموقعين دول أوروبية ودول آسيا الوسطى) والبروتوكولات الخاصة بالتلوث التي أعقبت ذلك نموذجاً جاهزاً للاتفاقيات الإقليمية حول الملوثات المغيرة للمناخ والتي تعيش لفترة قصيرة. وقد استندت الإجراءات الخاصة لهذه الاتفاقيات على تكاليف التخفيضات، ومعرفة العلماء لمصادر التلوث وتوزيع تلوث الهواء، وإمكانية قياس التخفيضات- يجب أن يعطى اهتماماً أيضاً لتنظيم انبعاثات الكربون الأسود ومادة الأوزون. علاوة على ذلك، تلزم هذه الاتفاقيات الدول باتخاذ إجراءات خاصة، وليس الاختصار على نتائج محددة فقط. وهذه مسألة معقولة، حيث يكون من الصعب مراقبة وقياس الانبعاثات بدقة.

يمكن أن يكون الكربون الأسود والأوزون، أيضاً، في صلب النقاشات الثنائية القائمة. حيث أن الحوار الرفيع المستوى بين الهند والإتحاد الأوروبي، وفريق العمل الذي يضم علماء وصانعي القرار السياسي من أوروبا والهند، يمثل واحداً من هذه المنتديات الموجودة. وكانت الحكومات الأوروبية والهند في شباط (فبراير) 2009 متحفزة للعمل سوية لتحديد وخفض تهديد الكربون الأسود. وقد أقترح المشاركون مشروعاً بحثياً يتكون من اختصاصات متعددة والذي سيقرر تأثيرات الكتلة الحيوية المستخدمة في الطبخ والتدفئة على الصحة والمناخ وتقييم العقبات أمام نشر المواقد الأنظف على نطاق واسع. ويمثل الكربون الأسود والأوزون أيضاً مسائل طبيعية مرشحة للتعاون بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين حول الطاقة وتغير المناخ: حيث ستجني الصين منافع صحية وزراعية من خفض الانبعاثات، وستكسب الولايات المتحدة النوايا الحسنة لمساعدة الصين على القيام بذلك.

ومن خلال البناء على اتفاقيات تلوث الهواء القائمة، يمكن تفادي خطر حرف مفاوضات تغير المناخ عن هدفها الأساس المتمثل بتعزيز خفض انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون. إن وضع الكربون الأسود والأوزون على طاولة المحادثات الرفيعة المستوى حول المناخ يمكن أن يأتي بنتائج عكسية إذا اعتقدت البلدان النامية بأنها ستقر ضمنيا بمسؤوليتها عن الاحتباس الحراري العالمي بواسطة التعهد بخفض انبعاثات الكربون الأسود ومواد الأوزون أو الاعتقاد بأن المسألة تمثل مسعى من قبل الدول المتقدمة لتحويل الانتباه عن الاهتمام المتمثل بالحاجة لعمل هذه الدول لتخفيض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون لديها. لذلك، فإن محاولات خفض انبعاثات الكربون الأسود ومواد الأوزون يجب أن لا تعتبر بدائل عن تعهدات خفض انبعاثات ثاني أُكسيد الكربون لكن كلما كانت طرق العمل سريعة فإنها ستحقق فوائد بيئية واقتصادية على المستوى المحلي.

الثمرة الدانية

تاريخياً، ركزت مبادرات إبطاء الاحترار العالمي على خفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون والغازات الأخرى المسببة للاحتباس الحراري وأهملت بدرجة كبيرة الدور الذي يلعبه تلوث الهواء. هذه الإستراتيجية معقولة على المدى الطويل، حيث تمثل انبعاثات ثاني أكسيد الكربون العامل الأكثر أهمية في التغير المناخي وستستمر كذلك. لكن في المدى القريب، ستكون لوحدها غير كافية. لذلك أقترح بعض العلماء المعالجة الجيوهندسية- معالجة المناخ من خلال استخدام التكنولوجيا- بوصف ذلك خياراً محتملاً كملاذ أخير، لكن خفض الكربون الأسود ومواد الأزون يمثل خياراً أقل خطورة من أجل تحقيق نفس الهدف.

مثل هذه الطريقة ستجعل وبسرعة مستويات الكربون الأسود والأوزون أقل في الغلاف الجوي، وسيعادل تأثيرها عقود من انبعاثات غازات الاحترار العالمي، وستخفف زيادة الاحترار الخطير لكوكب الأرض، وستوفر الوقت للجهود المبذولة لخفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون للنزول إلى أرض الواقع. تمثل هذه الملوثات، أيضاً، أهدافاً سياسية غير صعبة: يمكن تخفيضها من خلال استخدام التكنولوجيا والمؤسسات والاستراتيجيات الموجودة وسيؤدي هذا العمل إلى تحسن في نوعية الهواء، والإنتاج الزراعي والصحة العامة على المستوى المحلي. باختصار، إن خفض انبعاثات الكربون الأسود ومواد الأوزون ذو مخاطر قليلة ويشكل إضافة عالية القدرة إلى ترسانة استراتيجيات أبطاء تغير المناخ الحالية.

إذا استمر المعدل الحالي للاحترار العالمي، فستكون درجة حرارة الأرض خارج نطاق السيطرة. لذلك، يمثل الوقت الحالي وقت البحث بعناية عن كل الوسائل الممكنة الكابحة التي يمكن تطبيقها لإبطاء تغير المناخ، والوقاية من الكوارث المناخية على المدى القريب، وكسب الوقت من أجل اختراعات تكنولوجية جديدة. ومن الاستراتيجيات المتاحة، هو التركيز على خفض انبعاثات الكربون الأسود ومواد الأوزون باعتباره الثمرة الدانية: تتسم التكاليف بانخفاضها النسبي، والتنفيذ أمر ممكن، وستكون المنافع متعددة وفورية.

الترجمة عن مجلة: Foreign Affairs, Volume. 88 No. 5, September/ October 2009

باب حوارات

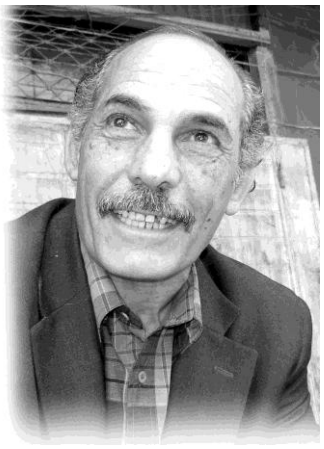

حوار مع القاص والروائي العراقي احمد خلف

حاوره: سعدون هليل

الروائي والقاص أحمد خلف عضو اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، وعضو نقابة الصحفيين العراقيين، وتعود بدايات انطلاقه الى عام 1961 عندما تعرف على الشاعر الكبير مظفر النواب، وهو الذي وجهه نحو الكتابة والأدب وقد تنبأ له بمكانة في هذا الميدان .

في عام 1966 نشر أول قصة له بعنوان (وثيقة الصمت) في ملحق جريدة الجمهورية، وفي عام 1969 ظهرت قصته القصيرة (خوذة لرجل نصف ميت) في مجلة الآداب البيروتية وقد حظيت باهتمام النقد الأدبي وعنايته. ومنذ ذلك الوقت واصل احمد خلف الكتابة والنشر دون انقطاع حيث نشر العديد من القصص والمجموعات القصصية من بينها: (نزهة في شوارع مهجورة) (1974)، (منزل العرائس) (1978)، (القادم البعيد) (1984)، (صراخ في علبة) (1990)، (خريف البلدة) (1995) وقد اعتبرت أفضل مجموعة قصصية لذلك العام وفاز بجائزة الإبداع في العام نفسه، (تيمور الحزين) (2000). وفي عام 2001 صدر له في دمشق مجموعة مختارة من قصصه بعنوان (مطر في آخر الليل) عن اتحاد الكتاب العرب وإضافة الى كتابته القصة فان منجزه الإبداعي يشمل كتابة الرواية. وفي هذا المجال أصدر احمد خلف عدة روايات من بينها: موت الأب (2002)، حامل الهوى (2005)، محنة فينوس (2007)، الحلم العظيم (2009).

وإضافة لذلك أعدت عن أدب أحمد خلف وفنه القصصي والروائي عدد من رسائل الماجستير وكتبت عنهُ عشرات الدراسات والبحوث وترجمت بعض قصصه الى عدد من اللغات الحية.

- **عند قراءة روايتك (الحلم العظيم) يكتشف القارئ استخدامكم في سردها نهج التوليد الحكائي المتبع في ـ ألف ليلة وليلة ـ ما مدى استفادتكم من الليالي العربية؟**

- أعتقد أن المتابع والذي يعنى بالسفر العربي الخالد ـ ألف ليلة وليلة ـ سوف يدرك مدى توغل هذهِ الحكايات ببنية الثقافة العربية والإسلامية وسيرى أن الليالي العربية هي نتاج العقل التخيلي (العربي والإسلامي.. الحضارة العباسية تحديداً) الذي يجنح الى تشكيل المشهد من مخيلة تواقة الى التحليق في مناخات وأجواء غير متوقعة، غرائبية ومفاجئة للمتلقي، هنا، سأتجاوز الأثر الذي تركته ألف ليلة وليلة في العقل الغربي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر فقد أشار الى ذلك كتاب الدكتور محسن الموسوي (الوقوع في دائرة السحر) ، والذي كتبتُ عنه مقالاً (في حينه) تمجيداً لجهدهِ الاستثنائي. لكني لا أستطيع أن أبرح تلك المناطق التي أستغلها واستفاد منها المبدع العربي من حكايات الليالي الأربع والسبعين حكاية سردتها شهرزاد خلال ألف ليلة وليلة كما أرجو الانتباه الى أن مصطلح الليالي العربية قد أشاعهُ

الفرنسي أنطوان غلان ومنه أخذنا بهِ ترجمته لألف ليلة وليلة، وليس مصطلحاً حديثاً كما يعتقد بعض النقاد غير المتابعين وهم يشيعون في الثقافة مفاهيم خاطئة في فهم المصطلح، لعدم تتبعهم لمصطلح الليالي ثم الدعوة لضرورة الانتباه الى الغاية من تمديد الزمن خلال سرد الحكايات التي تتجاوز المئة حكاية ومع هذا أمتد زمن السرد فيها الى ألف ليلة وليلة، أليس هذا دافعاً لتعطيل آلة الموت، أي تأجيل المصير المحتوم ؟ .. أن هذا الكتاب المدهش والذي سُطرت عشرات الصفحات في الثناء على خصائصهِ الحكائية والأسلوبية، هو كتاب استثنائي أدركنا أهميته في سنوات مبكرة من حياتنا الأدبية، ولا مفر من الاستفادة المباشرة وغير المباشرة منه. أن توليد الحكايات من بعضها خصيصة من خصائص الليالي، وخلال اشتغالي في الحلم العظيم اعتمدت تقطيع الحكاية الواحدة الى أجزاء وشكلتُ وحدات سردية متعاقبة وآخر تم تأجيل سردها الى فصول قادمة، لذا، كنتَ ترى أثراً خفياً لليالي العربية، أن أبرز عنصر متطور في الحلم العظيم،هو عنصر الحرية الذي تتمتع بهِ الرواية وفسح المجال للمخيلة أن تعمل بجدية ومثابرة، وكلاهما (الحرية في التعبير والمخيلة في خلق المشهد) هي مؤشرات من السفر العربي الكبير، فشهرزاد كانت تتمتع بحرية القول كما أنها تكشف عن مخيلة نادرة في السرد، الفارق الوحيد الذي يبعد الحلم العظيم عن الليالي العربية، هو الوعي الذي يتمتع بهِ السارد في الرواية، مؤلف القصص، كما أن موضوعة الرواية (الحلم العظيم) موضوعة سياسية مباشرة واجتماعية واضحة وثمة هدف مخفي غير معلن يتضح بصورة غير مباشرة من خلال القراءة الواعية للرواية .

- **نجد أن أغلب قصص أحمد خلف يهيمن عليها ضمير المتكلم. هل هي مصادفة أم طريقة تتبعها في العديد من أعمالك القصصية والروائية ؟**

- يمتلك ضمير المتكلم خصيصتين بارزتين دون بقية الضمائر، الأولى مقدرته الفائقة على ترجمة الذات الساردة بصورة شبه دقيقة، إذ يستطيع المتكلم أن يبوح بمكنون النفس ودواخلها القصية، أي أننا نعالج أنفسنا بالسرد، ومن خلاله نفرغ المزيد من الشحنات الداخلية المحتدمة، ويعطينا فرصة مثلى، أشبه بالمرآة التي نرى أنفسنا من خلالها، هي ما اصطلح عليه بمرآة السرد حيث يتأتى لنا معاينة ما عانيناه من أتراح وما عشناه من أفراح، وفيه مقدرة فضائحية لكشف المزيد من الأسرار والكوامن الذاتية وهو بطبيعته يغري السارد على التورط في مناطق سردية غير متوقعة قد يفاجئ بها السارد وهو في منتصف الطريق للكشف عن الحقيقة .. وثاني الميزتين، هي الطاقة الشعرية الكامنة في روح الخطاب الذي يتشكل عبر سرد الأنا المتكلمة، فأنت تقف حائراً أمام نبرة الخطاب، النبرة التي هي حالة من حالات التوافق والتناغم الكيفي على التنوع في زاوية الخطاب، في الانتقالات، في عملية التقطيع، لحظات الصمت داخل السرد، أنثيالات غير متوقعة . فهو يحمل بين طياته طاقة شعرية لا يمتلكها ضمير الغائب مثلاً، أن الضمير الأخير غالباً ما يخاطب المتلقي من علو، أي من مسافة تكاد تكون ملموسة، أنه يروي عن شخص افتراضي، لا يمكن إلقاء اللوم عليه، لأنه يستخدم ضمير ــ هو ــ والمتلقي لا يعلم الكثير عن تلك الشخصية بقدر ما تصلهُ من معلومة عبر ذلك الضمير، أن ضمير الغائب تتجسد مقدرته في خلق حالة من الاغتراب العقلي والوجداني لنا،والآن، أدعوك الى كتابة عبارة واحدة بضمير المتكلم ثم أقلبها وأكتبها بضمير الغائب سوف تجد أن الأولى هي الأقرب الى التصور وأن لا حواجز أو مصدات حتى لو كانت خفية ، فالمسافة لا توجد إلا في ضمير الغائب، يقال أن يوليوس قيصر هو أول من أستخدم ضمير الغائب في كتابة سيرته الذاتية، وكان يخاطب نفسه من خلال الحجاب أو ستارة ضمير الغائب، كأن يكتب قوله الافتراضي : (كان يوليوس قيصر يستيقظ مبكراً ويغادر الفراش عند مطلع الفجر) وعليك أن تتخيل شخصاً يتحدث الى نفسه أو يكتبها كما يفعل يوليوس قيصر، أن هذا الاستخدام الغريب ينم عن حالتين الأولى : ــ الابتعاد عن سفح الذات أو فضح أسرارها والثانية : ــ أبعاد أية تهمة أو شكوك قد تساور المتلقي بشأن الشخصية التي يسرد عنها المؤلف حكايته، ولقد جربت الاستفادة من لعبة الضمائر بقصدية واضحة، فأنت ترى في النص الواحد أن الضمير كثيراً ما يتغير ويتبدل بطرق توحي للمتلقي بعفوية أو تلقائية في التحول من ضمير الى آخر وذلك لغرض العمل على تبديل النبرة أو النكهة التي ينطوي عليها التغيير أو التحول وهي خاصية قصصية ينبغي الانتباه الى خطورتها في أننا إذا لم نحترز من خطورة التحول سوف نفقد مصداقية السرد مما يدفع بالمتلقي الى التخلي عن مشروع قراءة النص .

- **ما هي نسبة المتخيل في روايتك ـ موت الأب ـ وما هي نسبة الواقع فيها ؟**

- إن أعطاء الخيال فسحة ومساحة كافيتين في النص القصصي والروائي لاستثماره، هو في الحقيقة صياغة متقدمة لكينونتنا وانتشالها من براثن الجور الذي رزحت تحت نيره وقد تفنن الواقع القاسي بإيذائنا بكل شروره، إن متعة الخيال والاستناد الى المخيلة لكي تمتثل للضرورة الفنية هو امتياز المبدعين الجادين، ودعني أستعير من أحد كتاب أمريكا اللاتينية قوله : ـ أن الخيال يعني معرفة الواقع وكشفه وهو المكان الأكثر احتمالا للعمل تحت سقفه. ومن تجربتي التي أعتز بها، أرى أن نقد الواقع ينبغي أن يتم على أساس الاستفادة قصصياً من الخيال أيضاً وأن الصيغة غير المباشرة لنقد الواقع هي أنجح الطرق لفضح قسوته وجورهِ، وفي رواية (موت الأب) التي عملتُ فيها قرابة الخمس سنوات تحتم علىَ الاستفادة في انجازها بالصورة التي أريد، أن أستغل كل طاقة أو رؤيا أو حالة ومشهد وتصور ونبرة سردية، ونكهة في القص، أنا أدعوك الى العودة ثانية الى موت الأب، لتكتشف حقيقة التناغم الذي أطرى عليه أكثر من دارس لها، تعال معي الى الكتاب الثالث الذي هو الفصل الأخير في الرواية، ستضع يدكَ على مقدرة الخيال الخلاق للصورة والمشهد الذي يجمد الزمن في مكانه للحظات وربما ساعات ونحن نقرأ صفحات من الصراع الدموي والدرامي بين الأب والعم، كذلك النهاية المأساوية ليس للعم فقط، فهذا نال عقاباً قد لا يستحقهُ قياساً بالجنحة التي أرتكبها وهي الزواج من امرأة أخيه، ولكن أعني موت الأب، ذلك الموت الرمزي والذي كانت الصفحات فيه تغص بالشاعرية والمخيلة المتدفقة تلك هي أحدى النعم التي يمنحها لنا الخيال، دونما منةً من أحد، فأنت حين تجيد تدريب المخيلة على مساحات معقولة، لا فوضوية في الشطحات سوف يتقدم الخيال لأعانتكَ بكل أريحية وسخاء، هذا ما تجسد في موت الأب، ولقد عملت المخيلة على كشف الواقع ورزاياه، إنها تنبأت بنهاية مأساوية لذلك الواقع المزري كما أشار أكثر من ناقد ودارس لها، ومن أبرز من أشار الى طاقة الحدس في الرواية، هو الدكتور حسين سرمك والأستاذ عواد ناصر وناطق خلوصي وعباس عبد جاسم وتحسين كرمياني وطراد الكبيسي، كل واحد منهم أشار الى مقدرة المخيلة على الحدس بطريقتهِ الخاصة والتي تجنبهُ المساءلة والمواجهة مع السلطة آنذاك لأن الرواية نشرت في منتصف 2002، أي قبل التغيير في عام 2003 مما دفع الأستاذ توفيق التميمي الى اعتبار صدورها في ذلك العهد امتيازا يحسب للمؤلف، إضافة الى تقنيتها الفنية والجمالية الواضحة. على أن الرواية استثمرت الواقع الى أقصى ما يتمكن السرد من دفع المشهد القصصي الى أمام، بغية إدانة الواقع المتردي الذي أشارت الرواية الى حالات الاختناق التي يعاني منها كوضع سياسي واجتماعي فاسد، لقد تم نقد الواقع المزري ذاك على أسس سردية غير مباشرة، وتلك لعمري أفضل طرق المقاومة ضد نظام يعتمد الهراوة البوليسية والعنف المستمر .

- **يشكل البحث عن الغائب ظاهرة في قصص أحمد خلف، وقد استمدت طاقتها التعبيرية كظاهرة فنية واجتماعية من الموروث الشعبي العراقي، ما مدى أمكانية الاستفادة من المثيولوجيا والتاريخ في الفن القصصي ؟**

- في الوقت الذي تقوض فيه حرية التعبير وكذلك حرية الرأي والمعتقد، في ذلك الوقت الذي يصبح فيه الإنسان وحيداً ومعزولاً، بل أعزلاً إزاء آلة الموت، حيث يُغيَب الإنسان في أية لحظة ولأي سبب، في الظروف العامة والخاصة القاهرة التي يعم فيها البطش بلا رحمة، من الممكن أن يلجا الفنان والمبدع والقاص والشاعر كل هؤلاء المنتجين، لا مفر لهم من اللجوء الى وسائل تعبير غير مباشرة، رموز وأقنعة ومعادلات موضوعية، أو القيام بعملية بحث عن المخلص والمنقذ الذي يمكنه أن يقود سفينة الأحلام نحو شاطي الأمل، وكلما ازداد المخلص، المنقذ ابتعادا عن مدينة الأمان كلما ازدادت قوانا التعبيرية في بحثها الدائم والدؤوب عن المدينة الفاضلة، وهي تنأى عنا وتبتعد، لكن المبدع الخلاق لا يكف عن رفع ناظوره بعيد المدى، ليبحث في الأفق النائي لكي يضع يدهُ على ذلك البريق الخاطف وهو يلوح لنا بين حين وآخر، تلك هي القضية وذلك هو الحال، وعليه فأننا حين نلجأ الى استخدام الرمز والأسطورة والحكاية الشعبية وغيرها من المهارات أنما نريد أولاً توصيل ما يحمله النص من رؤيا أو فكرة وثانياً، أن هذهِ العناصر تزيد النص جمالاً ودلالة فكرية واجتماعية لا يمكن التغاضي عنها، وعن العناصر التي تتهيأ لتكشف لنا عن مخلصنا، منقذنا، لهذا، نرى أن معظم

الأديان والحركات الاجتماعية والمعتقدات، جعلت لها منتظراً تنتظر مجيئه أو هي في انتظار أن تحين الساعة. أن المنتظر أو المنقذ المخلص عندي لا يستند (من حيث هو فكرة) الى عقيدة مثيولوجية أو طوباوية وأن لعبت هذهِ العقيدة دوراً خطيراً في اللاوعي الجمعي والشخصي، ولكن بروز الوعي ومعرفة دراما الحياة، يجعلنا حريصين على استخدام المثيولوجيا أو الأساطير والحكايات دونما تكون هي المصدر والناتج أي أننا حين نستعير من التاريخ أشارة أو حادثة، ينبغي ألا تتجاوز تلك الحادثة حدود المرجعية الفنية والجمالية، أي أن يكون التاريخ أو المثيولوجيا في خدمة النص. عليك أن تكون شديد الحذر وأن تحاول استثمار ثقافتك التاريخية أو إطلاعك الثقافي مهما كان عميقاً في الفولكلوريات أو المثيولوجيات التي نعرفها، وينطوي الحذر على ألا يصبح النص، تابعاً الى المرجع بل ينبغي أن يكون العكس هو الصحيح . وفي رواية موت الأب على سبيل المثال، يقول البطل لصديقه متلقي الخطاب، يقول له : سوف أكتب رواية عن بلادي، أستخدم فيها التاريخ كمصدر من مصادر الإدانة غير المباشرة، فيظن المتلقي أن المقصود هو كتابة رواية تاريخية فيصحح لهُ السارد بقوله: كلا، أنما التاريخ في خدمة الرواية. وهذا ما أطمح إليه في معظم ما كتبته من نصوص، مستغلاً الرموز أو الاستعارات الكبيرة أو الكنايات أو الفلكلور، إذ هذهِ المصادر توفر زخماً رائعاً للنص حين يتوفر المؤلف الحاذق في استخدامها على المقدرة التي تجعل من نصهِ، لحمة عضوية واحدة، لا انفصال فيها بين الواقع أو الخيال، بين المرجع وبين النص .

- **أريد أن أسالك عن كتابك الأول والذي صدر عام 1974، كان العنوان مفاجئاً ـ نزهة في شوارع مهجورة ! .. هذهِ سمة العديد من عناوين كتبكَ، أعني المفارقة الجمالية والفنية. كيف تكون النزهة في شوارع مهجورة؟**

- كثيراً ما وجه لي سؤالاً من هذا النوع .. لماذا: في شوارع مهجورة ؟ لماذا الخراب الجميل، القادم البعيد وخريف البلدة وحامل الهوى وموت الأب والحلم العظيم، الى آخر أسماء المؤلفات. حسناً، سأفترض أن السؤال يتوجه الى جوهر النص، اعني الى المحتوى أو الغاية من خريف البلدة أو نزهة في شوارع مهجورة، ليس مجرد عنوان وتسميه، بل كدلالة اشتغل عليها السارد ـ المؤلف في بعض الأحيان، خلال تأليف كتاب وليس عنوان .. ومع هذا، يرى البعض من الزملاء، أن العنوان هو عتبة الدخول الى النص، أو ثريا النص التي يحملها ذلك النص، في تصوري لا يوجد في الكتابة ما هو خالٍ من دلالة أبداً، كل ما يقال يحمل دلالته أو الاستعارة التي يستند إليها. كذلك العنوان، يكفي أننا نطلق عليه تسمية : عنوان، أي يمتلك أمكانية الدليل لكي يأخذ بأيدينا الى المرمى والغاية والمقصد. لقد لازمني اعتقاد جازم في سنواتي الأولى أني سأحط في يوم ما في أرض الأحلام أو في المدينة الفاضلة التي يصبو إليها أبناء جيلي أو تلك الفئة المثقفة من الناس، وكانت سنوات الستينيات بما فيها من عذابات ومرارات وآلام، هي التي تشجع على البحث عن صيغ اجتماعية وجمالية أن لم تكن فكرية وفلسفية في بعض الأحيان، لذا، فعناوين كتبي هي نتاج تلك المرحلة العاصفة، المليئة بالأحلام والأفكار والحركات السياسية والثورية والفنية، (يجب ألا ننسى انتشار الوجودية، وظاهرة تشي جيفارا، ومدارس الفن السريالي والدادائي وغيرها من حركات سادت مرحلة الستينيات وآخر ما نذكر بهِ ثورة الطلبة في فرنسا ومصر وكذلك انتكاسة العرب في 5/حزيران 1967 واشتعال نيران الثورة الفلسطينية، وكذلك ثورات الطلاب في العالم الغربي وحركة الترجمة الهائلة، كل هذا جرى في عقد صاخب لا يقر له قرار، فما كان من المبدعين إلا التوازي مع عصرهم ومرحلتهم، لهذا، لم يكن غريباً كل ما حدث على مستوى الفن) في تلك الأيام، كنا أنا والقاص جمعة اللامي نواصل لقاءنا اليومي وفي بعض الأحيان نستمر في القراءة والكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل، لتتكشف لنا بغداد ـ المدينة التي نحبها أنا وجمعة اللامي كنا نقطع الطرقات فقط، حتى خيل إلينا أن شوارع بغداد هجرها أهلها، وكنا نتساءل : الى أين مضى الناس وتركوا المدينة مهجورة الشوارع ؟ كان سؤالنا، ربما ينطوي على حدس أو نبوءة تنبأ بها احدنا بما سيأتي من خراب ودمار يعم المدينة ويقوض أركانها ويجعل شوارعها مهجورة من ناسها تماماً. وكذلك كجزء من ثقافة تلك المرحلة، حيث كنا، أو كان المثقف ينعم بالفائدة من الفكر الجدلي الذي يخلق الجديد عبر التناقض أو الصراع، وهي حالة يشي بها ذلك الواقع المتردي الذي عاشه الناس بعد عام 1968 وما تلا ذلك من أعوام، إني أرى أن نقد

الواقع قد جاء في صيغة الكتابة الإبداعية قبل أن يتعرض لهذا الواقع، الخطاب السياسي الذي تردد طويلاً في نقد تجربة الثلاثين عاماً المنصرمة .

- **ألا تبدو القصة القصيرة في العراق مظلومة نقدياً قياساً، أولاً؛ لتاريخها الطويل نسبياً، ثم قياساً مع بقية الفنون الأخرى، الشعر تحديداً ؟**

- من الصعب الأخذ بالأحكام والقرارات والآراء القطعية،كما لو كانت حقائق، لأن الكلام في مجال المقارنة والتقابل قد ينطوي على دوافع شتى، البعض منها يبدو غامضاً، كما أن المشهد القصصي العراقي لا يزال يحظى باهتمام المعنيين بهِ، منذ الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين حتى اليوم، إذ المشهد القصصي حيوي وفاعل ولا يجوز (أخلاقياً وتاريخياً) تجاوزه في حال الحديث عن القصة والرواية في العراق، قد يكون لظاهرة هجرة المثقفين العراقيين خارج الوطن أثر واضح على مجمل المشهد الثقافي والأدبي، وليس القصة وحدها، هناك تذمر من الحالة العامة وهناك رفض لبعض مجريات الأمور، ولكن بعضنا واصل العمل بكل جدية في الكتابة، وإذا ما قمنا بدراسة ومتابعة مخلصة سوف نجد أن الكثير من الدوريات العربية تتلقف النتاج القصصي العراقي بأريحية واضحة، ويفوز عدد ليس بالقليل من القاصين العراقيين الجدد وبعض القدامى، لكن الكتابة عن ظواهر القصة والرواية، أمرٌ مناط بالنقاد لانشغالاتهم المتأخرة، وأن الكثير منهم وجدَ لهُ أماكن عمل أو اهتمامات أخرى، ورغم هذا، ما زالت القصة القصيرة تحظى باهتمام ملحوظ، وأن تراجعت الكتابة عنها بعض الشيء، ذلك لأن الظرف الموضوعي أختلف من حيث الذبذبة والتوجه والدوافع المتعددة في مشاربها، عما كان عليه فيما مضى، وينبغي ألا نهمل دور الظروف الشخصية للمتابعين ونقاد الأدب.إضافة الى أن الرواية بدأت تزحف على مساحة المشهد السردي كله تقريباً، ولكني ما زلت أرى ثمة ولع شديد لدى القاصين العراقيين في كتابة النص القصصي أو نقده ومن الغريب أني أرى هذهِ الأيام عودة ظاهرة نقد القاص وليس الناقد للمجاميع القصصية الصادرة مؤخراً.

- **(الحلم العظيم) أتراه حلماً شخصياً أم هو حلم جماعي تريد الوصول إليه وتريد تحقيقه ؟**

- تمتد جسور الأحلام من الذاتي الى العام، ويصبح من الصعب على المبدع الجاد التفريق بينهما ليس على مستوى النتائج، إنما حتى على مستوى الدافع، حيث تمتزج لديه (المبدع) هذهِ المستويات بتلك مما يجعله لا يفكر في المساحة الضيقة المرسومة لهُ ولأحلامه الخاصة، أنما تصبح المشكلات الاجتماعية والأخلاقية هي مشكلاته الشخصية وكلما لامسَ تطورا إيجابياً بين السلطة والناس كلما، امتدت المساحات الخضراء في حياته، علينا نحن الذين عشنا مرحلة ما سميَ الجبهة الوطنية أن نتذكر يوم قيامها كيف كان المثقف العراقي (اليساريون تحديداً) منتعشاً كأنه أصبح على أبواب المدينة الفاضلة، ذلك قبل أن تقدم السلطة على تهديمها بذرائع واهية ومضحكة، مما جعل الصدمة لدينا عنيفة وردة الفعل مؤلمة، هذهِ أحدى الإشارات التي وددتُ التذكير بها والتي من الممكن أن تدلنا على عملية المزج بين الذاتي والموضوعي، أنا لا أفرز نفسي بعيداً عن آلام شعبي، بل وأعرف جيداً من هم المخلصون لهُ، لذا، حين أنجزت الحلم العظيم، كنتُ أريد أولاً أن أؤرخ لتلك المرحلة التي دفع فيها اليسار ثمناً باهضاً بعد ما حدث من انشقاقات داخل الحركة الوطنية وما أدى إليه ذلك التشرذم وقد ذكر السارد ذلك في الرواية. وثانياً؛ هي سيرة ذاتية لساردها وتعايشه بين مجموعة من الشباب المنتسب لليسار، أذن، لا يمكن التفريق بين الحلم الذاتي والجمعي فيما يخص الحلم العظيم، لذا فهي سيرة ذاتية من جانب وهي رواية أيضاً .

- **ما تقييمك لحركة النقد في العراق في المرحلة الحالية، أقصدُ ما ملامح الإيجاب والسلب التي تميز هذهِ الحركة اليوم ؟**

- لا يمكن أعطاء صورة متكاملة أو التحدث عن مشهد يفي بأنصاف النقد الأدبي العراقي الذي غاب عن ساحته الفاعلة والفعلية أكثر الأسماء جدارة بالإشارة لها، د. علي جواد الطاهر وعبد الإله أحمد وعبد الجبار عباس وعبد الجبار داود

البصري وصمت عنهُ طراد الكبيسي وأنشغل الآخرون في قضايا لا تدخل في صلب العملية النقدية. المشهد النقدي اليوم مثير للحزن ذلك لأن الحالة السابقة في العهد الشمولي استمرت تقريباً أن لم تكن اتسعت أكثر أعني ما يكتبه المبدع عن زميله الآخر الذي يحمل له المودة والاحترام منذ زمن بعيد، وذلك أمرٌ تجسد في الأخلاقيات الراقية للأساتذة ناجح المعموري وعباس لطيف وفاضل التميمي والدكتور حسين سرمك وعبد علي حسن وبشير حاجم وزهير الجبوري، فهؤلاء النقاد واصلوا تصديهم بكل جدية ودون غرض أو غاية مباشرة أم غير مباشرة، للنتاج القصصي والروائي وبحرص يفوق ما يتمتع بهِ الناقد العربي في أي قطر آخر من اهتمامه وعنايته المعروفتين بكل نتاج يخص المبدع في قطره .. نحن وسط هذهِ الفوضى الاجتماعية وعجالة الإنتاج الثقافي لا يمكن أن نعدم ما يقدمه النقد الجديد في الأفق الجديد، وفي مجالِ القصة والشعر الحديث أكثر مما يشمل باقي الفنون، لا شك أن بوادر حركة نقدية شابة جديدة تتبلور في الأفق وهو (أي الأفق) يتسع لكل الأصوات المخلصة التي تتحدى ما يعيقها من مصدات تعمل على أعاقتها، لكننا دائماً نتذكر المحاولات المخربة لطمس الثقافة العراقية التقدمية في المراحل السابقة وكيف انتهت تلك المحاولات الى الفشل الذريع، وخلافها، تشرق شمس جديدة دائماً.

- **كان بطل روايتكَ ـ الحلم العظيم ـ غارقاً في الجنس، تحركهُ نوازع أيروسية قوية بحيث نجده يتورط بعلاقة مع امرأة تعود بنسبة قرابة الى أحد المناضلين في الرواية .. كيف تبرر هذهِ النوازع ؟**

- من الواضح أن السؤال يركز على الجانب الأخلاقي للسارد (بطل الرواية) وليس الجانب السياسي أو النفسي، رغم أنهما ممتزجان ببعضهما، لكن لا ينكر أن السارد يتميز عن الآخرين بذاتيته وشخصانيته الطاغية على كل حركة أو نأمة يقوم بها. بل يمكن القول أنه يرى في الجنس نوعاً من الخلاص من المحنة الذاتية لكنه يعلم جيداً، أن الحقيقة وهي قضية تعنيه تماماً، لا تكمن في ممارسة الجنس بل في البحث عنها وخوض التجربة الصعبة من اجل اكتشافها وإدراك جوهرها، لهذا نراه يوافق على أخفاء حقيبة الأسلحة لجماعة الكفاح المسلح، رغم أن شقيقه الأكبر ينتمي الى جماعه مضادة فكرياً وسياسياً لجماعة خالد احمد زكي ومع ما للمجازفة تلك من عواقب وخيمة فانه يخفي حقيبة الأسلحة تحت سريره مباشرة، بل يزيد على ذلك أن يضيّف المناضل الشيوعي المؤمن بإسقاط السلطة عن طريق العنف، يوافق على أخفاء الحقيبة والمناضل لديه في البيت، وهو اللامبالي، الذي أسميته في السؤال الأيروسي الغارق بالجنس، أن سؤالك ينصب على خطورة تلك العلاقة بين الإيروسي والمرأة ذات الصلة بأحد المناضلين، لكن النظرة العلمية ومنطقها يقول لنا، من الممكن أن يتحول القديس وينحرف الى مجرم أو شاذ في السلوك، وهو المنطق نفسه الذي يقول لنا أن عشرات المجرمين في السجون العامة تحولوا الى شخصيات فاعلة ومؤثرة اجتماعيا ومن ثم سياسياً، أذن، لم يكن الأمر مقصوداً منه إدانة المرأة تلك، بل إدانة الظرف الموضوعي الذي حتم تلك النتائج. ولعل الانغماس في الايروسيه نابعٌ من طبيعة تلك الظروف وبيئتها الشعبية الغارقة في أحلامها المحبطة، أن النظرة المثالية تبحث في مناقب الخير وتدير ظهرها لمنابع الشر، وهي بهذا تريد أدباً متفائلاً يمجد الإنسان دون الدخول على أخطائهِ. ولعله أفضل من أشار الى هذهِ النقطة هو الأستاذ عبد علي حسن في دراسته للمرأة في الحلم العظيم في جريدة طريق الشعب، وما أقترحهُ كان هو كبد الحقيقة. ولا يمكن اعتبار المناضل في رواية الحلم العظيم، مسؤولاً عن تصرفات الآخرين حتى لو كانوا يمتون له بصلة قرابة، بل المناضل يعلم جيداً، ما تفعلهُ البيئة وما يتركهُ الظرف من عوامل تغيير، سواءً على مستوى الإيجاب أم السلب، لذا، لم يكن المناضل هو المقصود إدانته من خلال تلك العلاقة غير السليمة بين السارد وبين المرأة، إنما المعني بالإدانة هو الظرف الموضوعي، الذي يمثل الحالتين السياسية والاجتماعية آنذاك بكل وضوح .

- **لقد انتهت روايتك (الحلم العظيم) الى خيبة قوى اليسار وتشظت شخصية البطل (مؤلف القصص) بين الالتجاء الى اليسار وبين القوى القومية في نهاية الرواية، ما تفسيركم لهذا التوزع ؟**

- بحكم تجربتي في الكتابة الإبداعية (قصة ورواية) لم أعد ميالاً الى إصدار أحكام نهائية بشأن أية مسألة سياسية أم أدبية. ذلك لأن الكثير من الأحكام ما تلبث أن تتغير، كعبارتك " خيبة قوى اليسار " أنها من العبارات الرنانة، ومن هذهِ

الزاوية جرت محاولات للنيل من الرواية وهذا أمرٌ لا يثير عجبي، إذ هو حال كل عمل روائي متميز، لن أكتمكَ سراً، أن الرواية كتبت من أجل المساهمة في كتابة جزء من تاريخ الحركة الوطنية التقدمية وهو أمر يخص المؤلف كما يخص المرحلة. ويعتقد كل مؤلف أنه أستوعب مرحلته أو زمن روايته، وبما أني أحد شهود تلك المرحلة فقد كنتُ وما أزال أرى أن ثمة تداخلاً بين قوى اليسار وبين القوى القومية التي تمثلها الثورة الفلسطينية خير تمثيل، وهو ما حاول أن يفعله (مؤلف القصص) السارد،أقصد في مرحلة الستينيات من القرن الماضي، حيث كان الظرف العام يميل ليس في العراق فحسب بل في الوطن العربي الى مؤازرة الثورة الفلسطينية والأخذ بيدها بل كان ثمة حوار دائم بين فصائل اليسار العربي في عموم الوطن العربي وكان الجميع يعلم مدى خطورة الهجمة الرجعية في تلك السنوات. ولعل الكثير من اليساريين، بل قل الشيوعيين الذين التحقوا بالثورة الفلسطينية، ألم يستشهد الأديب والرسام الشيوعي إبراهيم زاير في صفوف الثورة الفلسطينية ؟ الم يلتحق شاعرنا الكبير مظفر النواب بها؟ ألم ينتسب إليها الشاعر الكبير سعدي يوسف، لقد كانت الثورة الفلسطينية ملجأ ومأوى قوى اليسار العربي وليس العراقي فحسب، ولقد أفردت الثورة الفلسطينية مكانة خاصة للمناضلين الشيوعيين العراقيين، ودعني أذكرك بالذي حدث بعد تهديم الجبهة الوطنية وملاحقة الشيوعيين العراقيين من قبل النظام، الى أين لجأ الشيوعيون العراقيون، أليس الى الثورة الفلسطينية أذن، لماذا (زعل) أنتقد البعض من الزملاء نهاية الرواية ؟ إذا كانت النتيجة على أرض الواقع تشير الى ذات المحصلة في الأخير، أليس الإبداع هو ضرورة واقعية وإنسانية لعذاباتنا واختياراتنا ؟ أن الإشارة الأخيرة في الرواية لا تعني إلا الاستمرار في البحث عن طريق الخلاص من المحنة التي عاشتها الحركة الوطنية وقوى اليسار منها، والشيوعيون العراقيون في القلب من تلك الحركة، ودعني لا أغالي لو قلتُ ولأنهم ليسوا في السلطة اليوم أرى من الصعب على الآخرين تأويل كلامي هذا لأن علاقتي بهم سوف تبقى علاقة في منتهى الشفافية،وبطبيعتي أنا كاتب مستقلٌ زاهد في كل الوجاهات الاجتماعية ومن هذا سوف تجد ثمة مصداقية في كلامي، أن ما كتبتهُ من روايات وقصص يكشف عن عدم رضاي وعدم قناعتي في الأنظمة الفاسدة التي اضطهدت الشيوعيين عن دراية وتصميم، من هنا أعتقد أن من الشرف لنا ككتاب وأدباء مستقلين أن نكون معهم، أي مع قلب اليسار العراقي. إذ أنني أتحدث عن حزب لم يرفع السلاح في أي يوم ليستولي على السلطة بالبلطة أو بالسيف ولم تلطخ أيديهم بدماء الآخرين (أقصد الشيوعيين العراقيين) وهيئات النزاهة تشهد لهم بذلك ولستُ وحدي من يقر بهذا الأمر ويراه بوضوح. والميل إليهم ولو على المستوى العاطفي والاجتماعي هو ديدن المبدعين الأحرار الذين تهمهم قضية البراءة والنزاهة والإخلاص لشرف الكتابة، وهي صفات اتصف بها الشيوعيون العراقيون، ودعني هنا، أنتهزها فرصة مناسبة لكي أحييهم وأحي نضالهم المستمر لأن كاتباً ومبدعاً يدركُ ما تعيشه المرحلة الآن، لا يليق بهِ أن يدير ظهره لوعي الضرورة الذي يمثلهُ زميله المثقف الشيوعي .

باب ادب وفن

تحية للأستاذ الدكتور شاكر خصباك في عيد ميلاده الثمانين

هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

في هذا العام، 2010، تحل الذكرى الثمانون لميلاد الدكتور شاكر خصباك، المفكر والأستاذ الجامعي والروائي والقاص والكاتب المسرحي الذي تربو أعماله المنشورة على ثلاثين عملا. وتنتمر (الثقافة الجديدة)، الذي رافقها الدكتور خصباك منذ تأسيسها في عام 1953 وتولى الإشراف على الجانب الأدبي فيها آنذاك، هذه المناسبة لتقدم له بأطيب التهاني مقرونة بصادق الأماني بموفور الصحة والعمر المديد والعطاء المثمر. إننا نعتز كثيرا بهذا السِفر الطويل والرابطة التي ربطت مجلتنا بالدكتور شاكر والذي قال عنها ذات يوم في إحدى مقابلاته: "... أن لي مع مجلة (الثقافة الجديدة) تاريخاً عريقاً أعتز به، وما أزال أعتز بهؤلاء المناضلين الذين هم على استعداد دائم للبذل والعطاء بلا مقابل، وهذا أكثر شيء أحبه فيهم وأكبرهم عليه ". ومن المؤكد أننا نبادله ذات المشاعر ونكن له في الوقت نفسه الاحترام الكبير باعتباره احد القامات الإبداعية الكبيرة في العراق المعاصر.

إن الاحتفاء بثمانينية الدكتور شاكر خصباك إنما هو اعتراف بمبدع كبير وعالم جليل تربت على أياديه أجيال متلاحقة، وشكل منجزه الإبداعي لهؤلاء، وغيرهم كثر، ثروة من المعرفة والجمال والقيم الإنسانية التي لا تنضب.

ولد الدكتور خصباك في مدينة الحلة (محافظة بابل) عام 1930، ودرس الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدارسها ونال شهادة الثانوية في عام 1948.

التحق في جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول) في سبتمبر عام 1948 ونال شهادة الليسانس (B.A) في الجغرافية عام 1951، كما حصل لاحقا على شهادة الدكتوراه من بريطانيا. مارس بعد ذلك التعليم الجامعي، حيث درّس في جامعة بغداد والرياض وصنعاء. نال درجة الأستاذية (بروفسور) عام 1974. وقد تخرج على يديه العديد من الطلاب في درجتي (الماجستير) و (الدكتوراه) في الجغرافية. واختارته (المؤسسة الأمريكية لسير الحياة) واحدا من صفوة مثقفي العالم لعام 2004 وذلك لتميزه في ثلاثة حقول هي: الأدب والجغرافية والتعليم.

لم ينحصر نشاطه في جانب واحد بل اشتهر بدراساته العلمية عن التراث الجغرافي العربي الإسلامي وكذلك بدراساته العلمية عن العراق والعالم العربي ودراساته وترجماته عن تطور فكر وفلسفة الجغرافية، ونالت دراسته العلمية

عن الأكراد شهرة واسعة. ويعد الدكتور خصباك من أوائل الذين نادوا بضرورة حل المشكلة الكردية حلا سلميا ديمقراطيا بعيداً عن القهر وبضرورة منح الأكراد حقهم في الحكم الذاتي، وذلك منذ عام 1959 في كتابه المعروف (**الكرد والمسألة الكردية**) وهو أول كتاب أصدرته (الثقافة الجديدة) بعد عودتها للصدور اثر قيام ثورة الرابع عشر من تموز عام 1958.

بدأ الدكتور خصباك خطواته الإبداعية مبكرا وذلك منذ عام 1945. كما له سجل علمي حافل إذ تربو كتبه العلمية المؤلفة والمترجمة على عشرين كتابا.

قبل ستين عاما بالتمام والكمال كتب عنه صديقه وابن مدينته الراحل الكبير الناقد المعروف الأستاذ الدكتور **علي جواد الطاهر** في مجلة الغري (1950) العبارة الأثيرة التالية: " *انك أمام قاص منذ الجملة الأولى لأية قصة. ولا غرو فان شاكر قد وفّر ما كان يسميه أجدادنا النقاد ببراعة الاستغلال القصصي وهناك أيضا براعة العرض وبراعة الختام* ".

أما المستشرقة الاسبانية (روزاربو ريكو) فكتبت عن مسرحية د. خصباك الموسومة (الشيء) ما يلي: " *برأيي أن مسرحية (الشيء) تقف على صعيد واحد مع كبريات المسرحيات العالمية* ".

من جهته كتب الدكتور حاتم الصكَر عن د. شاكر خصباك قائلا: " *هذا الإصرار الكفاحي المتعدد الجوانب يزيدنا ألما لإحساس شاكر خصباك بالغبن والإهمال فهو ينشر ويؤلف مبكرا كما يكتب بغزارة عبر عمره الأدبي (خمسة عشر رواية، ثلاثة مجاميع قصصية، وثمان عشر مسرحية، وعدة كتب أدبية ومقالات وخواطر وذكريات) وهذا دون حساب كتاباته المؤلفة في الجغرافية – قرابة عشرة كتب – المترجمة – ثلاثة عشر كتابا. وكفاحه مبدئي أيضا ضد الظلم والعسف ومع الإنسان وحريته حيث يكون. هذا ماتجسد في أعماله السردية ومقالاته ومواقفه المعروفة في الحياة العلمية والثقافية في العراق وخارجه* ".

وفي تقييمه لرواية د. شاكر خصباك الموسومة: حكايات من بلدتنا، كتب الكاتب الفلسطيني الراحل **غسان كنفاني** (جريدة الأنوار 1967) قائلا: *إن (حكايات من بلدتنا) لشاكر خصباك... كفٌ، يصفع بشدة، إهانة، دعوة، علامة استفهام حادة مثل عكفة سكين* ". أما د. إبراهيم الجرادي (2008) وفي تقيمه للمنجز الإبداعي للدكتور شاكر خصباك كتب قائلا: " *ما يستهويني في الدكتور شاكر خصباك، هو الذي (ربما!) لايستهوي الآخرين: الوضوح والفجاجة في قول الحق والانحياز لقيم الحق والعدالة (والإسراف!) في محاربة الطغيان والظلم واللامبالاة. وكل ذلك في سلوك إنساني متماسك وأشكال تعبيرية توازيها* ".

ومن جهته فقد اعتبر الشاعر اليمني الكبير **الدكتور عبد العزيز المقالح** الاستاذ شاكر خصباك " *واحداً من الرواد المتميزين والمثابرين القلائل على مستوى الوطن العربي الذين أغنوا المكتبة العربية بنتاجهم المتنوع، وهو روائي ورائد متمرس في مجال الكتابة الأدبية التي هي عنده تدوين فني رفيع لوقائع إنسانية تأتي بتكثيف سردي معبر يحمل أفكاراً قيمية عالية فيما تتوجه إليه* ".

تحية للدكتور شاكر خصباك في ثمانينيته متمنين له موفور الصحة والعمر المديد والعطاء المثمر.

الكتابات الإبداعية للدكتور شاكر خصباك

1. حكايات من بلدتنا	رواية
2. الدكتاتور	مسرحيات
3. كتابة مبكرة	كتابات أدبية

4. عهد جديد	مجموعة قصصية
5. صراع	مجموعة قصصية
6. السؤال	رواية
7. حياة قاسية	مجموعة قصصية
8. ذكريات أدبية	سيرة حياة
9. التركة والجدار	مسرحيتان
10. هيلة	رواية
11. الغرباء واللص	مسرحيتان
12. القهقهة	مجموعة مسرحيات
13. العنكبوت والغائب	مسرحيتان
14. الهوية	رواية
15. بيت الزوجية	مسرحية
16. الشيء	مسرحية
17. تساؤلات	خواطر فلسفية
18. القضية	مسرحية
19. امرأة ضائعة	رواية
20. البلهوان	مجموعة مسرحيات
21. قصة حب والطائر	روايتان
22. الخاطئة	رواية
23. موت نذير العدل	رواية
24. أوراق رئيس	رواية
25. نهاية إنسان يفكر	رواية
26. خواطر فتاة عاقلة	رواية
27. الرجل الذي فقد النطق	مجموعة مسرحيات
28. عالم مليكة	رواية

29.	الفصول الأربعة	رواية
30.	الأصدقاء الثلاثة	رواية
31.	أين الحقيقة والواعظ	مسرحيتان

الكتابات العلمية للدكتور شاكر خصباك

أولا: المؤلفات

1.	الكرد والمسألة الكردية – دراسة في الجغرافية السياسية.	1959
2.	ابن بطوطة ورحلته – دراسة في الرحلات العربية.	1971
3.	الأكراد – دراسة – جغرافية اثنوغرافية.	1972
4.	العراق الشمالي – دراسة لنواحيه الطبيعية والبشرية	1973
5.	في الجغرافية العربية – دراسة للتراث الجغرافي العربي.	1974
6.	دولة الإمارات العربية المتحدة – دراسة في الجغرافية الاجتماعية.	1977
7.	كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي.	1982
8.	تطور الفكر الجغرافي – دراسة في تاريخ ومناهج الفكر الجغرافي.	1987
9.	الجغرافية عند العرب.	1988

ثانيا: المترجمات

1.	أعلام الجغرافية الحديثة – تأليف كرون.	1963
2.	دراسة الجغرافية – تأليف موجي.	1964
3.	الارتياد والكشف الجغرافي – تأليف وود.	1966
4.	قرن من التطور الجغرافي – تأليف فريمان	1975
5.	جغرافية الرفاه الاجتماعي – تأليف سميث	1981
6.	أصول الجغرافية البشرية – تأليف لابلاش	1982
7.	طبيعة الجغرافية (الجزء الأول) – تأليف هارتشون.	1985
8.	مستقبل الجغرافية – تأليف مجموعة من الأساتذة.	2005
9.	التحليل الموقعي في الجغرافية البشرية – تأليف هاغيت.	2006
10.	الجغرافية تاريخها ومفاهيمها – تأليف جنسن.	2007

11.	الجغرافية والجغرافيون – تأليف جونستون.	2008
12.	العوامل المتغيرة للجغرافية.	2008
13.	مقدمة للبحث الجغرافي العلمي.	2008

******

مقالات

النهايات في قصص (رؤيا خريف) لمحمد خضير

أ. م. د. علي إبراهيم
كلية التربية- صفي الدين الحلي/ جامعة بابل

السيرة الذاتية علي ابراهيم

الدكتور علي إبراهيم من مواليد العراق بابل عام 1950، متخصص في اللغة العربية وآدابها (اختصاصه الدقيق النقد الأدبي – السرد الروائي). يعمل حاليا أستاذا مساعدا في كلية التربية (صفي الدين الحلي)/جامعة بابل.كتب القصة القصيرة والمقال الأدبي والسياسي ونشر في الصحافة العراقية والعربية في الداخل والخارج وعلى مواقع الإنترنيت. كما نشر بحوثا في عدد من المجلات العلمية المعتمدة الصادرة عن بعض الجامعات العراقية. كما ساهم في ندوات أدبية كثيرة ، وقدم محاضرات في العديد من المدن العراقية ، وبعض البلدان العربية والاوربية.

لدى الدكتور علي ابراهيم كتابان مطبوعان عنوان الأول: *الزمان والمكان في روايات غائب طعمه فرمان*، والثاني: *القص العراقي بعيدا عن سلواته*. كما لديه ثلاث مخطوطات الاولى بعنوان: *محمد خضير قاصا ومقاليا*، وأخرى بعنوان: *تركيز المعنى في شعر الجواهري*، وثالثة : *مقالات في الفكر والسياسة*. عضو اتحاد الأدباء العراقي.

المقدمة

في بحثي هذا أتناول الطبيعة الفنية لنهايات محمد خضير القصصية في ضوء دراستي لمجموعته (رؤيا خريف) ولا يمكن أن نعدها أنموذجا لقصصه لأن كاتبنا يسعى لأن يكون متنوعا ومتطورا ومتجاوزا لما يكتبه وزملاؤه سواء المعاصرون أو غيرهم .

وقسمت بحثي إلى مقدمة وتمهيد ومرقمين وخاتمة في المرقم 1 تناولت المفهوم الجمالي للنهايات في القصة القصيرة. وفي الآخر بحثت في خصوصية محمد خضير في هذا المجال ، ولابد من القول إن البحث لن يقتصر على النهايات فقط بل طال البدايات وتصاعد الأحداث وصولا إلى النهاية التي جرى التركيز عليها . وفي خاتمة البحث نبرز الاستنتاجات التي توصلت إليها.

وأود أن أذكر أني قد اعتمدت بشكل أساسي على كتابه (رؤيا خريف) ، وأعترف أن هذا الكتاب لم يكن سهلا ، لما فيه من رموز وإيحاءات وأحداث تقترب من الواقع قليلا وتبتعد عنه كثيرا، وفيها من الغموض والرمزية الشيء الكثير، يجعل القارئ مشدودا، ومركزا حريصا على متابعة كل جملة بل كل حرف وكلمة ، ومما يتطلب منه قراءة النص أكثر من مرة ليتفهم ما يهدف إليه الكاتب . ولذلك ليس بالضرورة أن تشكل ما توصلت إليه من استنتاجات وملاحظات قناعات مطلقة، دائمة. وأظن أن هذا القول ينطبق على عموم المقالات والدراسات التي تناولت أدب هذا الكاتب المبدع والمتجدد. وقولي هذا لا يقلل من جدية وعلمية تلك البحوث الرصينة. إنما أردت لفت انتباه القارئ الكريم - المتخصص أو المتلقي - إلى عمق البحر الذي يغترف منه كاتبنا موضوعاته، وجمالية تقنيته الفنية التي تبتعد كثيرا عما هو بسيط ، سائد ، وشكلي ساذج. وهذا النوع من الأدب يحمّل الباحث أو الناقد مسؤولية أكبر، تتجسد في البحث عن جماليات النص شكلا ومضمونا، وعن مديات الضعف والخلل. والتفكير بطرق التقويم، ومعالجة الهنات أو السقطات ... لكن رأيه يبقى استشاريا، لا صلاحيات بيده. السلطة المطلقة للمبدع دون منازع فهو خالق النص، ولا أحد غيره.

التمهيد

يعد محمد خضير من أبرز كتاب القصة العراقية الذين بدؤوا في الستينيات من القرن الماضي، واشتد عودهم في السبعينيات، فما أن " ذكرت القصة العراقية المعاصرة إلا ذكر، وما ورد اسمه إلا صحبة التكريم، وفي التكريم مدح قصصه وإطراء بنائه والنص على تجديده" [1]. وقد إمتاز كاتبنا بصفتين : الأولى بداية قوية ومتميزة منذ أول قصة نشرها في الأديب العراقي عام 1962 وتلتها قصة (البطات البحرية) عام 1966 التي فازت بالجائزة الأولى لملحق جريدة (الجمهورية) الأدبي. والصفة الأخرى هي التأني، بمعنى عدم استسهال الكتابة والنشر، ولذلك لم يصدر لمحمد خضير قصصيا إلا خمس مجاميع وهي (المملكة السوداء) عام 1972، (في درجة 45 مئوي) 1978، وبعد عقد ونصف صدرت له "روايته" بصرياثا، صورة مدينة، التي قلت عنها في مقال لي إنها " صورة مكان تبحث عن حدث روائي " [2] والتي فازت بجائزة (عويس للآداب والفنون)، وبعد سبع عشرة سنة صدرت له روايته (رؤيا خريف)، أي عام 1995، وفي عام 2001 نشر روايته (كراسة كانون)، وسمعت منه أنه قد دفع إلى الطبع مجموعة قصصية جديدة بعنوان (وجوه الحديقة)، تبنت مؤسسة المدى طبعها. تخلل ذلك نشاط أدبي آخر هو كتابات نقدية جمعها في كتاب عنوانه (الحكاية الجديدة)، وقد طبع عام 1995وكان ينشر كل ما يكتبه من قصص في المجلات والصحف العراقية والعربية ، فهو- على الرغم من تباعد إصدار الكتب - متواجد في الساحة الأدبية ليس بغزارة كتاباته بل بنوعيتها.

حظيت كتابات محمد خضير باهتمام كبير من لدن الباحثين و النقاد، فهناك رسالتان جامعيتان نال صاحباهما درجة الماجستير: الأولى بعنوان (***الشعرية في قصص محمد خضير***) والثانية بعنوان (***البنية السردية في المملكة السوداء***) وأنجزت الرسالة الثالثة في جامعة بابل، بإشرافي وموضوعها (***المكان في قصص محمد خضير***).

وكان اهتمام النقاد بنتاجه كبيرا ومتواصلا وأول من كتب عنه هو الدكتور علي جواد الطاهر فهو مكتشفه- إن صدق التعبير- وقال عنه ياسين النصير: " يرتبط جزء من تاريخ القصة العراقية في الستينيات بعدد من القاصين من بينهم القاص محمد خضير، ليس لأنه قاص متميز، بل لأنه تعامل مع القصة تعاملا فنيا متقدما فوجد وعدد من القاصين؛ أن قالب القصة القصيرة بحاجة إلى تغيير جذري في بنيته بعد أن كانت الحكاية تتلبسه وتملأ مساحاته الداخلية وتحيله إلى عدد من الأشكال الفنية القديمة، كالسيرة والمقامة والأحلام والرؤية" [3]. كما قال عنه القاص عبد الستار ناصر: " في كل مرة أقرأ فيها ما يكتبه محمد خضير أشعر فوراً بسعة المسافة وطولها بين ما يحصل عليه المبدع العراقي وما حصل عليه بقية المبدعين في العالم والوطن العربي، فهذا مبدع أصيل حقاً" [4]. وفي الحقيقة ليس كل ما قيل ايجابيا فهناك من يختلف مع الآخرين في تصوراته واستنتاجاته، أي لم تكن آراء النقاد في نتاجات محمد خضير متماثلة أو ايجابية كلها، فخضيرميري يرى: إن " محمد خضير يكتب دائما في ضوء نموذج سردي عالمي ويجد نفسه مضطرا إلى حشوه بما هو محلي وهذا هو سر التماسك النظامي المفتعل في أعمال محمد خضير" [5].

ومهما قيل فإن محمد خضير ليس ظاهرة منقطعة الجذور، أو حالة فردية- على الرغم من تميزها- " إنما هو امتداد وتطوير لأنفاس القاصين السابقين من عراقيين وعالميين " [6].

وخلاصة القول : إن القاص محمد خضير لا يشكل حالة طارئة في فن القص العراقي والعربي، بل هو ظاهرة واضحة المعالم مبنية على أساس متجذر في أعماق الإبداع الإنساني محليا وعالميا.

المفهوم النظري للنهايات في القصة القصيرة

النهاية لغة: (أنْهَى) أتى نِهْياً . و- الشيءَ أبلغه وأوصله. يقال : أنهيت إليه الخبرَ، وأنهيت إليه الكتابَ والرسالةَ والسّهمَ. (نَهَّى) الشيءُ: بلغ نهايته . و- فلاناً عن الشيءِ: نهاه عنه . (انتهى) الشيءُ: بلغ نهايته. و- الشيءُ إليه : وصل . يقال انتهى إليه الخبر ، وانتهى إليه المثَلُ ، وانتهى بنا المسير إلى موضع كذا. و- عن الشيء: كفّ عنه ويقال : انتهى العاصي كف عن العصيان. (تناهى) الشيءُ: بلغ نهايته . يقال تناهى الخطب و- الماءُ وقف في الغدير ونحوه وسكن و- عن الشيء: كفَّ عنه . (المَنْهَاةُ): الغاية ، يقال : الموتُ مَنهاة الناس . (المنتَهى): الغاية والنهاية يقال هو بعيد المنتهى. (النهايَةُ) :غاية الشيء وآخره [7].

النهاية اصطلاحا: أرى هي نهاية العمل الإبداعي؛ قصيدة، قصة، رواية، أو مسرحية، وترتبط النهاية كمصطلح حديث بجسم العمل كله، فهناك علاقة جدلية بين أجزاء المنتج الإبداعي، لا يجوز فنيا الفصل بينها، وأي فصل تعسفي بين البداية والذروة والنهاية والشخصيات والزمان والمكان وطبيعة السرد سوف يسبب ضررا فادحا لمجمل العمل. ففي القصة – موضوع بحثنا – " تنتهي الحوادث في تتابعها إلى (الذروة) أو (العقدة) وهي النتيجة أو خاتمة القصة، وكان بعض القصاصين يجمعون الحوادث متصاعدة متوترة حتى تصل إلى (العقدة) وإذا بالقصاص يفاجئ القاريء بنهاية غير متوقعة، ولما كانت هذه النهايات أبعد عما يجري في الحياة، بحيث يبدو فيها جانب التلفيق مهما كان القصاص بارعا، فإن أغلب الكتاب قد ابتعدوا عنها وتركوا (العقدة) تنتهي إلى نهاية طبيعية، ويكفي القصاص أنه قدم قصة صادقة، ويعينه على ذلك أن يطور قصته تطويرا طبيعيا لا يخرج عن حدود المعقولية" [8]. ولعلي أختلف قليلا مع أستاذي الدكتور **كمال نشأت** لأني أعتقد أن تدخل القاص بدأ من عبارة " بعض القصاصين يجمعون الحوادث ..." لا من " وإذا بالقصاص يفاجئ القارئ..." فالحوادث في القصة الناجحة تنساب أو تتصاعد على وفق إرادة الموضوع وطبيعة الشخصيات دون تدخل الكاتب المباشر، " فكل شيء فيها له معنى؛ ولا يعود هذا إلى تفنن القصاص بل إلى بنية القصة نفسها؛ فكل ما يتألف من القول القصصي قائم هناك؛ومهما بدا شيئا تافها لا قيمة له واستعصى على أداء أي وظيفة فإن معناه على الأقل يصبح هو العبث واللاجدوى [9]. ويرى بعض الباحثين أن النهاية تحتجز منذ البداية ، أو بعبارة أخرى ؛

أن البداية تشير إلى النهاية ، وهذا الفهم بعيد جدا عن التكنيك الحديث للقصة التي ترفض الكاتب العليم لأن الأحداث وتطورها هي التي تحدد طبيعة النهاية.

وهناك بعض القصص تنتهي نهايات غير حاسمة، وتظل نهايات مفتوحة، فهي لا تحل المشكلة التي تطرحها التجربة، ولا تستطيع أن تكون نتيجة مرضية للقارئ، الذي أجهد نفسه وراء النهاية السعيدة، والحل المستساغ " [10]. لكن القصة تبقى محض إنشاء ممل ما لم يتوافر فيها عنصر التشويق والأخير " لا يتوافر إلا لموضوع جيد مكتوب ببراعة وعلى أصول فنية وله بداية تثير اهتمام القارئ من أول عبارة، وله نهاية تجعل القارئ لا ينسى القصة بعد لحظات من الفراغ من قراءتها " [11].

إذاً يمكننا أن نقسم النهايات في الأدب القصصي والروائي كما يأتي:

النهايات السعيدة وهي الأخرى تتوزع بين:-

نهايات سعيدة مفتعلة وهي التي لا تأتي منسجمة مع النسق التصاعدي لحدث القصة، ولمجمل بنية القصة الفنية. نهاية سعيدة طبيعية فرضها تتابع الحدث وطبيعة العلاقة بين مكونات القصة أو مفرداتها " أي

" إن الحدث عندما يكتمل نموه الفني، نجد أن النهاية قد تحددت بصورة قطعية للقصة" [12].

النهايات الحزينة وينطبق عليها ما ذكرناه في النقطة الأولى.

نهايات مفتوحة: وهي أحدث تطور في البناء القصصي، حيث يترك القاص للمتلقي مجالا للإسهام في إنهاء القصة . حين يكون الحدث " في نصف نموه الفني، وقد استوجب إسدال الستار الفني على التجربة "[13].

لقد اختلف النقاد في شكل النهايات المفتوحة، فالنص المفتوح (Open Text) عند (أمبيرتو إيكو) نص مغلق (Closed Text) ، غير أن قيمة الانغلاق هذه قيمة ايجابية ، بينما يراه (بارت) نصا منفتحا على أية قراءة ... والنص المفتوح يحدد مشروعا مغلقا [14].

والملاحظ؛ إن جميع الباحثين يتفقون على أن الانفتاح للنص أو الانغلاق لهما ايجابية التحول من الشيء نفسه إلى ضده بفضل مشاركة القارئ الفاعل في النص.

ويمكن وصفها من جهة أخرى بـ (النهاية المنتجة) عندما تجعل القارئ يسترجع الأحداث، أو يندمج في الحدث ويكون جزءا منه، ومن ثم يسهم في صنع نهايته. وبما أن هذه النهايات غير موجودة نصا في متن القصة، فإن الكاتب لا يتحمل مسؤوليتها، فهي تدخل ضمن الحرية الشخصية للقارئ أو المتلقي.

إن تنوع النهايات المنتجة ترتبط بتنوع عدد القراء حيث لا يكون هناك إجماع، ولكن قد يكون هناك تساو أو تشابه في النهايات. ومن هنا طالب (ايكو) بأهمية القارئ الأنموذج أو المثالي . ويبدو أن بحث الإنسان عن النهايات والبدايات، يرتبط بإحساسه أو بوجوده . " يرى الطبيب (الكميون) (Alkmeon)، بتأييد من أرسطو، أن الناس يموتون لأنهم لا يستطيعون الارتباط بالبداية وبالنهاية " [15]. وإذا أردنا أن نطبق هذا القول على العملية الإبداعية ، فإن الموت قد يكون معنويا بالنسبة للقارئ غير الفاعل في النهايات .

هذه فكرة قد تكون مقتضبة عن الجانب النظري لمفهوم النهايات في القصة أو الرواية ، لكني أشعر أنها كافية ومفيدة كمدخل نظري لدراسة موضوعة النهايات في قصص رؤيا خريف لمحمد خضير .

(2) النهايات القصصية في (رؤيا خريف)

لماذا (رؤيا خريف)؟ للتسمية هذه مدلول رمزي ، لا أظن أنها اختيرت اعتباطا سواء للقصة التي تحمل هذا الاسم أم للمجموعة، كان أمام الكاتب الفصول الثلاثة الأخرى ولكل فصل دلالته التي لا تقل أهمية عن دلالة الخريف، لكن القاص ارتأى أن تكون رؤاه خريفية. ومن البداية نفهم ونتفهم مسبباته، فعلى الرغم من أن رؤاه جديدة لكنها " تختلف عن رؤيا خريف الأعوام الماضية "[16]، والجدة هنا ينبغي أن تكون ذات صفة ايجابية، كاتبنا جعلها سلبية، فالنهر وهو شريان الحياة، (مقطوع الرأس)، "وساعات الميادين عاطلة "، وهاتان إشارتان واضحتان لتوقف الحياة، أو هي محنطة " جزيرة التماثيل "، أو خالية من أبسط صورها " الذبابات المشنوقة ".

ومعلوم أن الفجر يختزن دلالة البداية والانطلاق:" الرؤى المبللة بندى الفجر"إلا أنها"مختلجة كقلب النهر الواسع " [17]، هكذا بدأ محمد خضير قصته.

ثم يدخل في تفاصيل كثيرة، عبر استرجاعات ينقل لنا صورة المدينة إبان الاحتلال البريطاني عام 1941 ومقاومة الأهالي التي خلفت أيتاما في (دار الأيتام) ويذكر سمات الحروب "الفوضى، انسحاب الموظفين والشرطة عن المدينة، وانتشار الفوضى وما تبعتها من نهب وسلب للدور وسلب للممتلكات " [18].

أجواء القصة تؤكد حقيقة الركود والخمول والحياة الخالية من الحركة والتطور وكأنها بركة مياه آسنة. ثلة الأصدقاء يلتقون في شقة صديقهم ، يشربون بكؤوس فخارية ثم ينسحبون دون أن يعرف عنهم شيئا ، لا عناوينهم ، ولا تفاصيل أسرهم ، ورمز محمد خضير إلى بطء التطور بـ " حركة القابلة البطيئة "، التي أطلق عليها اسم " السلحفاة" هذه التفاصيل كلها مهدت للحرب التي ينهي بها القاص قصته، بإشارة لماحة يستشف منها قيام الحرب وبدء رحلة الموت المتواصل : " انقضى النهار ، وعدت ليلا إلى النهر، الجسر مازال قائما، وقافلة الشاحنات تستمر في العبور، لم يأت أحد من شلة الأصدقاء إلى الشقة تلك الليلة، ولم يظهروا في الليلة التالية " [19].

في قصة (الحكماء الثلاثاء) وفق القاص في الربط بين الأزمنة: الماضي السحيق (أتراحاسيس) أنبأ جماعته بأن النزل الذي حل فيه أول مرة عندما كان في حاشية الملك سنحاريب قبل سبعة وعشرين قرنا قريب من هذا الموقع " [20]. و(سنحاريب) المنحدر في الفرات بجيشه المساير للسفن على الضفة عام 696 قبل الميلاد [21]. ينتقل بين الأسماء والأزمنة وصولا إلى شاعر المدينة العليل (بدر شاكر السياب) ويعود إلى المكان المعاصر (ساحة أم البروم)، و(حانة الوردة البيضاء)، ومعالم أخرى من مدينة البصرة . السياب ينقلنا إلى أجواء الحرب من خلال صديقه الشاعر الجريح دون أن يحدد أي حرب جرح فيها صاحبه، ربما أراد القول إن كل الحروب متشابهة.

ويختم القاص محمد خضير قصته بنهاية تؤكد البداية والأحداث كافة. " وفي الليالي الباردة التالية، حبست نفسي في غرفة الفندق، وانكببت دون انقطاع على جميع أشلاء المفكرة وترتيب الأحداث والأسماء الواردة فيها لأصوغ عنها هذه الحكاية "[22].

(رؤيا البرج) هي القصة الثالثة في هذه المجموعة، يتحدث فيها القاص عن (حرب قد انتهت) دون أن يحدد - كعادته- أي حرب هي التي قصدها الشاعر، ولكن يمكن تحديدها من خلال الأطر أو الأجواء التي عمل عليها القاص – يمكن ذلك وبسهولة- من خلال زمن نشر القصص، ومن زمن كتابتها عام 1986.

لكن القاص استخدم تقنية صعبة يتعذر على القارئ العادي فهمها، فهناك خلط زمكاني، إذ إن القصة تقترب من الحلم. يجوب القاص دهاليز غريبة يطلق عليها "حجيرات فارغة " أو " خلوات" أو" ممرات" ، وركز على خلوة الرؤيا التي

تتميز " بمقاعد الاسترخاء المرمرية ، مقاعد طويلة ، تسمح للظهور أو تتقوس في وسطها، وللرؤوس أن تتوسط حافاتها المرتفعة قليلا، الموزعة إزاء الجدران، حول مركز الخلوة الفارغ المضاء بمصابيح السقف " [23].

وبعد هذه المساحات الضيقة ذات الأجواء السحرية، التي تبدو وكأنها لا تفضي إلى شيء على الرغم من أنها تكمن تحت برج من الرؤيا، نجد القاص ينهي قصته نهاية مشرقة إذ يقول على لسان شخصية الراوي : " لا يفصلني عن شروق الشمس إلا وقت قصير ... إني أملك مسافة للإطلالة التي تمنحني يقينا بالحرية والثبات " [24]، وإن زمام الأمور ما زالت بيده ورمزَ لذلك بالخاتم قائلا :" إني أملك الخاتم في راحة كفي ... أفتحها محترسا فأجده فيها لامعا بفصه العقيق" [25] وهي إشارة واضحة إلى ديمومة الإرادة والقرار. ويعبر عن هذا المعنى بجمل أخرى تأكيدية " في القرار البعيد " أي في الجوهر ، " ساعة البرج " وهي رمز للزمن المتواصل ، " الكرة الشفافة الطافية على القناة، نواتها الخضراء المدفونة وامضة كبؤبؤ عين عارية الأجفان"، " تحت جبين الفجر الوشيك "[26] رمز للتطلع نحو المستقبل.

وهكذا ينهي محمد خضير قصته (رؤيا البرج) بعد وضع القارئ أمام عقد عجيبة ، وتتكرر "الشمس " أو ما يوحي إليها ، كرمز للحرية والغد المشرق في النهاية.

في قصته (داما ، دامي ، دامو) وظف محمد خضير هذه الألعاب الشعبية -المشهورة في مدينة البصرة – في بناء قصته ووصفها بأنها " لعبة الصمت " و" لعبة الجدار الأخرس " وعدها لعبة (بصرياثا) كما يحلو للكاتب أن يطلق هذا الاسم القديم على (البصرة الحديثة)، وربما أراد التعبير هنا عن قدم اللعبة ارتباطا بقدم المدينة. وكان يرمي بتوظيفه الذكي لهذه اللعبة إلى القول إن الحياة هي هزائم وانتصارات: " عجل أو أبطأ، فإن لاعب الداما تستعجله الأهلة إلى المكان الذي رسمته الأشكال المرسومة على طريق أمسه وغده " [27].

إن الوصف الدقيق لقواعد اللعبة يعكس معرفة جيدة بأصولها، يصعب على القارئ العادي معرفتها على الرغم من أن الكاتب انشغل كثيرا بشرح الرموز والإيماءات وصور المكان والشخصيات، لكي يخلق أجواء قصصية، ومع ذلك لم يطرح مضمونا واحدا مكشوفا، إنما طرح مجموعة من الموضوعات تجعل المتلقي يفكر فيها كثيرا، فالمرأة التي قابلها ونازلها هي امرأة كانت سجينة ، وإن ولدها الذي خرج من السجن ونازله ثم هزمه ، سجن مع أمه دون جرم ارتكبه ، والراوي كان سجينا أيضا دون أن يكشف لنا القاص دواعي سجنه ، وأمور كثيرة جرت في الحبس، تركها مفتوحة لتصورات المتلقي وقدرته على فهمها. ويعمد الكاتب على إنهاء قصته في مدة فيها أكثر من حل للغز الأحداث بكاملها : " ولم تتبق من حياتي إلا خطوات صعبة، ساعات من الشعور بالهوان، تدفعني إلى الهبوط إلى جبِّ الأذكياء المئة، والإنضمام إلى فتاة الجنس الثالث التي غير علامتها القديمة لتنتمي إلى أفراد الجنس الهجين النادر. سأحمل علامتها، بعد أن أسألها عما إذا كان الصبي الذي قهرني هو ثمرة لقائنا في الحديقة قبل عشرة أعوام " [28].

عبر قراءة متأنية للمقطع أعلاه ، يمكننا أن نخرج باستنتاج مهم هو أن هزيمة الأم (الأمة) لا يعني أنها مطلقة، أو أبدية، لأن الأم بالصبر والجهد الطويلين استطاعت أن تخلق جيلا جديدا أكثر قدرة من سابقه تمكن من هزيمة الخصم دون أن يعرف القارئ هل هذا الابن الذي يمثل المستقبل هو وليد الهزيمة والانتصار؟ ظلت النهاية مجهولة وحمالة أوجه عديدة. وهي النهاية التي نسميها (النهاية المفتوحة).

ومع ذلك يظل سؤال الراوي في السطر الأخير من نهاية القصة يفتح أكثر من قفل. إذا كان جواب السؤال أن الصبي هو ثمرة لقائهما في الحديقة قبل عشرة أعوام، يعني حدث التلاقح بين تجربتين أنتجت انتصارا جديدا، وإذا حدث فعلا فإن الصبي يرمز إلى تقدم الجيل الجديد وتطوره. وأستبعد تماما أن القاص أو الراوي قصد زيف الانتصار، وعدم شرعيته بسبب عدم شرعية العلاقة. وما إذا لم يكن ذلك الصبي نتاج تلك الليلة، أظن أن خيبة الراوي ستكون كبيرة لأنه

لم يسهم في سبب النجاح وستكون هزيمته هزيمتين : ذاتية مباشرة وغير مباشرة ستكون الأمة وجيلها هما من صنع النصر، بالإصرار والتدريب وتجاوز الحبس والقيود وفقدان الحرية.

(أطياف الغسق) قصة تتكون من خمسة مقاطع (الشبح، طبس الأول، غسق، طبس الثاني، غسق أخير). الراوي - هو الحفيد الرابع للفنان الراحل منعم فرات – منذ البداية يضعنا الراوي في دوامة الأسئلة : " أين يلقى بالأنقاض والنفايات والأجسام المتفسخة ؟ أين تصير الأحلام والأفكار الرثة والتجارب الفاشلة ؟ أين يذهب الزمن المتسارع، أو المتباطئ، الذي ينقل الأنقاض إلى مقبرتها ؟ بل أين هذا المكان الذي لا يتحرك ، وتتحرك فيه الأشياء الميتة؟" [29] وأسئلة أخرى تراوده وهو يتجه بسيارته إلى الصحراء معلنا عن هدفه على شكل تساؤل أيضا: "كنا نبحث عن هدف غير هذه الصورة الفريدة ؟ هذا هو هدفنا، في داخل هذه النسخة صورة لكل شيء فقدناه. هنا صورتنا نحن جميعا " [30]. هو يبحث في مدينة أشباح عن ضالته ، الأشباح ترمز إلى التردي الذي أصاب مدينة محمد خضير (بصرياثا)، إذ جعل منهم" أيقاظا وما هم بأيقاظ" وأحيانا ينتابه شك في موتهم " ربما ما يزال بعضهم يعيش بيننا حيّا"، لكن الأشياء تتكرر " إذا كنا نفكر بتصميم لتمثالنا، لن يكون إلا نسخة من تمثال سابق" [31].

أشياء كثيرة قالتها هذه القصة، وقد وظف كاتبها الخيال والفنطازيا في رسم أشباحه (شخوصه) ليصل بنا إلى نتيجة بائسة، إذ تمر السنوات ويرتحل فرات الرابع دون أن يحقق شيئا كبيرا سوى قيادته لـ"شعب الأطياف إلى أبواب بصرياثا " وكل شيء متشابه لديه، فتماثيله التي يقيمها شبيهة بطبس الثاني، ضفيرة غير منظورة، لا تعلو إلا سنتمترات، بين أطلال النسخة الثانية من المدينة " [32]. فالمدينة ليست أطلالا بل هي مدينة مستنسخة، وهنا فاجعة نهاية هذه القصة التي انتابها كثير من الغموض والرموز والإيحاءات التي لابد من فكها وإعادة تركيبها من جديد، لتظهر المضامين جلية شفافة. وهذه عملية لا يقدر عليها قارئ اعتيادي.

وتبدأ قصة (صحيفة التساؤلات) بعبارة " اكتمل بناء المدينة " حيث بنيت مدينة على أنقاض أخرى خربت، وهذه الجملة تتضمن عمل الماضي المضني وجهد المستقبل، وما زالت المدينة بلا اسم ولا عنوان وبدون شعب. هل يريد القاص أن يرسم صورة جديدة لمدينة فاضلة ؟، ربما أراد ذلك ولكن من خلال طرح الأسئلة وكل سؤال يتضمن جوابا مرتبطا بكيفية نشوء مدينة جديدة، فمثلا سؤاله: " إذا كان الأربعة صنعوا أربعة أشياء، فأي شيء يوحد صنع الأربعة ؟ " [33] مضمون واضح وهو إشارة إلى طبيعة العلاقات داخل مدينته الجديدة. وسؤال آخر يعبر عن العلاقة بين المدينة وجيرانها. إذ يتساءل الراوي: " زلزل وهارون وخفيف أخوتي ، منحتهم اسمي وكتابي فلم بخلوا علي بكرة وإسطرلاب وعود ومحجم، أأرشفهم بزهرة ويوخزونني بإبرة " [34]. وأسئلة أخرى تجيب عن طبيعة العلاقات الاجتماعية والطبقية، والطفولة وغيرها.

المدينة إذاً مكان أساس في العمل الإبداعي ، فيه تفاصيل كثيرة تمتد في عمق الإنسان، وتمثل حاضره، مستقبله، وموروثه. وهذا يجعل القاص على لسان الراوي يبحث " راحلا إلى لا مكان، خلال هذا المكان، حيث يعني اللامكان كل مكان أو أي مكان، إنه إذ ينتقل لا ينتقل، لا يتحول في الاسم ولكنه ينسلخ عنه" [35].

لقد وظف القاص قصة النبي سليمان القرآنية حيث استل منها الهدهد وجعله بأكثر من شخصية فهو متهم بالقتل : " هدهد سليمان من أرسلهم إلى البئر "، وفي عبارة " في نهاية كل اجتماع لأعضاء الجمعية يرسل هدهد سليمان واحدا منهم إلى حتفه ".

وهو صوت الحق والمرشد لأبناء المدينة ؛ " يا معشر الأصفياء ... يا أخوة الوفاء ... الوقت حان لأن تسألوا عن حقيقة مدينتكم التي جئتموها وعن اسمها. قدمتم من لا أين فأين هي أينكم، إن لم يكن لا أين ثانياً؟ وهل الثاني سوى لا أين ثالث، والرابع لا أين خامس، والتاسع عاشرٌ مثله؟ فهل نستسلم لهذا التكرار والتلاشي أم نشد الرحال إلى مدينة

أخرى؟" [36، 37]. لغة شعرية مكثفة تذكرني بلغة الشاعر الفلسطيني محمود درويش وهو يبحث عن وطنه ثم يجيء صوت الهدهد وكأنه صوت الحق ويستمر هذا النزيف الباحث عن مكان يطلق عليه ا سما ، وفي دوامة الأسئلة التي ينبغي أن تفضي إلى أجوبة تفك اشتباكا بين الوجود واللاوجود، بين الموت حيا أو الحياة موتا.

وتنتهي القصة بأسئلة أكثر مرارة حيث تبقى المدينة التي بنيت مشروع زوال :" فإن زلت أنت فلست أنا الذي يبقى . وإن زلت أنا فلست أنت الذي تبقى. أنت زائل كفقراء بصرياثا / وأنا زائل كأطفالها المشعين ..." [38].

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث أود أن أذكر بعض أو أهم ما أخرج به من ملاحظات واستنتاجات وهي:

إن نتاجات محمد خضير هي مثار جدل كبير بين الباحثين والنقاد المعاصرين المتخصصين في مجال القصة العراقية أو في مجال النثر بشكل عام.

إن عمق نتاجه يتطلب عمقا في الدراسة والبحث يتوازى مع تقنية محمد خضير الإبداعية ودلالة موضوعاته الإنسانية، ومن هنا يأتي حجم مسؤولية الباحث وجديته.

إنماز نتاج محمد خضير بالبداية القوية، والتأني في الكتابة لدرجة الموسمية، وهذه الظاهرة الأدبية تمثل عنصرا ايجابيا وهو العناية الفائقة بالنص الإبداعي، ومحاولة إخراجه بأرقى صورة، وجانبا سلبيا؛ هو ضعف التواصل مع جمهوره والمشكلات الاجتماعية، لذا كان لتجربة محمد خضير وجود في الساحة الأدبية كتجربة نوعية بعيدة عن الغزارة.

ظاهرة محمد خضير في القصة العراقية ، ليست منقطعة الجذور عن سياقات تطور القص العراقي والعربي والعالمي.

قدمت هذه الدراسة بحثا في مفهوم النهايات وتقنياتها الجمالية في المنتج القصصي تناولت أبرز آراء الكتاب والباحثين عراقيين وعربا وأجانب.

الهوامش

1. الدكتور علي جواد الطاهر، وراء الأفق الأدبي، منشورات وزارة الإعلام- الجمهورية العراقية سلسلة دراسات (125)، دار الحرية للطباعة 1977ص.24
2. انظر نص المقال في كتاب د. علي إبراهيم ، القص العراقي بعيدا عن سماواته، دار الرواد المزدهرة ، بغداد، 2006، ص 42.
3. ياسين النصير، موسوعة أدباء عراقيون (القاص محمد خضير) والتي نشرت على عدة مواقع من انترنيت.
4. عبد الستار ناصر، جريدة (الزمان) --- العدد 1779 --- التاريخ 2004 - 4 – 10.
5. خضير ميري، جريدة الصباح، محمد خضير ...قارئا،2003/6/17 ص الأخيرة.
6. د. علي جواد الطاهر، وراء الأفق، المصدر السابق ص 25.
7. أنظر المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، مجمع اللغة العربية ج2 ، دار الدعوة ، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر ط5 إيران ص960 .
8. د. كمال نشأت، في النقد الأدبي دراسة وتطبيق، مطابع النعمان – النجف الأشرف ، 1970، ص 82-83.
9. د. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، وزارة الثقافة والإعلام العراقية – دار الشؤون الثقافية العامة،1987 ص 409.
10. شاكر النابلسي، النهايات المفتوحة، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1985 ص 44
11. حسين القباني، فن كتابة القصة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، الدار القومية (مصر) كانون الأول 1965 ص 45.
12. النهايات المفتوحة ، المصدر السابق ص 44.
13. النهايات المفتوحة، المصدر السابق ص 44.
14. انظر: دليل الناقد د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، ط2 2000 ص .181
15. البرفسور فرانك كرمود، الإحساس بالنهاية ، دراسة نظرية، ترجمة : د. عناد غزوان إسماعيل وجعفر الخليلي ، الجمهورية العراقية ، دار الرشيد للنشر ، 1979 ، ص 12.
16. محمد خضير، رؤيا خريف ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان (دار الأزمنة والتوزيع) آب 1995، ص 11.
17. أنظر محمد خضير، المصدر السابق ص.11
18. محمد خضير، المصدر السابق ص .13
19. محمد خضير، المصدر السابق ص 16.
20. محمد خضير، المصدر السابق ص .19

21. أنظر محمد خضير، م .ن ، ص .19
22. محمد خضير، م.ن ص27.
23. محمد خضير، م.ن ، ص 41.
24. محمد خضير، م.ن، ص 50.
25. محمد خضير، م.ن، ص 50.
26. أنظر محمد خضير، م.ن، ص .50
27. محمد خضير، م.ن، ص 72.
28. محمد خضير، م.ن، ص 77.
29. محمد خضير، م.ن، ص 79.
30. محمد خضير، م.ن، ص 90.
31. محمد خضير، م.ن، الاقتباسات المحصورة بين قويسات صغيرة والتي تم تحليلها ص 92-.93
32. محمد خضير، م.ن، ص 98.
33. محمد خضير، م . ن ص .104
34. محمد خضير، م .ن ص 110.
35. محمد خضير، م.ن، ص 125.
36. محمد خضير، م.ن، ص 125.
37. محمد خضير، م.ن، ص .125
38. محمد خضير، م .ن ص 130.

المراجع والمصادر

1- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ج2 ، دار الدعوة ، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر ط5 إيران.
2- حسين القباني، فن كتابة القصة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، الدار القومية (مصر) كانون الأول.1965
3- خضير مير، جريدة الصباح، محمد خضير ...قارئا،2003/6/17.
4- عبد الستار ناصر، جريدة (الزمان)، العدد 1779، التاريخ: 2004./10/4
5- الدكتور علي جواد الطاهر، وراء الأفق الأدبي، منشورات وزارة الإعلام- الجمهورية العراقية سلسلة دراسات (125)، دار الحرية للطباعة .1977
6- د. علي إبراهيم، القص العراقي بعيدا عن سماواته ، دار الرواد المزدهرة، بغداد، .2006
7- محمد خضير، رؤيا خريف ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان (دار الأزمنة والتوزيع) آب .1995
8- البرفسور فرانك كرمود ، ترجمة : د. عناد غزوان إسماعيل وجعفر الخليلي ، الإحساس بالنهاية ، دراسة نظرية، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، .1979
9- د. كمال نشأت، في النقد الأدبي دراسة وتطبيق، مطابع النعمان – النجف الأشرف، 1970 .
10- شاكر النابلسي، النهايات المفتوحة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1985 .
11- د. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية –دار الشؤون الثقافية العامة،1987
12- ياسين النصير، موسوعة أدباء عراقيون (القاص محمد خضير) والتي نشرت على عدة مواقع من انترنيت .

سايكولوجية المثقف في فردوس الثقافة العربية المفقود
(الوعي البائس للمثقف المتكيف في منفى الثقافة العراقية)

د. فاضل سوداني

أولا: منفى الثقافة العراقية

البلاد أمست ظلاما
صارت ملأى بالظلال .
من ذا الذي رأى إنسانا
تملكه الخوف ، يعيش بسلام .
لا تدع اصدقاءك الذين اصطحبوك
ينتظرون عند سفح الجبل،
لا تدع ألام التي ولدتك
تقذف إلى ساح المدينة.

ينبئنا هذا الشاعر (من السلف السومري) الذي عاش في آلالفية الثالثة قبل الميلاد، عن الخراب الذي عم بلاد سومر، فحفر الخوف في روح الانسان السومري. انه يحدثنا عن فلسفة هذا الخوف بطريقة وكأنه يحذر المثقف العربي المعاصر ويؤشر مهماته ومواقفه التي تساهم في إنتاج تلك الثقافة الانسانية الفعالة التي تحدد مستقبل ومصير الانسان والامة والمدينة. وكأن هذا الشاعر السومري يتحدث عن التكيف السلبي للمثقف العربي الذي يؤصل الخوف، عندما يخون مثل هذا المثقف ذاته ومهماته التأريخية ويتكيف مع المشروع السلطوي الاستثنائي. ان تعميم الخوف في المجتمع وشعور الإنسان ببؤس ثقافته يتحقق عندما يتخلى المثقف عن حصانته الداخلية ودوره التاريخي فيعم الخواء في روح الأمة. وضمن أهمية هذا الدور لا يكون من المنطقي مناقشة الواقع الثقافي وفعالية المثقف في تطويره مالم يأخذ بالاعتبار أهمية الدور التأريخي للمثقف غير المتكيف. حيث ينشأ التكيّف عندما يكون هنالك خواء فكري يميز فعاليات الإنسان الحياتية والفكرية ، وسكونية التطور الاجتماعي.

فالتكيّف هو الموقف السلبي للمثقف المتساهل مع ذاته وتأريخ كينونته، لأن مثل هذا المثقف هو الذي تفوح منه رائحة خبيثة (حسب ميشيل غيلدرود) بل تكيف نتن نتيجة لموقفه المتصدي. وبمعنى آخر ان مثل هذا المثقف المتكيّف لا يؤثر في تطوير العملية الفكرية بمسارها الجدلي في مجتمعه إلا سلبا . لانه يتخلى عن دوره ووجوده الفاعل، وبهذا فان المثقف هنا يتحول الى أداة في آلية السلطة الاستثنائية تأريخيا وآنيا ، ويكون مستعدا للمساهمة في برامجها لتهيئة الظروف التي تخلق عدمية الثقافة والفن، والمساهمة في تهيئة ظروف اجتماعية أخرى تعمم مجانية العنف وتعيد الغرائز المتوحشة في روح الانسان لتأخذ الأولوية في سلوكه ويكون مستعدا دائما لتبرير قرارات النظام الدكتاتوري التوسعي في شن الصراعات الطائفية في داخل المجتمع والحروب العدوانية غير المجدية بحجج مختلفة يكيفها ويبرمجها بالتدليس والاحتيال. ومثل هذا المثقف هو الذي يهيئ الإرتزاق الموبوء في الثقافة والفكر. ويكون هذا واضحا في الا نظمة الشمولية والدكتاتورية. أما النقيض لمثل هذا المثقف فقد اطلقنا عليه بالمثقف **المتفاعل غير المتكيف** الذي يؤثر إيجابيا كذات مبدعة في العمليات الفكرية والاجتماعية التي لابد أن تتطور ضمن المفهوم العام للتطور الديالكتيكي .

فالابداع الحر الناتج عن الموقف الفكري غير المزيف للمثقف هو القادر على تعميق انسجامه لذاته ومجتمعه (المثقف = منتج الثقافة المبدعة)، ومن جانب آخر فإن الموت القسري والمجاني والاضطهاد والحروب المدمرة اللامجدية وما تنتجه من ثقافة عدمية مزيفة تزكي العنف، بالتأكيد ستشكل منفى المثقف الداخلي، وهذا كله سيكون متناقضا مع الوعي والنبل الانساني لشهود العيان من المفكرين والفنانين المتفاعلين، ومتناقضا مع مطالبتهم او قسرهم

على قبول او تبرير العنف الذي ستخلقه السياسة الدكتاتورية الاستثنائية. أما المثقف الذي أجبر على ترك وطنه للعيش في المنفى فانه يتعرض للتشويه المدمر عندما يُقتلع - لاسباب كثيرة - من منبع وعيه، من المكان الاول ..البيت الاول من الباب ودكته الاولى .. الوطن الاول. ويقذف تائها في حفريات نفي الروح والفكر واللغة والاخلاق وفي الهوة المظلمة من ذلك العالم الغريب، ذلك الفردوس الاوربي، عالم المتاهة والآلية والعواطف المبتسرة، المتجردة والملَتبسة في غربة لانهائية مادام قد تعود عليها، وفي زمن المنفى الذي يمتلك القدرة على محو آلية الذاكرة اللا إرادية، ذاكرة الماضي ذلك الخزين الماضوي الذي يشكل أساس الحصانة الداخلية للمثقف، لان المنفى بطبيعته يفرض اختلاط الازمنة بل ان آنية المنفى (وخاصة في البلدان المتطورة والتي تعاني الاغتراب التكنولوجي) تحتم التخلي عن هذه الحصانه الذاتية أي الذات في وجودها الماضوي. فيبدأ التوهان الحقيقي والاضمحلال في قدرات دور المثقف الابداعي قياسا لدوره الحقيقي الذي يمكن ان يلعبه وهو في وطنه، مثل امكانية المساهمة في تأسيس تاريخه وتاريخ أمته عندما يمتلك مسؤولية سن طرائق الفكر والثقافة في مجتمعه ، لانه "كالطير الضائع عن عشه كذلك الانسان الضائع عن مسقط رأسه ". كما يقول شكسبير.

ومن خلال هذا التناقض بين نقاء ونبل ذات الفنان المتفاعلة، وبين التزام الصمت على دموية النظام الاستثنائي من قبل المثقف المتكيف ، يكتشف المثقف بوجهيه (أي المتكيف والمتفاعل) بأنه يعيش حالة من اللا إنسجام ، او الغربة القاسية والمنفى الداخلى وهو مازال في وطنه. وهذا هو أيضا منفى للثقافة والفكر واللغة في وطنها أكثر قساوة وعدم قبول للثقافة في منفاها.

الوعي البائس وسلطة المثقف المتكيف
المثقف المتكيف والأبخرة الموبوءة

هل نحن الذين زرعنا الجيفة في حدائقنا الغّناء منذ زمن بعيد ؟؟

يشكل ديالكتيك تطور الثقافة الحرة خطورة على أنظمة الكثير من البلدان غير الديمقراطية، فأي توقف لعملية تطوير الثقافة والفكر يعد استثناء تاريخياً على شتى الأصعدة مما يؤدي الى انحراف في مسار عمليات البناء الاجتماعي. والخطورة تكون أعظم إذا شكلت الأمية نسبة كبيرة في المجتمع ، كما هو الحال مع الإحصائيات المفاجئة لليونسكو عن **حجم الأمية في الدول العربية مثلا (اكثر من 70 مليون أمي أي أكثر من 45% من السكان إضافة الى وجود 900 مليون امي في العالم)** وإذا أضيف إلى هذا لامبالاة وتساهل وخيانة المثقف لدوره وخاصة في مجتمعات ما يسمى بدول العالم الثالث ، ستكون النتائج بالتأكيد اكثر تشاؤما بل خطرة الى حد مريع. فتتجذر السكونية في التطور الاجتماعي والثقافي وفي الذات الفردية. إن الهدف من خلق سكونية مثل هذا الواقع وتهيئة ظروفه، هو الخوف من تأثير الثقافة، وإلغاء دور **المثقف المتفاعل غير المتكيف** فيتشكل منفى الثقافة في:

1 -أما أن ينسجم المثقف مع السلطة الاستثنائية أو الدكتاتورية مداراة لمصلحته الأنانية الفردية او الطبقية ويخون ذاته.

أو

2 -الانغلاق على الذات والضياع في متاهات الصمت أو التباس الوضوح.

أو

3 -خيانة الذات والموقف التأريخي فيتحول الى تاجر للخردوات الفكرية ليعيش الكذب والزيف، ويصاب بالشيزوفرينيا الفكرية.

أو

4 -يبتعد عن المساهمة في بناء العمليات الاجتماعية - الفكرية في وطنه ويفضل المنفى، ابتغاءً لتفرد الموقف وحرية الإبداع خوفاً من أن يربطونه بحجر الرحى ويقذف في أحد الأنهار العربية المذكورة في الكتب المقدسة فيضيع قضاءا وقدرا.

اذن أما التكيف الفكري في وطنه ضمن ظروف السلطة الاستثنائية، او التكيف ضمن شروط المنفى. اما الطريق الآخر أي طريق انسجام المثقف الحر مع ذاته ودوره التأريخي فهو الطريق الأشق لكنه الأمثل لإنقاذ الوعي الحر المشاكس الذي يمتلك ضرورته للمثقف المتفاعل غير المتكيف. إذن هل يتحتم على المثقف العربي في الظروف الاستثنائية أن يتحمل الزيف الفكري بقسرية العنف التي يفضلها النظام الاستثنائي ليجبره على التخلي عن ذاته ونقاء حصانته الذاتية من اجل ان يصمت إزاء إمعان هذا النظام بتخلفه وحروبه والويلات التي سيجلبها الدكتاتور على شعبه والعالم ، وأعني أيضا ذلك السياسي النرجسي فكرا وجوهرا (الذي يتغزل دائما بنفسه أمام المرآة الرئاسية وأمام مرافقيه وضيوفه)؟

لكن قبل هذا يمكن القول بان الدقة في تفسير دور المثقف هي حتمية تفرضها المسؤولية الذاتية والاجتماعية (فكل خطأ في تفسير دور المثقف يؤدي الى خطأ في تفسير دور الثقافة). وعندما يكون هنالك التباس في موقف المثقف وعدم وضوح هدفه، يبدأ الغموض في إبداعه ودوره التأريخي والحياتي. فتبرز البلبلة الفكرية ويبدأ استعداد السلطة الاستثنائية لسحق المثقف الحر والفعال وغير المتكيف، أو إغراءه وإجباره حتى يتكيف ليصبح هو مثقفها المخلص الذي يكون على استعداد لتنفيذ المشاريع الثقافية والفكرية ذات الطابع السياسي البوليسي التخريبي، وبهذا يكون تابعا للسياسي و جزءا من ماكنة السلطة ، فيمنحونه وسادة الخدر، ليكون صاحب الوعي البائس بامتياز. وهذا يعني توريط الذات في الوعي المشوه وتحويل المثقف إلى إنسان متكيف مع آلية النظام ومرتكزا صغيرا فيه مستعدا دائما ليس للمساهمة مع السلطة في تشويهها لديناميكية الثقافة تاريخيا فقط، وإنما العبث بالقرارات المصيرية وتكيفها لمصلحة النظام التي تنعكس في (الحروب العدوانية غير المجدية مثلا).

وبما أن الثقافة والفكر هي عمليات معقدة في تطورها، لأنها تعتمد على العوامل الفكرية الذاتية، أي الفكر والثقافة ومنتجوها وتكوينهم الطبقي و الفكري ومدى حساسيتهم الذاتية إزاء الحقيقة. وكذلك على العوامل الموضوعية، أي التراكم الكمي والكيفي للتطور الثقافي والفكري تاريخيا ودرجة الديناميكية الاجتماعية. لذا فإن دور المثقف ومكانة الثقافة في التطور العام يجب أن يكونا أكثر وضوحا. مما يدفع بالمثقف المتفاعل الحر غير المتكيف ان يحمل مصباحه النافذ (مصباح ديوجين) وسط ظهيرة الخراب الفكري والاجتماعي ـ الذي يتميز به مجتمعنا العربي مثلا بل عالمنا أيضا ـ للبحث عن المستحيل ، او عن ذلك الخدر والسكونية في روح الإنسان وروح الامة وروح الحضارة من أجل تشخيصها.

عدوى المثقف المتكيف

إن مشكلة المثقف العربي الحر والمبدع عموما تكمن في أهمية قدرته على مقاومة الضياع والبلبلة الفكرية والقمع والاستلاب والاغتراب التي تحتمها الظروف الاستثنائية في وطنه، أو قدرته على تجاوز مشكلة آليات حياة المنفى التي يعيشها اختياريا او قسريا. ومن اجل الوصول الى الوعي الخلاق لتطوير ذاته وعدم السقوط في شيزوفرينيا الذات والوعي (حسب إفهومة كيركغارد الفلسفية) يتحتم عليه أن يعتمد على تماسك ذاته وصلابتها وبنائها، أي اختيار ذاته من جديد والانغمار في الإبداع الحر والمستحيل ورفض مغامرات السياسي الأناني وحروبه المجانية سواء كانت مع الدول الأخرى أو حروبه ضد شعبه مهما كان الثمن، وكشف المسكوت عنه في الثقافة والتاريخ والتراث وتحويلهما الى عناصر فاعلة لخدمة الإنسان ثقافيا (في مجتمع عربي مهووس بالتعاويذ وخلق المحرمات الزائفة التي تقود نحو الهاوية مثلا).

ان تحولات عصرنا الان وبالرغم من إنها مرتبطة بالعولمة (اذا كانت تعني الهيمنة الثقافية والتكنولوجية)، فانها تفرض زمن المثقف و المفكر صاحب العقل الديناميكي المسؤول الذي يرفض التكيف الخالق لظروف المواقف المزيفة والكتابة المرتزقة غير المسؤولة في عالم يتحكم به الصيارفة والبنوك والبوليس السري والدكتاتور النزق الذي يجعل من

مجتمعه ومدينته لعبته المفضلة فيود أن يراها تحترق من أجل ان يخلد دمعته الوحيدة المزيفة. كل هذا يؤكد النظر الى التاريخ والواقع الآني ببصيرة جديدة تجعل من حساسية المثقف عموما ان تتلامس مع الأزمنة الجديدة، وعكس هذا فان التكيف يخضع كل صنوف الثقافة والفكر للزيف. ومن هنا تأتي أهمية عدم تساهل المثقف مع ذاته حتى يصبح فاعلا في وجوده.

إن المثقف المتكيف وصاحب الوعي البائس وغير الحر هو المتساهل المحصّن دائما بالتبرير الجاهز الذي لايخدم الحقيقة. غير ان خواء أية ثقافة وعدم فعاليتها متأتية من خواء روح المثقف بالدرجة الاولى، وعدم تطور الظروف الموضوعية، وتضخم عبوديته لمصالحه الانانية الآنية الصغيرة، وهذا يفرض عليه الالتزام بثقافة تخدم مصالح الانظمة الاستثنائية. كل هذا يتطلب التفكير الجدي بطبيعة الثقافة التي يحاول أن ينتجها المثقف المتكيف صاحب الوعي البائس في وطنه او منفاه، والتي بالضرورة تتناقض مع تلك الثقافة الفاعلة تأريخيا التي تخضع للتطور الديالكتيكي المؤثر في الانسان والتي تساهم في بناء المجتمع وإغناء ذات الانسان وروح الامة. وبالتاكيد فان مانطلق عليه بمفهوم التكيف الفكري والثقافي، والذي نعتبره ظاهرة للمثقف السلبي المعاصر، حيث من خلالها يضطر هذا المثقف الى الالتزام بالفكر الفاشي. واذا كانت فرضيتنا هذه منطقية ومعقولة فاننا يجب التاكيد بان مثل هذه التحولات لابد ان يكون لها ظروفها ومسبباتها و تمهيدها التاريخي. ولكن الخطورة تكمن في العمل على تعميم ظاهرة التكيف لدرجة إنها لا تشمل المثقف فحسب بل المجتمع لفترة زمنية استثنائية محددة. ولا يمكن للسلطة الدكتاتورية الاستثنائية ان تحقق هذا مالم تخلق الظروف التي ستساعد على تكيف قطاعات كبيرة من المجتمع، كما حدث في العراق عند وصول البعث الى السلطة في انقلاب عام 1968 حيث عملت الدكتاتورية على فرض البرنامج الثقافي البعثي لتنمية خيانة المثقف لدوره التاريخي مما يجعله تائها في تلافيف الارتزاق وخادما أمينا للجهالة التي يخلقها النظام الدكتاتوري الشمولي. وهذا يفرض على جميع المثقفين والباحثين بما فيهم الذين التزموا فكر السلطة آنذاك او الذين فرض عليهم، أن يفكروا جديا بتشخيص الاسباب التي ادت الى هذا الدمار وبكل صراحة ومسؤولية ليس في الثقافة وانما في الحياة والمجتمع العراقي، فلا يمكن أن نتخلص من آثار الماضي والبدء بحياة وسياسة ديمقراطية جديدة ما لم نشخص الاسباب التي دفعت المجتمع الى الحروب والعنف .

ثانيا :التدجين الثقافي في المجتمع العراقي
التمرد الثقافي

يعد المثقف المتفاعل غير المتكيف صاحب الحضور الثقافي المكثف والمنتج للثقافة خارج الارتزاق من السلطة الدكتاتورية، والعصامي والدؤوب في البحث عن الحقيقة والسمو على الواقع المشوه الذي لا يتناسب مع طموحاته، يعتبر من المؤثرين كذات مبدعة في العمليات الفكرية والاجتماعية التي لابد أن تتطور ضمن المفهوم العام للتطور الديناميكي. وبهذا فإن تأثيره لابد أن يكون إيجابيا، مما يدفعه ان يعمل على تصحيح الظروف التي تساهم في تشكيل عدمية الفكر والثقافة او اغتراب المثقف (في فترة ما). بالرغم من ان الاغتراب مرتبط تاريخيا وفلسفيا بنشوء قلق المجتمع والذات مع وجود أسباب أخرى لتعميمه. وبالتأكيد فان هذا الدور الإيجابي يشمل المثقف الستيني المنتج للثقافة وكذلك مثقفو الأجيال الأخرى من غير المثقفين المتكيفين.

وبالتأكيد فان هذه الظواهر لابد أن يكون لها تمهيدها التأريخي كما اشرنا. لذلك فإن عملية تكيف الشعب العراقي بدأت منذ ستينات القرن العشرين وخضعت لوسائل ودراسات استراتيجية وسيكولوجية على الرأي العام مدفوعة الثمن قامت بها مؤسسات عالمية، وخاصة مؤسسات بعض الدول الاشتراكية السابقة التي كانت مهمتها المساعدة في تثبيت النظام العراقي وفرض سياسته على الشعب من خلال تدجينه خدمة لاستثماراتها.

ولتحقيق هذا وضع النظام السابق في حساباته منذ مجيئه، شتى المغريات لتدجين المثقف العراقي المتمرد من جيل الستينات وتحويله إلى مثقف متكيف، لأن النظام حينذاك كان يفتقر الى المثقفين عموما لذلك بدأ بشرائهم. إلا ان المثقفين

كانوا يتوجسون منه، فانقلاب شباط البعثي الدموي عام1963 مازال في الذاكرة والذي استشهد فيه سكرتير الحزب الشيوعي العراقي **سلام عادل**، ومازالت دماء الكثير من الأبرياء والبريئات الذين ماتوا تحت التعذيب طرية، وهذه كانت مشكلة كبرى أما م النظام انذاك.

ولهذه الاسباب وغيرها لم يستطع ذلك النظام كسب الكوادر الثقافية البارزة فعمد إلى سياسة العنف والعزل بجانب الإغراء للوصول الى هدفه. ونتيجة لحساسية المثقف الستيني الفكرية والسياسية المبكرة وقف منذ البداية، ضد جميع انواع الوصاية الفوقية سواء الاجتماعية منها اوالفكرية او السياسية، وكذلك وقف ضد تقنين الابداع في أطر قد لا تتناسب مع تمرده الواعي وطموحه الابداعي. ولهذا السبب فإنه يعتبر جيلا متمردا وقف ضد التكيف الإبداعي أو التكيف مع برامج السلطة الاستثنائية واعتبره خيانة وخداع للذات الحقيقية، وخاصة عندما تحتم هذه السياسة الثقافية تفضيل النظرة القومية ـ الشوفينية الضيقة على الرؤيا الإنسانية الشمولية، وتحويل قدرة الوعي والتوجه الفكري، من التعمق ودراسة المشاكل الفكرية والاجتماعية والذاتية الجوهرية الى تمثل المفاهيم التي تشئ الانسان وفكره وتشوه الذات، فيتحول المثقف من ذات مبدعة ومتفردة إلى كائن أناني متكيف وغارق في الروح الارتزاقية البائسة، فيصبح المثقف آلة في الهرم الذي يقف في قمته العقل الدكتاتوري ـ الفاشي الذي يلغي التفرد، ويفرض الانتماء الى الجماعة التي تحرص، ثقافة الحزب الواحد والنظام الشمولي، ان تجعلها قطيعا يردد فقط تلك المفاهيم والأهداف والشعارات التي تمجد الدكتاتورية والعنف والحرب، وتشجع الانغمار في الأوهام التاريخية.

ولهذا فان مشروعية تمرد جيل الستينات الثقافي حتم رفض التكيف مع النظام معتمدا على تماسك الذات وبنائها خارج الارتزاق الفكري، من أجل الانغمار في المستحيل الإبداعي والحصانة الداخلية التي يكتسبها من خلال استيعاب المعارف الجديدة، والحساسية الذاتية المتفردة لرؤية الواقع على حقيقته ومن ثم رفضه. إن هوس الاطلاع على المعرفة بشموليتها هي محاولة للوصول بالإبداع إلى أقصى درجات أبعاده الحرة، والجرأة في الكشف عن المسكوت عنه والانغمار في الحرام والممنوع الذي يشكل خطورة على الثقافة العربية الرسمية ونفورا من المثقفين المحافظين.

وقد عمد المثقف الستيني الى رفض كل ماهو سلفي في المجتمع، أما في الجانب الثقافي فابتعد عن ضيق الافق الابداعي لأجل التجاوز المستقبلي والطموح العنيد لخلق ثقافة ورؤى لا تمت الى الماضي بأية علاقة، بل تعتمد على أكثر المفاهيم والنظريات الثقافية والفلسفات المعاصرة المتناقضة كالماركسية والوجودية والعبثية والسريالية وتيارات الفكر الحداثي الابداعي التي خلقت آفاقاً جديدة للحداثة في ادب وثقافة الجيل الستيني (ومن بعده الاجيال الاخرى) الذي كان يتباهى بانه جيل عاق لتراثه الثقافي العربي الكلاسيكي السلفي. وفي خضم العداء الذي يشيعه السياسي الاستثنائي وبمعيته مثقفه المتكيف المرتزق وكذلك محاربته من جميع الاحزاب السياسية الاخرى وتحجيم افاق التفكير الحرة، كان جيل الستينات يبحث عن فردوسه المفقود خارج تلك الابخرة الموبوءة. وبالرغم من أن مثقفي الستينات كانوا قد تميزوا بالحس الشعري للعبث مما أضفى على سلوكهم و إبداعهم سمة التشاؤم كميزة للتمرد الواعي (بتأثير المدرسة الفرنسية ورموزها المبدعة مثل رامبو، فرلين، لوتريامون، الفرد دي فيني، سارتر والسرياليين) مما دفعهم الى حمل صليب الذات المعرفية، وانعكس هذا في إبداعهم المبني على القلق الداخلي المبكر والذي هو قلق الابداع المتفرد مما سيؤثر على مستقبل الثقافة العراقية.

لذلك فقد تشكل وعي وثقافة ، جيل الستينات (اضافة الى كل ماسبق) من مؤثرات كثيرة أهمها :
الثورة الثقافية التي عمت أوربا في ستينات القرن الماضي واتسمت بالتمرد على كل شئ .
ترجمات الادب والثقافة الاوربية المعاصرة وخاصة الفكر الوجودي والفن الطليعي وقصيدة النثر الحرة.

الرغبة في التمرد على النظرة السلفية للثقافة العربية والتزام يسار الفكر الثوري من اجل تغير الواقع العربي كرد فعل على الهزائم والانتكاسات التي عانى منها الانسان في البلدان العربية بسبب الانظمة السياسية. لذلك فان الكثير منهم التزم يسار الماركسية كالتجربة الجيفارية والماوية.

الطموح السريالي لخلق ثورة أدبية حرة وثقافة جديدة تقطع الصلة بالماضي والتراث العربي، ويعود هذا بالتأكيد الى روح التمرد والعبث الذي تميز به الجيل الستيني في تلك المرحلة سلوكا وثقافة.

الفلسفة الماركسية وتأثير الحزب الشوعي العراقي حيث كانت سياسته الثقافية تؤثر على الكثير من المثقفين من جانب، والتزام الفكر القومي من جانب آخر.

ان الوعي السياسي للانسان العراقي واتساع الرؤية الابداعية المتوهجة للمثقف المتمرد المنحوتة ليس فقط من التجارب النضالية والفكرية المحلية والعربية وخاصة اتجاهات التراث العربي التقدمي والتصوفي ـ الاسلامي، وانما استشراف التجارب الفكرية العالمية ومحاولة تطبيقها على الواقع العراقي، خلقت لدى المثقف اتساع الرؤية وصلابة الموقف.

ولكن في بلد مثل العراق تكون القاعدة فيه استثناء، اذ المفارقة تكمن في الغاء القاعدة وتعميم الاستثناء. لذلك (عندما تتحول الاكذوبة الى نظام شامل، لن يكون هنالك سوى الاشباح) ويقين الشاعر فاضل العزاوي هذا فيه الكثير من الدقة، فهو تشخيص دقيق للمرحلة التي فرضت فيها الحزب القائد وامتدت الى جميع جوانب الحياة السياسية والمؤسسات الفكرية العراقية، وتعميم الحياة العسكرتارية والسلوك المخابراتي في شتى مجالات العمل والحياة وجعلها ظاهرة طبيعية، ومحاولة إزالة الكره السايكولوجي التأريخي بين المواطن العراقي ورجل الامن (فجندت لها تمثيليات تلفزيونية كانت تتملق السلطة ومقالات ودراسات خاصة فرضتها صحافة النظام ومسرحيات وقصص وروايات كثيرة تصب في هذا المنحى) فانبثقت مهمة ضابط أمن الدائرة كوظيفة مقبولة في مؤسسات النظام العراقي عموما وخاصة في المؤسسات الثقافية في جميع محافظات العراق.

هكذا فرضت شمولية النظام وأدت الى تخريب الوعي باساليب العنف، لتهيئة المجتمع العراقي لمرحلة تخريبية اكبر، اعني الحروب التدميرية اللامجدية (الحرب الداخلية ضد الشعب العراقي والحرب ضد ايران والكويت) التي لم يألفها الشعب العراقي، لكنها بالتدريج أصبحت جزءا من يومياته (حيث قام النظام بشتى الوسائل والمغريات لتدجين الشعب العراقي حتى يقبل الحرب كقدر لامفر منه). وسيؤثر هذا على مستقبله عندما يصبح مصيره في كفتي الميزان حيث يدخل ضمن مخططات ومراهنات النظام وطموحاته التوسعية وعقده العسكرية، وضمن خطط المافيا الدولية ليصبح جسرا للعبور الى الاهداف الستراتيجية للرأسمال العالمي في منطقة الشرق الاوسط . في ذلك الوقت كانت بعض اطراف المعارضة العراقية غارقة في حسابات اخرى، في كيفية الحصول على المكاسب الآنية اللامجدية التي سيتفضل بها النظام حسب مقتضيات مصلحته وليس مصلحة الشعب او الحياة السياسية لانه سرعان ما سيلغيها متى يشاء.

ونُفذ كل شئ بانسيابية ومباركة من الفصائل الرئيسية للشعب، الذي كان يلاقي كل التحولات السياسية بلا اهتمام لكثرة الشعارات والخدع التي مورست لاستغلاله في العهود السابقة (بالرغم من قيام الشعب بمقاومة عنيفة ضد النظام في زمن لاحق) فبرزت من جديد تلك المقولات والحكم البالية وأصبحت هي التي تنير موقف العراقي مثل (الذي يتزوج أمنا يصبح عمنا) أو (لا يهمك ، إمشي بجانب ألحائط) أو (الامر لايهمني) وغيرها الكثير (التي تحتاج الى دراسة معاصرة من قبل المختصين وعلماء الاجتماع لكونها انعكاس للواقع النفسي والساسيولوجي في المجتمع العراقي). وهذه المقولات التخديرية جلبت الويلات ودفعت بالشعب العراقي الى التزام اللامبالاة ، فغط في نومة الفجر الهنية على السطوح (العراقيون ينامون فوق السطوح في ليالي الصيف) يحلم بشربة ماء بارد، والطموح في الحصول على كارتون من البيض او معجون الطماطم. في ذلك الوقت لم يكلف أحد نفسه من المعارضة أو المثقفين الآخرين إيقاظ النائم من هذا الحلم ألهني، والذين حاولوا لم يسمعهم أحد بسبب الخوف من كاتم الصوت من جانب والمغريات التي بذلها النظام بسبب الموارد الهائلة التي حصل عليها من تأميم النفط من جانب آخر (قدر احتياطي العراق قبل الحرب مع

ايران ب 100 مليارد دولار) وسيعمد النظام إلى نهب أرزاق ومدخرات العراقيين وإجبارهم على التبرع ذهبا لأجل استمرار حرب القادسية واحتلال الكويت. إذن ماهي الظاهرة الجديدة التي حكمت المجتمع العراقي ؟

دميقراطية أم تبعيث الثقافة

وضع النظام البعثي الشمولي وسياسة الحزب القائد والحاكم الاوحد (بعد استلام السلطة في انقلاب1968) الثقافة العراقية في مفترق طرق، حيث تصارع تياران في سياسة الحزب آنذاك هما: ديمقراطية الثقافة أم تبعيث الثقافة ؟

وبلا أية مسؤولية تأريخية انتصر التيار الثاني، فحتم تغيرا جذريا في الحياة السياسية والثقافية حيث تكثف التمايز بين العراقيين في الوظيفة، والامتيازات، والمستقبل والمصائر وحتى سبل الموت. وتركزت أيضا فكرة العراقي النموذجي (البعثي المتكيف) والعراقي غير النموذجي (غير المتكيف) الذي يجب ان يعاقب ويحرم من عراقيته أو زوجته الأجنبية او ملكيته في بغداد (اذ كان في المنفى او يسكن المحافظات). وتم التمايز أيضا في المؤسسات التعليمية وخاصة في شروط القبول في الجامعات العلمية و الفنية (معهد واكاديمية الفنون الجميلة وغيرها) حيث كان الشرط الحاسم في القبول هو الانتماء السياسي للحزب الحاكم والتكيف مع النظام وليس المؤهلات الفنية (وبخلاف الكليات الاخرى فان هذا المجال لايمكن ان يستقيم الا من خلال القدرات الابداعية). وقد ادى هذا الى ان يحكم الاستثناء القاعدة. فامتلأت الأكاديمية ومعهد الفنون الجميلة بالجهلة وطلبة المعدلات الضعيفة الذين رفضوا من الكليات الاخرى، إضافة الى رغبة الكثير منهم كانت للدراسة في اختصاصات اخرى غير الفن. وارسلت دوائر الامن والمخابرات عناصرها للدراسة الفنية والاعلامية من الذين ترغب هذه الاجهزة باستخدامهم في شتى المؤسسات الاعلامية كالاذاعة والتلفزيون والفنية ...كالمسارح والنشاطات الاخرى .... الخ، وتعرض الطلبة الى حملات المضايقة والتحقيق في غرف خاصة. وبدأت حملات متقنة لطرد المثقفين غير البعثيين من المؤسسات الثقافية والاعلامية والفنية وملاحقتهم (وكان يقود هذه الحملة من خلال سياسة البعث بشخص طارق عزيز ومحمد سعيد الصحاف).

ونكاية بالشباب عموما ومن أجل ترويضهم وتدجينهم بلا استثناء، اتبع النظام في البداية اساليب ووسائل تدجينية لا تثير الراي العام بل تكسبه الى جانبها (من منطلق المفهوم العشائري والأبوي الذي يعاقب الشباب غير المتكيفين في مؤسساته أو مع العرف العام، لمنع الفتيات من إرتداء الملابس الملونة مثلا أو إطلاق الشباب لشعورهم ـ بالرغم من ان العرب في ازمنة قديمة كانوا يطلقون اللحى والشعور ـ وسيتطور هذا العقاب العلني الى قطع الآذان أو الانوف أو الأيدي وسمل العيون ..الخ ، ومورس هذا حتى اللحظات الاخيرة قبل سقوط النظام). وأصبح في مقدور أي شرطي أمن او مسلكي سحل المثقف او الفنان او أي عراقي من شعر رأسه بلا سبب فقط لان هيئة هذا الكائن لا تعجبه. وبدأت حملات جز الشعر الطويل وصبغ أقدام الفتيات لإثارة الخوف والرعب بين الشباب، وكوسيلة لاقتناص الجميلات منهن باعتبارهن مسببات ومباحات لاصحاب الدماء الباردة والضحك الغليظ من ابناء واعوان وعشيرة راس النظام وأزلام السلطة.

إضافة الى تجريب شتى مختبرات التدجين الأخرى بدأً من فرض العقوبات والاتاوات على المارة أثناء عبورهم الشوارع خطأ (غير المنظمة أصلا)، الى المنح المالية وتوزيع السيارت والأراضي والبيوت على المرتزقة من المثقفين الكتبة والاعلاميين العراقيين والعرب اوالاجانب وتمويل صحف ومجلات مرتزقة، وانتهاءً بهدر أرواح العراقيين، وإذابة أجسادهم بالتيزاب او في المقابر الجماعية أو على يد أبي طبر.

وتمت المهزلة عندما انعكس الرعب الشارع العراقي اليومي على حياة الناس بفضل حفلات القتل التي كانت تمارس ليلا في بغداد وبعض المحافظات، والتي نفذها ما أطلق عليه آنذاك (أبو طبر) ذلك القاتل الوهمي الذي غزا بغداد فجأة حد العبث بجثث الضحايا من العوائل الآمنة المعروفة وممارسة أبشع طرق القتل المستوحى من افلام المافيا (حيث كان

يقتل ضحيته بالفأس)، ففي إحداها وضع رأس الضحية في مزهرية، وفي الآخرى وضع في ثلاجة لإثارة الكثير من الرعب، اضافة الى ان القاتل كان لديه الوقت الكافي لاستخدام ثلاجة الضحية، يأكل ويشرب الخمر باسترخاء وقد يقضى ليلته حتى الصباح هناك. ولم تنم بغداد ليال عديدة، حيث يتجمع سكانها ليلا أمام البيوت يشربون الشاي والقهوة وجميع غرف البيت مضاءة خوفا من النوم الذي يقلقه القاتل السري (ابو طبر). وكانت الاذاعة والتلفزيون تزيد من رعب الناس من خلال إطلاق الاشاعات واصدار البيانات والتعليمات في كيفية مواجهة القدرة الخارقة والامكانيات السوبرمانية للقاتل في فتح الابواب وتنوع طرقه في ممارسة جرائمه مما يحبك التمثيلية المخطط لها .

وفي الوقت الذي (أرعب ابو طبر) الشارع العراقي وأقلق نوم العراقيين البهي فوق السطوح، فان المصارع **عدنان القيسي** ساهم في اللعبة المركبة بعد ان جلبوه بعقود مغرية من أمريكا حيث كان يعيش فيها كمهاجر، ليصرع جميع " شقاوات " المصارعة الأمريكان والأوربيين. فأوهموا الناس ببطولة كاذبة ينتصر فيها عدنان القيسي على المصارعين المستوردين باتفاقيات خاصة أيضا. لذلك فان الشارع العراقي كان مشغولا ببطله من خلال متابعة مبارياته الحية أو مشاهدتها في التلفزيون نهارا وليلا وفي كل مكان، في الشوارع والمقاهي والبيوت داعين الله بالانتصار له والخروج بمظاهرات مؤيدة يقودها رجال المخابرات حتى حلبة المصارعة، وتخاصم بعضهم بعد المراهنة على نتيجة انتصاره ووصل الأمر إلى حد القتل.

آنذاك قلما ترى بشرا في الشارع ساعة المباراة، فاصبح عدنا ن القيسي محقق أحلام الشعب في البطولة الوهمية والانتصار على أبطال مزيفين، واصبح كذلك أمل النظام في تخدير الناس وإبعادهم عن التفكير بمخططاته و التصفيات الجسدية للأعداء السياسيين التي كانت تنفذ كل يوم في عموم العراق ومؤامراته العربية واتفاقاته السرية لنهب ثروات العراق، وفي ذلك الزمن كان دجلة والفرات يعوفان جثثاً مشوهة لأعضاء من حزب الدعوة او الشيوعي او الاحزاب الاخرى او من الشيعة عموما. وفجأة ظهر ابو طبر مبتسما في التلفزيون للاعتراف بجرائمه بطريقة سخر فيها من العراقيين. واختفى عدنان القيسي فجأة كما انبثق بعد ان تقاسم مع شركائه أموال العراقيين فلم يذكره احد حتى الساعة. وسيكون الهول اعظم في مستقبل الايام .

سرقة الزمن الابداعي

وفي لحظة التأمل اكتشف العراقيون بانهم كانوا مختبرا لدراسة ردود افعالهم السايكولوجية إزاء ماسيحدث من حروب وخراب منظم مستقبلا. وكرد فعل لكل ما كان يحدث انتمى الكثير من المثقفين الستينيين او أعادوا ارتباطهم الحزبي من جديد مع الاحزاب اليسارية التي كانت تمارس حياتها خارج السلطة. لقد سرق النظام العراقي زمن العراقيين وبالذات الزمن الابداعي للجيل الستيني والاجيال اللاحقة. اما المعارضة السياسية عموما فقد تخلت عن المثقف الستيني في زمن كان فيه مجال لرفض السياسة الثقافية قبل ان تنغلق الدائرة، وبهذا فانه وضع أمام المثقف خياريين:

اما قبول الهزيمة السياسية و الابداعية وتعميق الشعور بفقدان الكينونة الثقافية والقبول بالواقع السياسي والثقافي الراهن، الذي تتحكم فيه السياسة الثقافية البعثية.

او اختيار المنفى والتشرد كهروب وحلا موقتا.

ان المثقف الستيني وعى مأساته المستقبلية في ظل النظام الدكتاتوري فلم ير أمامه سوى اللجوء التراجيدي للمنافي. لانه شعر بان هذه الحياة ستنتهي بكارثة مخيفة عندما هجس الخراب الذي سيعم العراق الذبيح في المستقبل، الذي خططت له الدكتاتورية الفاشية، ولم تعطِ المعارضة لجيل الستينات شيئا سوى وسادة الحذر. جيل متمرد حاولوا الغاء دوره التاريخي فاصبح محكوما بالمنفى الابدي، جيل رفض مثقفوه الفردوس المدنس من اجل تمرده الابداعي . جيل فرض على مثقفيه الهروب نحو وهم قد يبدو منطقيا، نحو الضفاف الاخرى من العالم، من اجل تماسك الذات. فالمثقفون العراقيون عموما اعتبروا منفاهم انقاذا مؤقتا لهم من المحرقة الجماعية ، لكن المنفى بدا وكأنه أبديا في روح أجيال

كاملة سرق منها زمنها الإبداعي أيضا، تلك الجوهرة اللازوردية التي لن تعوض، ولكن بعد سقوط النظام لابد للتمرد الثقافي ان يظهر باشكال جديدة ضمن الثقافة المستقبلية الحرة ، وهذا ضروري ايضا ، لان هذا الأمر هو الذي يمكن ان يحول الثقافة من الآديولوجيا الحزبية او الطائفية الضيقة الى ثقافة عراقية . **وهذا يدفعنا للحديث عن سايكولوجية وسلطة المثقف المتفاعل** .

****

أوراقـــي !!!

قِصرَحيّة: محي الدين زه نكه نه

الأديب محي الدين زه نكه نه من مواليد 1940 في محلة (شاطرلو بكركوك) و تخرج في كلية الآداب/ جامعة بغداد قسم اللغة العربية عام 1962. في عام 1968 كتب قصته البكر (الجراد) التي تحولت لاحقا الى عمل درامي مهم. ومن جهة أخرى فان مسرحيته (السؤال) نقلته، مباشرة، من المسرح العراقي الى المسرح العربي حيث تم إخراجها في العديد من البلدان العربية. ومنذ بواكير حياته الإبداعية انحاز محي الدين زه نكه نه الى الفقراء والكادحين والمضطهدين فكتب العديد من النصوص الإبداعية التي تمجد هؤلاء، والمنجز الإبداعي للأستاذ محي الدين زه نكه نه ثري بما يحتويه من المجموعات القصصية والنصوص المسرحية، كما أن مسرحياته حازت على جوائز كثيرة داخل العراق وخارجه.

عثر الراعي "مام ويس" وهو شيخ طاعن في السن، ولكنه لايزال يحتفظ بقدر غير قليل من الحيوية والنشاط، على فوهة حفرة مطمورة الا بضعة أصابع، حينما كان يرعى أغنام أهل قريته والقرى المجاورة، على سفح جبل "ماوت" الذي شرعت الخضرة الباهتة، على الرغم من كل شيئ، تطل برأسها مع مقدم شهر آذار، في بضع بقع متفرقة متباعدة، هنا وهناك، بعد طول يبس وجفاف ومحن، اذ كانت الحرب الحارقة الطويلة قد أحالته ضمن ما أحالت من أراضي كردستان الخضراء ومراعيها اليافعة وينابيع مياهها المتدفقة الى أرض قاحلة محروقة، لاعين ماء ولا عشبة خضراء،

في أية بقعة طالتها المواد السامة. أيكون حيوان ما قد حفرها بحثا عما يقتات، تساءل مام ويس، واذ لم يوافه الحظ .. تركها وراح ينشد أمكنة أخرى قد يكون حظه فيها أفضل؟

غرز فيها عصاه فوجد أتربتها رخوة هشة، ولكن رائحة ما أنبثقت من بين طياتها. ربما يكون الحيوان هو الآخر، قد أدركها بحكم غريزته ونفر منها ولم يرهق نفسه كثيراً!!

أثار الامر فضوله وبدأ يحركها بطرف عصاه، فأستجاب له التراب بسهولة ويسر، مما دفعه أن يواصل الحفر ويحمل الاتربة والحصى بيديه ويفرشها على اطراف الحفرة التي كانت تتوضح كلما يتوغل هو وعصاه أكثر، ببطء يتناسب وسنوات عمره التي قاربت الثمانين..عاماً. أو تجاوزت ذلك، أو ماتزال دونه. ما أدراه على أية حال، فلا أحد في قريته يحفل بمثل هذه الامور.. هي أيام أو سنوات.. أو عقود.. تمضي.. بلا حساب ولا أهتمام.

كلما حفر أعمق صارت الحفرة تستجيب له أسرع وعمقها يزداد أكثر، حتى لم يعد بوسعه المكوث في مكانه على الحافة طاوياً جذعه ومواصلة الحفر وحمل الاتربة بكفيه الهزيلتين.

فكر هنيهة ثم أستعاذ بالرحمن الرحيم وبسمل وقرأ سورة "آية الكرسي" فأحس بأنه قد تطهر الى حدّ ما من هواجسه ومخاوفه التي كانت اجنتها تتشكل في داخله وتتناسل.. و.. قرر أن ينزل فيها. إلا أن الرائحة الغريبة التي لايعرفها والممزوجة برائحة التراب التي يعرفها جيداً. هاجمته بقوة وصدته.. وكادت تحمله على التقيوء والتوقف عن الاستمرار.. وترك الامر كله. ومغادرة الحفرة.. مثلما فعل ذلك الحيوان المجهول من قبل.

الا ان فضوله الذي شرع يقوى ويشتد، يسمره في مكانه، ودفعه الى مواصلة ما بدأ به وباشره. وشحنه بأمل ان يكون ثمة شيء ما مدفون تحت الاتربة، وهذا الشيئ، دعا في سره، ان شاء الله لن يكون شراً أو.. ضاراً. بعد أن طمأن نفسه وشحنها ببعض القوة والامل.. شرع يحفر أعمق وبهمة اكبر، وبين الفينة والفينة يستقيم ويرنو الى أغنامه، واذ يراها سارحة ترعى يعود الى اشباع فضوله المتصاعد وتلهفه المتعاظم الى معرفة الشئ المخفي في الحفرة..

وعندما غاصت أنامله في الاتربة بسهولة أكبر، ترك عصاه جانباً وأخذ يحفر بكلتا يديه.. ولكنه سرعان ما توقف حين لامست أطراف أصابعه، أو أصطدمت بشئ صلب.. صلد.. فكر.. أهو حجر؟ صخرة؟ ماذا يكون ياربي..؟

سحب يده بسرعة وأرتد الى الوراء خائفاً؟ أنتابه هاجس مفاجيء.. أنه..أنه.. رررأس..و.. قد يكون رأس أنسان. أنسان؟؟ وأرتعد.. وأخذ يرتجف.. ولكي يتأكد من هاجسه..أو..أو يقضي عليه ويلاشيه.. لم يجد بداً من أن يلمس الشيء مرة أخرى.. فمد نحوه.. يداً مرتعشة..لا..لا شعر يكسوه..وو.. ليس ثمة نتوءات..ولاتعرجات..أو..أو..انه..نه..أملس..أملس تماماً.. حتى أكثر من الرأس الأصلع..أأيكون لأحد..أبناء القرية..مـ ..مـ ..من مقاتلي البيشمه ركة؟

شعر بضيق شديد، وأحس بأنه يوشك أن يختنق.. وينهار.. فتماسك بصعوبة بالغة وأخرج رأسه من الحفرة.. وأستنشق الهواء ملء رئتيه.. وأنتعش نوعاً ما، ونسي ان يرسل نظراته خلف أغنامه كما أعتاد أن يفعل كلما أخرج رأسه من الحفرة.. سيطر عليه هلع شديد أيكون قد دخل مقبرة جماعية.. من المقابر التي تطبق على رفات العشرات من الشباب، في طول البلاد وعرضها؟ أيعني.. ذلك أن ثمة رؤوساً او او.. جماجم بشرية أخرى..؟

يتوجب عليه أن يخرج.. أن يغادرها ويسرع الى القرية.. ويعلم كل من يرى.. ليهرع الى مساعدته..

وفعلاً أستند على جانب من جوانب الحفرة.. بكل ثقله الخفيف، فأحس كأنه يمسك بجدار..أو بقايا جدار مبني بشكل محكم.. اذن فهو..سو.. سوبير..او..او.. موضع.. أو خندق.. وان من كان يحتمي به ويقاتل منه، قد قتل فيه.. وأنهالت عليه أتربة التلول المهشمة التي تحيط به..و.. وليس فيه سواه.. وقد يكون! من يدري؟ وأنى لي أن أدري..؟

سأل "سيامند"، ذات مرة، كيف تقفون في العراء تحت وابل الرصاص. لسنا في العراء، أجابه حفيده، أننا نحفر في الارض، مثل حيوان الخلد، حفراً عميقة نختبيء فيها.. يعني.. يعني.. سوبيرات..؟؟ لا.. لا.. أصرّ الحفيد، خنادق.. هناك في الجيش يسمونها "خنادق". اذن فهو الآن في أحد هذه الخنادق وأن أحداً ما مدفون هنا! وأنه.. أنه.. أقصد.. أن جثته قد تعفنت.. وهذا هو سر هذه الرائحة التي تقوى وتشتد كلما توغلت أعمق.. وربما هو أحد أبناء القرية التي كانت متسلقة سفح الجبل، والتي لاشتها الحرب المجنونة ودفنتها بكل من وما فيها، من بشر وشجر وأنسان وحيوان..و..وقد يكون.. يكو.. يكو..

لم يجرؤ أن يقول حفيده.. الذي دفعته الحكومة، قبل ثلاثين سنة، الى المحرقة، لقد أنتزعه الكفار من أحضان عروسه، في الاسبوع الاول من زواجه، والقت به بين فكي رحى الحرب الطاحنة.. ولكنهم قالوا أن "سيامند" في الجنوب.. والجنوب هذا بعيد. بعيد جداً.. فما الذي أتى به هنا؟ أيكون قد فر من الجيش والتحق برفاقه البيشمه ركة.. مثلما فعل معظم شباب كردستان..؟

لا..لا..لا.. هز رأسه بعنف كمن يطرد ذبابة لحوحاً التصقت بنقطة دبس على صفحة وجهه.. وهو يصرخ بأعلى صوته ويكرر لا..لا..لا.. يريد أن يسمع الدنيا كلها صراخه ونفيه الجازم.. ولكن صوته المخنوق لم يغادر شفتيه ولم تسمعه حتى اذناه.. ومع هذا ظل ينفي عنه هواجسه السود بأصرار قوي مشوب بقلق وأضطراب..و.. وشك. لقد قالوا له أنه أسير وأنه سوف يعود ذات يوم، بعد أن تضع الحرب أوزارها..

وأنتهت الحرب، ولكن المآسي والفواجع التي خلقتها وخلفتها وراءها ماتزال حية قائمة في كل مكان لاتخلو منها بقعة واحدة.. والقتلى قد عرفوا.. والأسرى عاد معظمهم، وهم أشبه بموتى أخرجوا من قبورهم.. وبقي ثمة عدد غفير ممن أسموهم بـ "المفقودين" من الذين ضاعوا.. مجللين بأوهام الآباء والامهات وآمالهم.. ودعواتهم.. أنهم عائدون ذات يوم.. بيد أن أحدا منهم لم يعد.. ولن يعود..

"سيامند" لم يعد وأبنه "شوان" الذي زرعه جنيناً في أحشاء زوجته قد غدا اليوم، بفضل الله وعونه، رجلاً.. وبعد بضع سنوات.. سيصبح طبيباً..و..و..اذاً؟

عاد يحفر برفق أشد.. ويزيح التراب بحنان أعمق.. عن الحجر..أو.. أو الشيء الذي لمسته أنامله وظنه حجراً أملس.. برهبة وقدسية.. ذكرتاه بالحجر الذي لمسه ولثمه في الكعبة المشرفة.. وصلى في داخله، داعياً ومتوسلاً أن يعيد اليه حفيده وكل الاولاد الذين لم يعودا حتى الان..سـ..سالمين!!

احتضنه بأنامله العشر بخشوع وهدوء.. وراح يقلبه على أوجهه ويمعن فيه النظر ويزيح عنه الأتربة بفيه وأصابعه بتأن وروية..آه.. ماهذا؟ م..ما..مـ..مـ.. ماذا أرى؟.. صعقه مارأى انه.. ذلك "الكلاو" الحديد.. الذي كان سيامند يخفي تحته رأسه.. كلما عاد الى الجبهة بعد أنقضاء اجازته القصيرة! و.. ماذا كان يدعوه.. ال..ال..خو..دا.. خودا.. لا..لا أستغفر الله ال.. الخوذة..أجل أجل الخوذة..

اذاً.. فثمة جندي راقد هنا.. أو.. أو بالاحرى جثته.. وهذه خوذته التي خانته ولم تحمه من الرصاصة التي أخترقتها، فكر، وهو يتحسس الثقب الذي دخلت فيه سبابته.

واصل الحفر والتنقيب بمزيد من الهدوء والتأني والرقة.. والحرص المتزايد في تجنب أي أذى أو خدش.. يمكن أن يسببه.. لهذا الراقد المسكين هنا.. الذي لابد أن يكون أحد الهاربين من أتون الحرب والعائدين الى كردستان للدفاع عنها وحمايتها.. من هجمات الاعداء..و.. قد يكون.. "سيامند".. نفسه الذي طالما حدثه.. بأنه سوف يلتحق بكل تأكيد بالجبل.. أول ما تتاح له الفرصة..او .. او ..يخلق الفرصة ..و ..و ..يهرب .

أو.. أو سواه.. ماالفرق؟ فكلهم سيامند وكلهم أولاده وأحفاده وليكن من يكون، غريباً.. أو حتى عدواً.. فهو أنسان.. وحرام أن يدفن الانسان على هذا النحو المهين، تحت الاقدام وحوافر المواشي والاوساخ والفضلات والقاذورات.

واذ تلمس العظام. أزاح عنها التراب بترو.. فبان الهيكل العظمي، الآدمي، مجروداً، كما توقع، من الجلد واللحم. توقف مسح بذيل عمامته البيضاء دمعه الذي انحدر من عينيه وأختلط بالعرق المتصبب من جبينه، ثم راح ينفخ بفيه. ينفض عنه الاتربة المتجمعة في تجاويف الهيكل وثقوبه وحفره العديدة..لا..لا.. أنه ليس "سيامند".. حفيده كان بذراع واحدة.. لقد بترو له ذراعه اليسرى التي تهشمت بعد أصابته. قالوا له انه الحل الوحيد اذا اراد أن يحيا حفيده.. وأرغموه بعد أن تماثل للشفاء ولما يبلغه .. أن يلتحق ثانية بفصيله!.. اه.. هذا.. شخص آخر الذراعان سليمتان. وها هما كفاه وأصابعهما العشر.. وها هما ساقاه..و..وما الذي جرى لك ياولدي؟ لعن الله القتلة أينما كانوا وقطع دابرهم في كل زمان ومكان بجاه كاكه احمدي شيخ..

لمح وهو يرفعه شيئاً تحته يلمع اذ تسقط عليه أشعة الشمس الآيلة الى الغروب، تناوله. نفض عنه التراب.. انه كيس مصنوع من نايلون شفاف.. فيه أوراق مكتوبة ظلت نظيفة وسليمة. أخفى الكيس والاوراق في "عبه" لابد أن فيها شيئاً.. وشيئاً هاما ولهذا حرص عليها الرجل هذا الحرص الشديد.. سيعرضها على شوان حين يعود من السليمانية حيث يدرس في الجامعة..

كفرة! كيف يرمى الميت هكذا .. بلا كفن.. ولا.. قال ذلك.. وهو يلفه بالقماش الذي يشده على رأسه.. ولم يكتفِ بذلك فقط، بل شرع يفك القماش الطويل العريض الذي يتحزم به و يلِّفه حوله .. واعاده الى الحفرة حريصا ان يجعل رأسه بأتجاه القبلة.. ثم أخذ يهيل فوقه التراب برفق.. حتى أمتلأت الحفرة وعلت عن مستوى الارض بعض الشيء.. فغرز حجرا عند الرأس وآخر عند القدمين..وبسمل.. وقرأ "الفاتحة" ثم صلى وقوفاً.. صلاة الميت على روحه.. وتوجه نحو أغنامه بعد أن رأى الافق قد أصطبغ بلون أحمر فاتح، لايلبث ان يتلاشى.. ويحل محله سواد الليل.. وعليه أن يعيد المواشي الى بيوتها.. قبل حلوله.. ويسرع الى البيت قبل عودة شوان من الكلية.. ليهيء مايأكلانه.

التقط عصاه.. وسار نحو الاغنام.. واضعاً كفه فوق قلبه حيث الاوراق. لم يسر سوى بضع خطوات، حتى ملأ اذنيه صوت أنهيار شيء، فجمد في مكانه وكان أول شيء بادر الى ذهنه أن القبر الذي أقامه قد أنهار..أو..أو.. تفلش، ولم يجرؤ أن يلتفت فقد تلبسه رعب شديد، أنبثق من داخله، أهتز له كل كيانه وأرتجف حتى أن العصا قد سقطت من بين أصابعه التي كانت تقبض عليها..رررربي..رررحمتك!!

ذلك كل ماأستطاع لسانه نصف المشلول أن ينطق به بصوت أخرس لم يغادر جدران فمه.. حانت منه التفاتة مشوبة بالخوف وهو ينحني لالتقاط عصاه.. فرأى القبر على حاله، حتى أن الشاهدين مايزالان في موضعهما.. كما زرعها قبل قليل. تغلب الى حد ما على مخاوفه.. وعاد الى القبر.. دار حوله.. كل شيء كما تركه.. اذن ماذا جرى؟ ماذا كان ذلك الصوت..؟ لعله..لعله.. توهم.. أجل.. لابد أنه توهم...او...او...او ... أسرع يصعد نحو أغنامه التي كان بعضها قد أعتلى الجبل.. بيد أن صوت الانهيار غزاه مرة أخرى.. أقوى وأشد.. فأرتعب وسقط على وجهه.. ومن فرط خوفه استمد قوة مؤقتة فنهض بسرعة.. وأطلق ساقيه للريح.. وحين صار على مبعدة.. حسب أنه قد نجا.. توقف لاهثا، متقطع الانفاس.. فرأى هذه المرة بوضوح.. ويالهول مارأى.. رأى كل مخاوفه متجسدة أمام ناظريه.. رأى بأم عينيه الهيكل

الآدمي، خارج القبر متجها نحوه.. سائرا في الهواء.. خطوات واسعة.. لاتمس قدماه الارض.. وهو يشير اليه بكلتا يديه السليمتين.. بل..بل.. وسمعه.. سمعه بوضوح، ملء أذنيه.. يصيح به:

"أوراقي.. أوراقي.. أوراقي".

جوفه الخوف وفقد كل قدرة على السيطرة على نفسه، تشابكت رجلاه، كأنهما شدتا الى بعضهما.. أو التصقتا ببعضهما.. وصارتا كتلة واحدة ثقيلة. لا تتحرك.. لثوان معدودات.. أو ثانية واحدة.. ظل يحدق به بعينيين جامدتين.. من زجاج.. لاتتحركان..لاترمشان..لاتنغلقان.. وفي لمح البصر صار الخوف صخرة سقطت عليه، فقدت ساقاه القدرة على حمل هيكله الفارغ الهزيل.. فتهالك على نفسه وتساقط على بعضه.. وأستحال كرة تتدحرج من علٍ الى أسفل الجبل بسرعة شديدة.. كما لو كان حزمة عاكول وحشائش متيبسة.. ركلتها عاصفة هوجاء. لم يستطع "مام ويس" أن يتوقف في انحداره من على سفح الجبل.. الا بعد أن أصطدم بأجمة كبيرة كثة من أعواد القصب الطرية والاعشاب النابتة على حافات "كاني سور" ولولاها لاقتحم القرية أمام أنظار الجميع.. وهو مايزال يتدحرج مثل كرة مصنوعة من الخرق.. تركلها قدم خرافية غير مرئية..

انتصب واقفا على قدميه بسرعة غريبة، متحاملا على آلامه وأوجاعه التي لم يشعر بها للوهلة الاولى.. فقد عطل الرعب الذي شمله.. من أن يكون.. الميت يلاحقه كل احساس فيه.. واذ غامر مرة أخرى وجازف بالالتفاف الى الوراء.. ولم ير سوى أغنامه تنحدر نحوه..تتبعه.. كما أعتادت أن تفعل كلما حان وقت العودة الذي باتت الحيوانات تعرفه غريزياً.. أطمأن مام ويس.. وسرى في روحه المرتعدة وهيكله الناحل المرتجف.. خيط من الراحة.. واعتقاد غير راسخ تماما" بأنه قد نجا..او..او.. ربما يكون قد نجا.. كما كان يأمل ويدعو في سره..و..و..ولكن..ولكن؟ ماكان ماجرى؟ و..وهل جرى ماجرى وحدث ماحدث.. فعلاً.. وحقيقة..؟ أم..أم.. قد توهم كل ذلك..وأن.. أن مخاوفه قد خلقته له؟.. ربما..ربما..كان الامر كذلك.. وطاب له أن يملأ نفسه بهذه القناعة.. بعض الوقت..

بيد أنه لم يلبث ان أنتفض على نفسه. فأنهارت قناعته وماكان يشحن به نفسه من أوهام.. وهو يكاد يزعق.. ولكني رأيته وسمعته.. رأيته ملء عيني وهو يشير الي..وسمعته ملء أذني وهويصرخ..أوراقي..أوراقي..أوراقي..لقد..لقد.. كرر نداءه.. ثلاث مرات..لامرة.. ولامرتين..

ترى ماذا في هذه الاوراق..؟ لـ ..لـ لعنة؟..أم..أم رحمة..؟ و..وهل.. ينبغي أن أعيدها..الى..الى..

خشي أن يقول اليه.. أو الى صاحبها.. وقال "الى هناك".. ولكن أنى له أن يقترب من "هناك" والرعب مايزال يملأه و يتشعب في داخله أخطبوطاً خرافياً بملايين الاذرع .. (لـ ..لـ .. ليس قبل ان يراها شـ ..شـ.. شو .. شواااا ...)

و قطع حواره الداخلي .. سؤال حادّ مثل السكين .. أخترقه من مجهول معلوم .. ملـ .. ملـ .. ملعوون "أ ..أ ..أ كان.. بـ.. بـ ..ذراعين ..ام بذراع.. وا..وا ..وا ... "و شلّه الرعب من الجواب المريع الذي حدسه و الذي ترتعد له فرائصه ..وكل ذرة من ذرات جسده الشائخ المفتت تفزع منه و لاتجرؤ على مواجهته .

استحال لسانه في جوف حلقه كتلة رصاص تأبى الحركة ..و لم تلبث الحالة ان تلبسته من قمة رأسه حتى أخمص قدميه .. و صار جسمه كله رصاصاً مكوّما ..لا تندّ منه حركة و لا نأمة و لا رعشة .. و أستحال في جلسته القرفصاء صخرة تدحرجت من أعلى الجبل .. و استقرت قرب نبع الماء .. لا ينبض فيه عرق ..و لا ترمش له عين ..و لا يصدر منه سوى أنين خافت يعجز عن بلوغ أذنيه هو ..

شرعت الخراف تتدحرج و هي تنحدر من الجبل ، متسارعة تزاحم بعضها بعضاً .. اذ أدركت بغريزتها ان وقت العودة الى حظائرها قد حان .. بيد أنها توقفت عند "كاني سور" كما أعتادت كل مساء ، تعبّ الماء ..و تلتهم الاعشاب الطرية النابتة عند الحافات

و بعد ان شبعت و ارتوت.. تيممت شطر القرية .. ولكنها تباطأت و توقفت عند "مام ويس" منتظرة ان ينهض و يقودها الى بيوتها ..غير ان "مام ويس" ظل في جلسته الجامدة ، يرنو الى حيواناته بعينين من زجاج ، بلا لون و لا شعاع ، مما دفعها ان تقترب منه ، تحسسه بان وقت العودة قد حان .. و لكن "مام ويس" ظل في سكونه الغريب غير حافل بها ..فاضطرت الحيوانات ان تتولى أمورها بانفسها فعادت أدراجها سالكة الطريق التي أعتادت ان تسلكها ..الى القرية ..ثم تتفرق اذ تبلغ بيوتها .. هارعة الى حظائرها ..و هي تطلق ثغاءها ..كانها تعلن عن تخلف راعيها .. و تبلغ أهل القرية بذلك ..

[غرفة متداعية الاركان محروقة الجدران. شوان في جمع من الناس. يجلسون القرفصاء على الارض. يصغون اليه، مشدودين بأنتباه شديد، الى مايقرأ. "مام ويس" مطرق صامت،جامد، لايحرك ساكناً.. كمن غابت عنه الروح. ولم يعد سوى هيكل فارغ من كل شيء. بينما تصدر من الآخرين آهات وتأوهات..وحركات. حسب مقتضى الحال] مدينة عامرة، تسري في مفاصلها حياة شاملة. حركة دائبة.. ناس غادون ورائحون.. أشجار باسقة..حدائق زاهية. عصافير تزقزق. طيور تغرد..الخ..الخ.. الكل في مرح وبهجة.. فجأة يطبق عليها ظلام.. يسبقه هدير طائرة مسرعة جداً.. يصيب الكل ذهول.

تتوقف الحركة.. يشمل الجميع رعب وترقب. ثوان يعلو الهدير بصخب عال. مرة أخرى..تعقبه ثلاث طائرات، تتهادى، وهي تحلق على منخفض تكاد تصدم الاشجار والبيوت. ترش بكثافة مسحوقاً أبيض، سرعان مايتشكل على هيأة غيوم رملية، بنية، رمادية.. تتصاعد الى الأعلى كتلا مجسمة. يطبق على المدينة ظلام كثيف.. ثم يخف وينقشع رويداً رويداً.. يغدو الناس في هلع وذعر شديدين يتراكضون بمختلف الاتجاهات والسبل.يصطدمون ببعضهم..بالجدران..بأعمدة الكهرباء..بالمركبات المتوقفة، بكل مايصادفهم.. يتساقطون على بعضهم.. كذلك تغدو الطيور والمواشي.. في فزع هائل.. الكل يتكوم على الكل.. تصحب كل ذلك أصوات أستغاثة وصراخ وعويل، من كل حدب وصوب، مختلطة ببعضها.. الاشجار وحدها تبقى واقفة لثوان.. ثم تتهاوى على عروشها كأن نيرانا بركانية تلتهمها.. ثم تلفظها.. كتلا من الفحم.. وتنفخها هواء أسود وغيوماً داكنة واذ ينكشف الظلام بعض الشيء.. تبدو سائر الموجودات من بشر وحجر وطير وشجر.. قد غدت أكواما من الفحم.. وتفترش المدينة جثث مقطعة الاوصال وحيوانات نافقة وعصافير محترقة.. لقد فرغت المدينة، التي كانت قبل دقائق ضاجة بالناس والحركة. من كل معلم من معالم الحياة..تماماً.

تظهر كلبة عمياء حبلى، تلهث، تفاجئها آلام الولادة، تتخبط على غير هدى.. تصطدم بأحدى أكوام المحروقات المتفحمة.. تحتمي بها.. تطلق عويلاً حاداً متواصلاً. تتلوى تقذف جراءها، خمسة جراء صم بكم عمي. تتزاحم على التعلق بأثداء الأم.. التي تظهر عليها الراحة بعد العناء الشديد. تلطع جراءها بحنان. تغسلها بلسانها. تستكين لحالة الرضاعة. صوت قذيفة هائل.. تتفرق الجراء عن الام، تتشتت. الأم تبحث عنها كالمجنونة. هنا وهناك.. تصطدم بالاكوام.تسقط. تنهض.تسقط.تركض.. تصدر أصواتاً خافتة.. تبحث عن الأم.. تصطدم ببعضها..تنهض..تدور في دائرة ضيقة. الأم لاتتوقف عن النحيب والبحث. تضيع خلف أحدى الاكوام.. وهي تئن أنيناً موجعاً..متواصلاً..

يظهر عسكريان بملابس مرقطة. مدججين بمختلف أنواع الاسلحة. بندقية رشاشة.رمح.سيف.بضع قنابل..الخ..

الاول: يفتش هنا وهناك، بشراسة، أما يزال ثمة أحياء في هذه البلدة المذبوحة..(يطلق رشاشه في كل مكان ويواصل البحث).

الثاني: " يرى الجراء متكومة على بعضها.يهرع نحوها بلهفة" الله!! جراء.. مواليد اليوم وربما الساعة " يرفعها بحنان" آه.. انهن عمياوات.. يالهي. (يمسح عليهن برقة) سأخذهن لولدي (يضعهن في حضنه. يدخل أصبعه في حلق جرو).. جوعان..آه ماأشد جوعه!! ألم تطعمك أمك (يتلفت) ولكن أين هي؟ ماذا حل بها..؟

الاول: (يهجم على زميله بجنون أهوج. يركله بقسوة. تتساقط الجراء على بعضها)، ماهذا يارجل؟ هل أنت مقاتل صنديد أم حرمة مرضعة؟ (يصلي الجراء كلها برشاشه. يعلو أنين الأم الموجع، أشد مايكون وجعاً) هيا..هيا..نبحث عن أحياء آخرين!!

الثاني: (بالم وحزن) أحياء؟..لقد أحترق حتى الجبل..

الاول:(بهياج أشد) جبل..حجر..شجر..ماء..هواء..كلها أهداف.كل شيء في هذه المدينة الخائنة هدف (يهم الثاني أن يتكلم. يسدد نحوه رشاشته) أخرس. تلك هي الاوامر.. لاهمسة من مخلوق. ولانسمة من هواء. كل شيء ينبغي ان يموت.. أن يتوارى من الوجود هيا..هيا (يدفعه أمامه بعنف، يعود يسحق أشلاء الجراء المقتولة ببسطاله الضخم)

أنين الكلبة يعلو. تخرج من مخبأها.. تزحف بحثاً عن أولادها.. تعثر على كومة أشلاء مسحوقة.. يستحيل أنينها عويلاً ونحيباً وبكاءً فاجعاً.. تجمعها بيديها.. تدفعها تحت أثدائها.. تظهر أتان عمياء.. تصطدم باكوام الفحم تتراجع.. يدخل جحش صغير.مولود لتوه.. يتحامل بصعوبة بالغة على قوائمه القصيرة الهزيلة يلهث متقطع الانفاس، يبحث على غير هدى عن أمه.. انه هو الآخر أعمى.. الام تنهق. تناديه من غير جدوى.. صلية رشاش قوية تصيب الاتان. تسقط. مضرجة بدمائها.. تتخبط هنيهة في بحيرة الدم.. ثم تخمد.. الجحش يسقط هو الآخر، على مقربة من الكلبة.. تزحف الكلبة نحوه.. تضع ثديها في فم الجحش.. الجحش يرضع.. ينتشي.. تدب فيه الحياة. الكلبة تتمسح به برفق.. تلطعه برقة.. تنتشي.. هي الاخرى..

الثاني: (يدخل في هياج شديد، شاهراً رشاشته.. يطلق في الاتجاهات كلها) لقد أصبته.. بحمد الله وفضله.. أصبت هدفاً..

الاول: (يتبعه بألم وحزن) حيوان.. أنه مجرد حيوان مسكين (يقف عند بركة الدم)

الثاني: (في هيجانه) حيوان.. أنسان..نبات..جماد..حي..ميت.. الكل هدف (يواصل بحثه في جنون) أين هو؟ ماذا حل به؟.. أخشى أنه مايزال يتنفس. ينبغي الاجهاز عليه قبل ان يهرب ويعود الى صفوف الأعداء..أين هو؟ أين (يطلق رصاصاته بصورة عشوائية)

الاول: (يندفع نحو الجحش، بتعاطف) آه..ياالهي..ماأغرب هذا!.. كلبة ترضع جحشاً.. قادر على كل شيء قدير..آه..والجحش..الجحش الصغير..ماأجمله..سأخذه هدية لولدي..

الثاني: (بحدة وتهور) لن تأخذ شيئاً حياً من هذه المدينة المقتولة.. كل شيء فيها الى الفناء.. كل شيء الى الدمار.. كل الى الاندثار (يصلي الكلبة والجحش برشاشته، تتدفق دماؤهما تختلط بدماء الاتان.. يملأ كفيه.. بالدم يعبه.. بشراهة..ونشوة..ينهار الاول..يهم أن يتكلم تسبقه دموعه).

الاول: (من خلال دموعه) ح..ح..حيو..انه..أنه..مجرد..ح..ح..ح..

الثاني: (يركله بقوة) أخرس.. تبلغ بك الوضاعة.. أن تندب حيوانات العدو.. هل أنت محارب بطل أم حرمة ندابة..هيا..هنا.. نعثر على أهداف أخرى..

الاول: (منهاراً) اخرى؟ وماذا بقي في هذه المدينة البائسة التي احترقت حتى مياههها.

الثاني: أشياء وأشياء.. أهداف وأهداف.. كل حي أو ميت هدف.. متحرك أوجامد هدف..الضحك هدف..البكاء هدف..هيا..هيا..لاتتخاذل (يدفعه أمامه بوحشية.. يعود يصلي الجثث بصليات عديدة..تتطاير اللحوم المثرومة والعظام المفتتة في كل مكان.. يلتقط بضع قطع من اللحم.. يأكلها بلذة عارمة..يخرج)

[الغرفة المحروقة.. وجوم وذهول يطبقان على الكل.. يبدون أشبه بموتى خارج قبورهم، لاصوت، لانأمة، لاحركة، جمود تام، أحدهم يمزق الصمت..يتبعه آخرون]

ـ ماهذه الاوراق؟

ـ أوراق؟ أهي أوراق. انها قنابل.ألغام ..سكاكين.. تجول في أحشائنا.

ـ (صوت هاديء) مرايا..انها..مرايا..

ـ تحطمت أعصابي .لم أعد اطيق المزيد. أنا خارج..خارج أتنفس هواء قبل أن أختنق؟

ـ (صوت مفجوع) كف ياشوان.كف عن ذر الاملاح على جروحنا الندية التي لم تندمل

ـ (صوت أقوى) ولن تندمل.. واصل شوان واصل. ضعنا امام أبصارنا وأنفسنا عراة..عراة..

(شوان يعود الى تقليب الأوراق.اذ يسود الصمت.. تعلو خرخشة ألأوراق)

[عراء. لاشيء فيه سوى مرتفع من الارض على شكل دائرة غير منتظمة. تتوسطه كتلة بحجم مناسب. فوق سطح دائري متحرك. يدور حول نفسه ببطء أو بسرعة حسب المطلوب. وتدور معه بالضرورة الكتلة. التي لايمكن تحديد شكلها. يتسلط ضوء قوي عليها. ثم يبهت. يتغير الضوء، تتغير تغيرات عديدة وتتلون الواناً عديدة مألوفة وغريبة.. تتغير معها أشكال الكتلة وتتبدل.. تتخذ صوراً شتى. وهيئات مختلفة عديدة متباينة جداً. قنفذ داخل في نفسه. أشواكه رماح وسيوف وسكاكين وخناجر. ثم شجرة بلوط كثة الاوراق والاغصان كثيرة الثمار والعصافير.. فجأة تتساقط الاوراق والاغصان.. العصافير تحترق في أعشاشها.. بعضها يتطاير.. تلاحقها السنة النيران.. فتتساقط محروقة. تغدو الشجرة تنوراً مسجوراً تتصاعد منه روائح خبز محترق.. سرعان ماتستحيل الى روائح أجساد بشرية. شبح ما.. ضخم هائل الضخامة يلقم النيران المزيد من البشر، أطفال.نساء.رجال.شباب.شيوخ الخ..الخ.. يصبح الشبح مجموعة جرذان تلتهم اللحوم المحترقة.. يتحول التنور الى قبعة عسكرية. خوذة. بيرية. كاسكيت. سدارة. ثم عمامة سوداء. ثم خضراء. بيضاء. حمراء. صفراء.. ثم چراوية..ثم الى عقال..شدة رأس نسائية..جبة ملالي..عباءة للجنسين..أمرأة عارية ترضع طفلاً، آية من الجمال، من ثديها الوحيد.. الذي هو قذيفة هاون ضخمة نابتة من منتصف صدرها. تعصر ثديها/القذيفة، بأصابع طويلة، خارجة من يد آلية، يتدفق منه، بدل الحليب، نفط أسود، داكن ثخين مثل القير المصهور.. تتقدم فأرة بوجهين، أحدهما للعسكري الاول والآخر للعسكري الثاني.. تنتزع الطفل من المرأة التي تعيط وتولول.. بصوت أشبه بقراع السيوف.. العسكريان يشقان الطفل الى شقين كل فم يمضغ ويفترس أحد الشقين. يسيل من الطفل دم غزير جداً.. يستحيل الى بحيرة مليئة بأسماك ملونة زاهية توشك أن تختنق.. تطل برؤوسها من البحيرة. تتحول الرؤوس الى وجوه بشرية وحيوانية، بأسنان طويلة حادة.. لاتلبث أن تتطاحن فيما بينها، بلا سبب ظاهر، تتساقط الاسنان من الأفواه. يبرز

شيخ أدرد.. يلتقط أفاعي برؤوس ضخمة.. يلقيها في جوفه، الذي يشبه مغارة عميقة الغور.. بيد.. وبالاخرى يقبض على مجاميع من جراد أخضر وأسود.. ثم يطلقها على رجل أنيق جالس الى مائدة عامرة، يحتسي الخمر.. يحيط به الجراد، يشاركه الوليمة. وهو يهش ويبش.. واذ تفرغ محتويات المائدة، يقضم الرجل القناني والكؤوس ثم يهجم عليه الجراد ويفترسه ويلاشيه. ثم يتطاير أسراباً..أسراباً.. تسد الافق تستحيل الكتلة الى جردل تقفز منه عقارب وثعابين وزنابير وفراشات ملونة وطيور الحب وبلابل مغردة. ثم تتحول الى دبابة عملاقة تطلق قذائف وصواريخ بكل الاتجاهات. أصوات مبان تتهدم..تنهار..تتخللها صرخات وأصوات بكاء ونحيب.. تختلط معها أنغام موسيقية صاخبة جداً. وغير متناسقة وفي نشاز مقرف. مؤذ للأعصاب والذوق.. ثم تصفو وتصبح سيمفونية رقيقة (بحيرة البجع مثلاً) تظهر كائنات جميلة..رقيقة.شفافة. بألوان زاهية..ترقص بجمال أخاذ وأداء رائع.. ثم تتحول فجأة الى خنازير مجللة بغائطها وقاذوراتها يسحق بعضها بعضاً بعدوانية وشراسة.. وشبق. كأنها تمارس هواية من هوايتها المحببة، أو طقساً من الطقوس البدائية.. التي يجب عليها أن تؤديها.. وتمارسها بطاعة تامة..تتحول الكتلة الى طبل ضخم يضرب عليه مجموعة من أكلة لحوم البشر بعظام الارجل والاذرع المجرودة من اللحم.. يتمزق الطبل.. فتتقاتل.. المجموعة بوحشية.. يفترس بعضها بعضاً. يأكل الكل الكل.. ثم تتحول الكتلة الى كرة ضخمة، ترسم عليها خارطة العالم بأسره.. بالألوان الطبيعية.. تدور حول نفسها بسرعة. ثم تنقسم الى نصفين متساويين تماماً.يدخلان في صراع دموي وقتال ضار فيما بينهما. يتفتت كلاهما الى أجزاء صغيرة.. تتحارب فيما بينها بضراوة ووحشية.. تفنى الاجزاء كلها.. وتتساقط أشلاء متقطعة.. تتماسك فيما بعد وتستحيل الى أجنة في أرحام.. تشبه بالونات الهواء، نفاخات الاطفال، .

ترتفع فوقها أعلام دول العالم كلها. سارياتها مغروزة في جماجم بشرية..وحيوانية معاصرة، غزلان. يمامات. أسود. نمور. ومنقرضة.. ديناصورات..ماموثات..خراتيت..الخ..الخ..مرسومة عليها صور الرؤساء والحكام والملوك في سائر الدنيا.. منذ عصور ماقبل التاريخ.. حتى اليوم ومابعد اليوم.. الى جانب المجرمين والقتلة والسفلة وصور الانبياء والرسل والاولياء والحكماء والفلاسفة والفنانين والشعراء والثائرين، على مر التاريخ، مؤطرة بزهور في غاية الجمال والرقة.. مختلطة بالاشواك والعاقول والاحراش السامة.. تعتلي كل ذلك سحائب وغمائم تتراءى خلالها الالهة من أقدم الازمان.. ووسطائها من الأنصاب والاصنام والاوثان.. وفوق كل أولئك غمامة داكنة، متشكلة على هيأة كائن خرافي، لم ير أحد له مثيلا قط، جانب منه يمثل وجه كيوبيد(اله الحب) يحمل سيفاً يسيل دماً.. تتساقط منه الجماجم. الجانب الآخر منه.. لمخلوق في غاية البشاعة والقبح.. ومرعب الى ابعد حد.. يحمل بيده غصن زيتون.. ويلوح به بحماس..

صوت: "مضخم جدا" أوراقي..أين أوراقي؟ (تتردد الصدى) راقي..قي..ي..ي..ي.

" يقتحم الهيكل المجلس. دون ان يعرف احد كيف دخل ؟.. او من أين يصيب الجميع شلل في العقل والفكر واللسان"

الهيكل: أما تزالون قابعين هنا؟ يانفايات المزابل الموبوءة؟ ياقاذورات البالوعات المجرثمة!؟! ماأنتم؟ أحياء بلا أرواح ولادماء؟ أبول عليكم جميعاً (يمد يده الى منتصفه يريد أن يبول عليهم فعلاً.. ولكن لاتنزل قطرة) فارغة.. مثانتي نشفت.. لقد رششت به، قبل هنيهة، وجه القمر المجدور القبيح الذي مايزال، على الرغم من كل شيء، يرنو الى العالم بوقاحة ولايتوارى خجلاً.. ولكن لدي مايليق بكم.. وتستحقونه بكل جدارة (يبصق عليهم) تفووووو عليكم.. تفووو (تتردد الصدى بقوة وصخب من كل مكان) تفووووووووو.....

" يخرج مثلما دخل ..دون ان يعرف أحد كيف ؟.. أو من أين ..؟ يظل الجميع في جمودهم التام ..يبدون مجموعة جثث ..في مقبرة جماعية .."صوت خافت ..مرتجف ..مفتت :

أ.. أ..أ..كان ..بـ ..بـ..ذرا ..عين .. ا ..ا..أ..م ..بـ ..بـ..ذرا .....

السليمانية 12\3\2010

قراءة في النص المسرحي العراقي

أطياف رشيد

أطياف رشيد من مواليد بغداد في عام 1969، بكالوريوس أكاديمية الفنون الجميلة- قسم الفنون المسرحية، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، لها مجموعة شعرية بعنوان: لا املك اجنحه .. لكنني احلم. شاركت بمهرجانات أدبية داخل العراق. تكتب أطياف رشيد في النقد المسرحي، ونشرت في هذا المجال عددا من المقالات في الصحف المحلية والعربية وفي مواقع ادبية على الانترنت، كما نشرت العديد من القصائد في الصحف المحلية والعربية على الانترنت.

شهدت كتابة النص المسرحي مراحل من التجديد والتجريب تمثلتها المذاهب والمدارس المسرحيه على مر التأريخ الأدبي المسرحي. فمثلا كتابات (شكسبير) كانت تحولا عن النصوص المسرحية التي قبلها وكذلك كتابات (أبسن) التي شكلت فاصلا وتحولا مهما من الناحية الفنية والبنائية فضلا عن ألموضوعية.

غير أن قمة التجديد هو ما جاء به كل من (بيكيت) و (هارولد بنتر) في انعطافة كبيرة أثرت في الحركة ألمسرحية وكتابة النص المسرحي في العالم، حيث استقت المفاهيم الانسانية العميقة من خلال الحياة الخفية للبسطاء والعلاقات العابرة. وتمثلت في تداخل للازمنة والامكنة وكسر للقواعد الارسطية في أكثر الأحيان في محاولة للانفلات مما سماه بيكيت بـ (أدب الرموز التدوينية) وبكتابة مغايرة تجسد رؤية العالم من خلال أدق التفاصيل وأعمقها وأكثرها التصاقا بالإنسان مبتعدة عن اللغة الشعرية أو الشكل السائد في الشكل والمضمون. فالحوار في مسرحية (في انتظار غودو) يشكل توجها خاصا في إطلاق لغة التوحد، لغة الفرد المتوحد، وانعدام التسلسل المألوف فيما بين المتحاورين في الجزء الأعظم من النص. كما أن فترات الصمت لدى (هارولد بنتر) كان لها الأثر في جعل النص ساحة ذهنية وبصرية

وسمعية على المستوى الدلالي والجمالي. فكان ذلك ثورة في التجديد بامتياز امتدت تأثيراته ليشمل كثير من مؤلفي المسرح في العالم.

ولم يكن المؤلف المسرحي العراقي بعيدا عن هذه التأثيرات فتلقف هذا الأثر وأبدع فيه لما فيه من جماليات على المستوى الدلالي والبنائي، واضعا بصمة تضاف للمسرح العراقي. يمكن ان نذكر منهم محي الدين زنكنه وصباح الانباري وعلي عبد النبي الزيدي وقاسم مطرود على سبيل المثال لا الحصر* .

ويمكن عد نهاية عقد التسعينيات وبداية الالفية الثالثة حتى عام 2003 فترة خصبة لا فراز شكل من الكتابة المسرحية نتيجة الحروب والنظام الديكتاتوري والاختناقات السياسية، فعمد المؤلف المسرحي إلى اجتراح أسلوب يتخلص فيه من سلطة الرقيب من جهة ولتعرية واقعه من جهة أخرى. وفي ما تلا عام 2003 كان للنصوص المسرحية وجهة جديدة في محاوله لتمثل التحولات الثقافية والسياسية والدينية مستفيدة من توفر شرط الحرية والانفتاح العالمي الذي وفرته شبكة الانترنت. وعلى هذا يمكن تأشير صنفين من النصوص المسرحية:

- الأول ما حافظ على العناصر الاساسية للنص المسرحي من حوار وشخصيات وزمان ومكان لكنه أجاد التغيير فيها.

- أما الثاني فهو ذلك الشكل الذي تلاعب بمكونات النص المسرحي مغيبا احد عناصره وربما أكثر من عنصر، من جهة أو مستفيدا من فنون أخرى مثل السيناريو واللقطة السينمائية مكوناً ما يسمى بـ (السيناريو الممسرح) أو (اللقطة الممسرحة) أو (سيناريو مسرحية).

علي عبد النبي الزيدي
الموضوع والشكل المسرحي

تعدُ نصوص الزيدي المسرحية مثالا مميزا للنص المسرحي التجريبي من حيث الأسلوب والشكل والمضمون. وتأتي مسرحية (جيل رابع) ضمن مجموعة مساء الصمت أيها الصباح، حفرا في النفس البشرية وتأثيرات الحرب وأهوالها التي شوهت الفكر والجسد والروح وأفقدت الإنسان أمله في غد متكامل مشرق. بل وصورت المستقبل من خلال (النقص الذي يؤدي الى الجمال) مستندا لواقع الحرب القبيح نفسه. في جيل رابع يصور الزيدي حياة عائله تعيش ضمن مجتمع المتسولين وتمتهن التسول، شوهت الحرب قيمها وطالت حتى جسدها. فالجد أعمى فقد عينيه بعد ان (اخترقتهما الحرب بأرقامها الكثيرة) والأب - أبو ذراع - فقد ذراعه في الحرب، أما الإبن فلسانه مبتور ليس بسبب الحرب بشكل مباشر وانما من خلال تأثيراتها على الاب، لسان مبتور بشكل قصدي، اما الام كانت متكاملة حتى ولدت ولدا يمنحه الاب اسم (مجهول) وسيقررمع الجد ان تبتر ذراعه استجابة لنمط البيئة التي تعتبر قطع الاطراف عملا قدسيا ينم عن ايمان عميق. وهو ما يتلائم وافكار الاب (ليصبح بعيدا عن الحرب، النار، الموت، التقطيع) وفي غمرة احتفالات واسعه كمهرجان القطع الاطراف وفقأ العيون في بيئة مشوهه وغريبة. والتي يجد فيها الاب انها لحظة من التجلي والصدق الانساني التي لا تتحقق الا بفعل النظرة الثاقبه للمستقبل)هذه النظرة التي ستطال الام فتقطع ذراعها اذا لا يستحق زمن كهذا (ان نعيش فيه بوجوه واسماء واطراف ...). ولكنها مستمرة في خصبها حيث تعلن في نهاية المسرحية انها حامل وسط ذعر الجميع وقلقهم .

يعمد الى تقسيم النص الى ترقيم المشاهد دون ذكر كلمة مشهد بل أولا وثانيا وهكذا حتى الرقم سبعة ويقطع هذا التسلسل بعد(أولا) و(ثانيا) بكلمة (تمهيد) وهي ثالث حسب التسلسل لان الذي ياتي بعد التمهيد هو رابع ثم عنوان اخر يعترض هذا التسلسل تحت مسمى (استهلال متأخر) خارج الترقيم ليستمر بعد ذلك في تسلسل نصه الى خامس وسادس وسابع ليتوقف عندها.

إن التقسيم بهذا الشكل المغاير لتقسيم النص المسرحي الكلاسيكي ودون الاشارة الى نوع هذا الرقم كمشهد او مقطع او فصل يمنح النص بعدا دلاليا . اذ تجد ان الرقم سبعة الذي تنتهي عنده لعبة النص هو عدد ايام الاسبوع .لكن هذا العدد مع الاستهلال المتأخر يصبح ثمانية فهو يغير المفاهيم الزمنية المعروفة (كما هو شأنه دائما كما في نص ثامن ايام الاسبوع) لينجز زمنه الخاص الذي يضع فيه شخوص مسرحيته محملا اياهم الآم الحاضر وثقل الماضي، وهم المستقبل في جيل رابع تبدو ملامحه غامضة وغير معروفه بل مجهولة المعالم. وكل هذا انما يحدث في سبعة من الايام او السنين. وهو الرقم الذي يحمل دلالات مرجعية بين سنوات عجاف وقحط وبين سنوات خير ورخاء نتأملها.

هيمنة الصفات الشخصية
تعميم النقص والتشويه ...

يعمد الزيدي في اغلب نصوصه الى عدم تسمية الشخصيات وانما بالاشارة اليها بـ (ذاك، تلك، هي .....) كما في نصه مساء الصمت أيها الصباح. أو يضفي عليها لمسة اجتماعية عامة كـ (الزوج ، المراه ..) او يضع لها صفات خاصة كما في جيل رابع، صفات محدده يمكنها ان تكون مدخلا لعالم كامل .وان في اخفاء هوية الشخصية امكانية منحها بعدا انسانيا شاملا وعاما. فهو يصنف في مستهل نصه الشخصيات في إطار عائلي وشخصي مبتدأ من رأس الهرم العائلي الجد - أعمى وهو الجيل الأول الذي فقد القدره على تبصر أو ابصار الواقع والمستقبل بشكل طبيعي. وهو نقص ليس بالتكوين الطبيعي الخلقي بل بسبب خارجي هو الحرب. هذه الحرب التي تؤدي ايضا الى نقص وتشوه في الجيل الثاني – الاب - ابو ذراع. اما الابن - مبتور اللسان - ومبتور تختلف في صياغتها عن (اعمى وابو ذراع) فهي توكيد لفعل الضرر والتشويه. ليصبح اكثر توازنا وقبولا بالنسبة للآخر. ليستمر هذا المنهج التشويهي ويمتد نحو الجيل الرابع الذي يتم قطع ذراعه وهو لما يزل طريا غافلا عن اسباب التشويه. غير ان الصفة الأكثر أطلاقا وحضورا وتأثيرا في العناصر النص هي (ابو ذراع) التي باتت تعرف من خلالها كل العناصر المكونة للحياة المادية (شارع ابو ذراع وبيت ابو ذراع ..) والعلاقات العائلية - زوجة ابو ذراع، عائلة ابو ذراع) لتشكل الصفة الاكثر شمولية ، صفة النقص عالم من التشويه والقبح هو الشكل السائد الذي يمسك بزمام مجرى الزمن/الاحداث فيصوغها من خلال نظرته الخاصة. واطلاق هذه الصفه يحدد لنا النمط والسلوك بالشخصية ويوجه نظرة القارئ / الناقد من حيزها المحدود الى الحيز العام للانسانية كلها من خلال تجميعنا لدلالاتها في السياق العام.

قاسم مطرود

تعد كتابات قاسم مطرود من التجارب المسرحيه المهمة التي قدمت نفسها كإضافة متميزة ذات بصمة خاصة في اختيار الشكل والمضمون . فهو يعنى بالتجديد بدءاً من العنونة الشعرية للنصوص (كما في للروح نوافذ اخرى و الجرافات لا تعرف الحزن) بالاضافة الى جدة الموضوعات التي يطرحها.

حوار المصاطب والشكل المسرحي

يقدم مطرود نصه على انه سيناريو مسرحية، والسيناريو هو (قوس الفعل الدرامي) وهو كل التفاصيل المسرحية قبل ان يدخل الحوار اليها. وبما ان نص حوار المصاطب هو شكل نهائي لا ينوي المؤلف ادخال هذا العنصر/ الحوار اليه، فهو إذن نص نهائي وليس مشروع او مخطط أولي لكتابه اخرى. وهو يقترب من نص البانتو مايم و مستفيدا من التحول في الفنون والاداب الى الصورة المختزله والمكثفه، يبدأه بعلامة أولى وهي منح الصفة البشرية الأكثر حيوية وهي الحوار الى شئ جامد – المصاطب- ثم يتبعه بتقديم للشخصيات معرفا اياها بـ (الرجل الأول والرجل الثاني - العازف - والرجل الثالث - اكبرهم سناً) وانهم رجال في سن التقاعد. وينتقل الى عناصر المكان ليسميها بتكوينات الشكل المسرحي فيوزعها بحيث يربط الخشبه بقاعة المتفرجين بدءاً بمظلة الحافلات التي يكون ضلعان منها ينزلان الى قاعة المتفرجين، وارقام الحافلات التي يريد أن تكون معروفة بالنسبة للمتفرج وتخص مدينته، ثم عمود الاشارة الضوئية الذي ما ان

يشتعل باللون الأخضر حتى يسمح بدخول المتفرجين الى القاعه/ محطة انتظار الحافلات. وعند اكتمال دخولهم تتحول الأشارة الضوئية الى الاحمر . ويبدأ النص من خلال إطلالتين، اطلالة اولى واطلالة ثانية .

تتكون الاولى من تسعة مشاهد لتأتي الثانية والتي هي بخمس مشاهد لتكمل تسلسل الاطلالة الاولى. فهي استمرار ولكنه استمرار مصحوب بالنقص - نقص في احد الشخصيات (شخصية الثاني العازف)، ونقص زمني بدلالة فرق اربعة مشاهد عن الاطلالة الاولى. الاطلالة هنا تقابل الفصل في النص المسرحي الكلاسيكي. والاطلالة الاسم من (اطلَّ وهو في اللغة اشرف) فمَن يطل على مَن في حوار المصاطب.

المتفرجون بوصفهم فاعلين في النص

في النص (يتابع الرجل الاول دخول المتفرجين ...) ويتابع هنا بمنزلة المسيطر والمسؤول على مجرى الاحداث والمشرف عليها ... فهو يشرف على دخول المتفرجين في عالم مشترك بينهما عالم الرجل الاول / الحكاية، وعالم الداخلين اليها، فيشتركون في قطعة صامته من الحياة تكشف عن هواجس انسانيه تمثلتها كل من الشخصيات الثلاث. والاشتراك هنا هو عكس اللعبة المسرحية التي تقتضي ان يكون أحد طرفيها متفرجا بل هو في حوار المصاطب فاعل ومنتج للمعنى اكثر منه متلقيا سلبيا لوقائع النص.

الزمن المسرحي : زمن حدوث هاتين الاطلالتين غير محدد

لا يذكره المؤلف، فهما اطلالتان على الداخل ولا يعنيه الزمن الخارجي. و ياتي التعريف بهذا الزمن الداخلي من خلال مكونات النص نفسه، فهو اولا: الزمن الشخصي للشخصيات هو سن الاعتزال عن العمل والتوقف عن تقديم أي فعل انتاجي للآخرين، ومن ثم هو التوقف عما يديم الحيوية فيهم، وهم في حالة من الرتابة لدرجة أن المؤلف وضع حوارا للمصاطب كناية عن حوار الجماد. والزمن الآخر هو ما تدل عليه الجملة بين الاطلالتين (يمكن ان تلعب الاضاءة دورا في التعبير بأننا انتهينا من يوم ودخلنا في يوم آخر). اذن هما يومان .. وفي يومين كم تتبدل أحوال المرء وتسوء. ونقص عدد مشاهد الاطلالة الثانية عن الاولى هو تعبير عن تقلص دائم وخسران في احد اهم عناصر الحياة ،الانسان.

الشخصية المسرحية
الرجل الاول

يكتفي قاسم مطرود بالا شارة للشخصية الأولى بـ (الرجل الأول) وهو رغم تقديمه المتصدر غير أنه لم يتطرق لشئ عنه .. ومن خلال البحث في النص أمكننا التعرف الى هويته ورسم ملامح شخصيته. فألاول الذي يتابع حركة العالم بشئ من الرتابة والملل وهو الأكثر اهتماما بالتفاصيل، اذ يهئ الادوات - وربما اسباب الحياة - للثاني حين يفك سلاسل الصندوق الذي يحتوي على آلة موسيقية وعلبة صغيرة، الأداة الجيدة التي تحدث صوتا معبرا مقيده بالسلاسل الى المصطبة. وهو يقلق على وضع العلبة الصغيرة في مكان ملائم. كذلك هو يطيل النظر الى الورقة التي كان يكورها ويحولها من يد ليد وهو تدور في سلة النفايات حتى تستقر. او هو يخرج سيجارة (يتأملها، يشمها، يدخنها ...) وهو الاكثر ارتباطا بالفضاء المكاني من حيث الحركة فيه والتعامل معه (كما في تعامله مع الاشارة الضوئيه في تحولاتها مرة تخص الحافلات ومرة كأضاءه عادية يستخدمها لقراءة الجريدة) وبتأكيد الجمل الفعلية التي يذكرها المؤلف (يتابع حركة الداخلين) (يخرج الصندوق) (يفك السلاسل) (يمسك السيجارة كالسيف). وكذلك نتبين ملامح شخصيته حتى في إعادة وتكرار أفعاله في الإطلالة الثانية لا يؤثر فيه تقدم الزمن كما يؤثر في الشخصيتين الأخريين، فهو خارج الزمن من حيث تأثيره فيه فهو كشخص لا يتنازل عن استثناءه رغم التململ والترقب مشخصا نظرة للسماء بين فترة واخرى (كأنه ينتظر نزول شيئ من السماء) .

الرجل الثاني

الرجل الثاني، العازف وهو محور النص، كل شئ يدور حوله، ويهيأ من أجله. يظهر في المشهد الثالث (يمشي كالسلحفاة) كثير العطاس، يمسح أنفه بمنديل ورقي، يرفع يده لتحية الأول دون النظر إليه ..أنها مسألة روتينيه ربما تعاد وتتكرر لعشرات المرات، هذا الشخص المسن وبطئ الحركة هو العازف الذي هيأ الأول من اجله الآلة الموسيقية ،أطلقها من سلاسلها ونظفها ووضع له العلبة الصغيرة في مكان مناسب.

هذا العازف المسن يباشر العزف غير انه يحمل ذات القلق على تلك العلبة الصغيرة، علبة الهبات، خشية أن لا يراها احد. فيقطع العزف ويتجه لها مغيرا مكانها ويعود الى آلته ليعزف قطعة أخرى لا علاقة لها بالأولى. وبعد العطاس يعزف قطعة ثالثة مختلفة أيضا. ألحانه المختلفة لكل حالة عزف خاص ولكن وبسبب من عدم إنزال (السماء) ما (يملأ) تلك العلبة فإن حركته تصبح أكثر بطئا لشعوره بالخيبة وسرعان ما ينهض بشكل مفاجئ يعزف جيئة وذهابا عزفا سريعا قلقا وهو يتابع الشارع (وكأنه ينتظر قدوم الحافلة) وكأن عزفه (يأتي من مكان بعيد). غير أن لاشئ جديد لذا يقرر المغادرة (ليبقى السكون بطل المكان) ويترك أثره، أثرا ما، يذكر به ويديم العلاقة الروتينية التي كانت قد بدأت تتحول الى شئ من الحميمية بينه وبين الاول والثاني . تلك العلاقة التي كان تغلفها الآلية والرتابة والتكرار. وهذا الأثر هو ايقاد شمعة وتركها بالقرب من العلبة الفارغة ، ليخرج من جهة اليسار- الجهة المعاكسة لجهة خروج الأول والثالث - ليخرج من مسرح الحياة خاسرا مثقلا بالخيبات، رغم طول الأنتظار، ورغم اهتمام الاول ومتابعته، وبعد ان عزف قطعته الأخيره (شبه الحزينة) وسلم آلته للثالث، خرج (وكأنه خسر العالم).

الرجل الثالث - أكبرهم سنا

صاحب الجريدة، حامل الأخبار والقصص والذكريات ،والمثقل بالهموم تزداد حركته بطأً مع تقدم الزمن المسرحي ،ملّ الأخبار لدرجة أنه رمى بالجريدة في سلة النفايات مستمرا بالتدخين وبالشعور بالملل. تبدو علاقته بالآخرين باردة واليه ثم ما تلبث أن تتوطد بعد رحيل الثاني إذ (يشاركه الحزن)على خسرانه وخيباته مع ازدياد بطء حركته وشيخوخته وتزداد تبعيته للأول في حركات القلق والحزن لرحيل الثاني. يحاول استحضاره من خلال وضع الشمعة على المصطبة، في مكانه الفارغ ويحاول أن يعزف بدلا عنه (إلا انه يصدر أصواتا مزعجة فيتوقف) تنطفئ الشمعة فيحاول الأول والثالث إشعالها بعد ثلاث محاولات ينجحان، يتأمل احدهما الآخر وبحزن (يفترقان ويخرجان الى المدخل الذي دخلا منه) لتختفي الإضاءة وتبقى الشمعة المشتعلة وحدها والقطعة الأخيرة التي عزفها الثاني هما سيدا المكان .

تفوق السرد على الحوار

إن اختيار المؤلف للشكل المسرحي الذي وضع فيه الشخصيات، أقصى الحوار، فرض عليه أن يتبع نظاما بنائيا يتمكن فيه من الكشف عن رؤاه ضمن سياقات لغوية مفيدا من الجمل ألاسميه والفعلية الواصفة. ومن خلال هذه السياقات اللغوية يكشف عن طبيعة الشخصيات، حالاتها وحركاتها وأفعالها.ويكشف عن الفضاء المكاني والزماني للنص.

فالوصف للفعل والحركة هو سرد مختزل على شكل صوره تتضمن إيماءات وإشارات وحركات وأصوات وأضاءه على لسان راوٍ وحيد هو المؤلف.

وبالنظر إلى هذه الأفعال نجدها على نوعين :

الأول- هو أفعال خاصة بالشخصيات تؤدي أغراض توصيفية مثل (يخرج علبة السجائر ،يتأملها ، يشمها ، يرص التتن، يدس العلبة، .....)

الثاني - مادل على المشهد مثل (تعود الاضاءة ،يتضاءل ضوؤها، تبقى الشمعة مشتعلة ، تعتيم).

وبالإضافة الى هذا فقد أدت الأفعال هنا وظيفة استثنائية، فهي تقوم مقام الحوار. وفي كلا المجموعتين السابقتين يتشكل النص كمجموعة من العلاقات لتحديد تفاصيل الحدث. وهذه العلامات تقترب من تلك التي يتضمنها (النص الثانوي) الذي يتضمن إرشادات المؤلف في النص المسرحي الكلاسيكي.وفي حوار المصاطب يتداخل هذا النص الثانوي مع الشكل المسرحي المقترح ليشكل النسيج الداخلي للنص ليطلق دلالاته دون الحاجة الى الحوار وفي المشهد الأول تصوير مميز لتداخل النص الثانوي مع الشكل المسرحي:

(ما أن يكتمل دخول المتفرجين تتحول الإشارة الضوئية الى اللون الأحمر. وبهدوء ينحني الى الصندوق، يفك القفل، ويزيح السلسلة، يفتحه ويخرج منه آلة موسيقية، كمان أو ناي أو اركديون مع قطعة قماش لينظف بها الآلة الموسيقية وما أن يكمل تنظيفها يضعها وسط المصطبة)ويمثل هذا الجزء المقتبس كيف تتشكل بنية النص الدلالية لأنها الأساس في تكوينه وتشكله وتحت مسمى (سيناريو)المتقدم على (مسرحي) لإثبات هوية النص كشكل تجريبي جديد.

النبي العاجز

في حوار المصاطب نشهد إنطاقا للصمت وندخل عالم من (اللامسميات)في عموميات. وهو اختزال للحياة بشكل حركة، وهذا الاختزال تصوير زائد تعميق لما يعانيه الإنسان من توحد وغربة ولا جدوى. صدمة له وهو يحدق بالعالم المسرع الجنون، غريب وانتظار للآتي، الانتظار المتكرر الذي يثقل كاهل المنتظرين المتطلعين الى أرقام الحافلات التي لم تأتِ بما هو متأمل منها ومن ركابها الذين لا يدخلون عالمهم (عالم الشخصيات) فيبطئ هذا الانتظار العقيم من حركتهم تمهيدا للشلل التام على الرغم من وجود المتابع والممتلك للقوة(الرجل الأول) إلا أنها قوة مقيدة ومشروطة بالسماء .معطلة لا تملك إلا أن تنظر الى السماء ، كالنبي العاجز، ينتظر معجزة من السماء تمنحه القوة ليتحلحل وضع الرتابة وتحرك الجمود وتعوض الخيبات بشئ من الأمل.

* استثني هنا ما كتبه مخرجون أو ممثلون مسرحيون وكانت نصوصهم تندرج ضمن الإطار التجريبي للعرض المسرحي وهي ليست ضمن مجال هذا البحث .

1- علي عبد النبي الزيدي، **عودة الرجل الذي لم يغب**، مسرحيات،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، 2005.

2- مسرحية: **المصاطب** للكاتب قاسم مطرود، نشرت في مواقع الكترونية كثيره منها اورنينا للثقافة، مسرحيون، النور وغيرها.

3- صموئيل بيكيت، **خمس مسرحيات تجريبية**، تقديم ناديه البنهاوي 1992.

قصة قصيرة:

الأرق

شبزارى بافيزى
ترجمة: هلال حميد

حينما كنت ادخل باحة البيدر قبل الفجر (كنت أعود من حفلات، نقاشات ، مغامرات)، كنت اعرف أن أبي كان هنالك، تحت الظل الداكن لشجرة الجوز، كان واقفا لايحرك ساكنا، ومن يدرى من أي وقت وهو يحدق من بين الأشجار ويلقى نظرات متفحصة دائما حول نقطة الخروج بين النجوم.

كنت اظهر من المرج على حين غرة فاعبر الباحة (كان في وسعى الدخول من تحت عقد البوابة دون أن يراني أحد)، ولكن كان من الأفضل لو انه يدرك في الحال باني ماكنت أريد إخفاء نفسي وانه يكون قد عرف بأني كنت عائدا منذ مدة.

كانت شجرة الجوز تملأ نصف السماء، لكن مساحة عريضة من البيدر كانت تبقى مكشوفة وكان لونها يضرب للبياض، كنت اعبر ذلك البياض والليلة كانت مقمرة صافية، من الصفاء أنى كنت أرى ظلي تحت قدمي.

كنت اجتاز تلك الفسحة دون أن انظر لشجرة الجوز، لأني لو نظرت لتعين علي الوقوف ولكان أبي قد دعاني فيبارح مكانه وهو يتمتم ببعض كلمات.

كان أبي لايستطيع النوم، إذ كان كبيرا في العمر، وكان النوم يبدو له ضياعا للوقت، وكان يقول أن الوقت إذا لا يسرف في العمل فهو وقت مهدور. وفى قلب الليل كان يترك سريره (وان كان يأوي إليه والظلام لما يحل بعد)، فيبدأ في دورته، يدخل الإسطبل الفارغ ، يعدل المذراة ، يشيل قشة .

حينما أخذت أختي في الزواج لم يتبقَ لنا سوى مزرعة كروم واحدة ، فكان أبى يحرثها في النهار ويسهر على حراستها في الليل من باحة البيدر.

ذات مرة (حينما كنا صغارا)، وفيما كنا مضطجعين في أسرتنا، كنا مابين اليقظة والنوم ، كنا نسمعه يتلمس الحبل في الإسطبل ويفتح الباب الخشبي على مصراعيه فكان الباب يصر ويقشط الأرض ويحدث جلبة فكان ذلك الصرير يثير

ارتياعنا. فأبانا بصوته المرعد يحوم وهو مورق في جنح الليل كان يعرض البيت الى مخاطر رهيبة، فأي جلبة تحدث في الظلام كانت تبث فينا الخوف ، كنا نود لو انه يكون قد أغلق الباب وراءه كي نشعر بالأمان ونحن غاصين في أسرتنا وقلوبنا تخفق بشدة. لقد عشنا دائما في ذلك البيت حيث أن حدوث أي ضوضاء معناه دخول احد ما غريب لذا فهو مخيف.

الآن كنت اظهر على باحة البيدر فجأة ، كنت أسير ضاحكا، وأنا أعرف أن أبى كان ينتظرني تحت شجرة الجوز. وفى بعض الأحيان كان يرافقني احد ما حتى الطريق الزراعي تحت مزرعة الكروم، عند ذلك كنا نتبادل الحديث عن آخر قنينة وعما فعلناه وما يجب عمله.

- الى الغد، كنت أقول: الى الغد، فكان هذا يبتعد بخطوات حثيثة ويختفي بين الأشجار، هو أيضا نحو البيت. وبثلاث خطوات كنت اصعد الطريق فأرى شجرة الجوز العملاقة واجد نفسي في فناء البيدر كما في كل ليلة .

في النهار كانت تدور في رأس أبي أفكار وهواجس غريبة فيتحامل ويفرج عما في نفسه مع أمي ويتصايح معي. ففي غالب الأحيان كان ثمة إشغال لاطائل تحتها ولكن كان لابد من القيام بها حبا بالسلام، كجمع الحطب، رفش الأرض، في الحقيقة انه ماكان يريد منا أن نحني ظهورنا ونجهد بقدر ماكان يريدنا قريبين منه، نطوف حوله في البيدر ليشعر بأننا نعمل جميعنا.

منذ أن تزوجت أختي وأجّرت مزرعة الكروم، خيم الحزن على بيتنا، وأصبحت الحياة فيه رتيبة، خالية من البهجة والمفاجأة، ولم نعد نرى أحدا، حتى الإسطبل أصبح خاليا.

في بعض الأيام كنت اشعر بالملل كما كنت اشعر فيه في صباي إذ لا أجد احد يشاركني في اللعب، كنت اهرب من البيت واسرح في الحقول، كنت أقول أنا ذاهب للقرية، أما أنا فكنت اذهب لزيارة أختي، كنت التمس منها عمل، أي عمل كان ، لكنها لم تكن تعطيني أي عمل. غير أن بيتها كان يكاد لايخلو من بعض المارة والزائرين عندئذ تنفتح أحاديث وثرثرات لاينقطع سيلها .

في وقت العشاء كان أبى يسالنى:- ماذا فعلتم ؟، وما كان الرد يحتاج الى مزيد من أننا كنا نثرثر حتى ينفجر غضبه ويأخذ في الصياح ويلقى اللوم على أمي لأنها السبب في كل شيء وهى التي أتت بنا الى هذه الدنيا. وبحلول الليل كان شيئا فشيئا يعود الى هدوئه ويتجنب ملاقاتي.

كان على أهبة الخروج من بقعة الظل، ولكن في كل مرة كنت أمر فيها وأنا أتأبط السترة ، سارح البال، أنصت لصوت الجداجد، فما كان يحدث شيء. كل ماكان يحدث هو أنى فيما كنت ادخل البيت كنت اسمع أمي بصوتها المبحوح تناديني من سريرها (كذلك هي لم تعد تنام بما فيه الكفاية)، تريد أن تعرف أين أبي، وهل مازال في البيدر وماذا يفعل هناك وإذ قال متى يعود: كنت أقول لها لاتقلقي، إني هاهنا والليلة مقمرة والسماء صافية وغدا سيكون يوما جميلا، فتعود تسكت شيئا فشيئا. كنت أرد عليها وأجيبها بنفاد صبر كما كان يفعل أبى معها.

كانت تلك الليلة من إحدى ليالي شهر آب القائض فما كان ثمة شيء يدعو لمواخذة رجل مسن لايجد للنوم سبيلا. حتى أنا لم أكن استطع النوم (حيث الخمر ونقاشات الليل كل ذلك كان يقلق نومي).

في الخارج كان ثمة ريف، ثمة حقول بطرقها المقفرة، وفى الغداة مع طلوع الشمس سيتغير كل شيء : لكن في هذه الأثناء كانت تلم بي رغبة قوية في حسم الأمر وإنهاء كل شيء. الذهاب الى البلدة، اخذ القطار والبدء بحياة تليق برجل

– حتى أبي كان قد فر من الريف في شبابه ، وهو ذهب مشيا لعدم توفر القطارات في عهده إلا انه سرعان ماعاد ثانية بعد سنة. أما أنا فلا أريد العودة أبدا.

في ليلة عيد مريم العذراء عدت الى البيت في الصباح ، وهذه المرة بدا لي الطريق الزراعي ليس على مألوف عادته. فلما وصلت رأيت أبي يخرج من الإسطبل. وبينما كنت أتناول فطوري عند عتبة الباب سألني:

- كيف كان الاحتفال؟

- التقيت بناني، قلت ذلك وأنا امضغ لقمة.

- لقد تبادلنا الحديث .....

- وماذا عساه أن يقول ذلك المشرد..

- لاشيء... قال انه يأخذنى للعمل معه متى شئت .

وقتذاك توقف في مكانه، حائرا، مترددا، لايعرف ما يفعل، كان يحمل حبلاً غليظاً فوضعه فوق الشباك، ولو أن هذا كان قد حدث قبل سنوات لكان لسع ظهري بالحبل، لكن الآن فلا جدوى. فالتفت نحو الإسطبل حيث أمي كانت تخرج، واخذ يفرك عينيه. أما أنا فتركتهما يتشاجران وعيناي سارحتان نحو الظلال الممتدة لشجرة الجوز.

******

قصص كردية مترجمة

(1) جلنار الجبل

بقلم : نزار محمد سعيد

نزار محمد سعيد، من مواليد مدينة دهوك 1952. عمل في مجالي التدريس والصحافة الوطنية، كما عمل منسقا تنفيذيا للإعلام لدى المعهد الدولي لشؤون المهاجرين في مدينة هارليم بهولندا. كما انه اختصاصي في حقلي التنمية الثقافية والبحث الاجتماعي من مدرسة العالية بهولندا Utrecht. صدرت له مجموعتين قصصيتين: الطاحونة و صهيل الجبل الأبيض. له مجموعة من الكتب معدة للطبع تأليفا وترجمة تشمل حقول معرفية متنوعة .

ذوت أسلاك الكهرباء، الكيبلات، وأعناق زجاجات العرق المسيح المكسورة بلحمه. حين يلبسونه بنطاله يبدو وكأنه دخل شوالا.

الأيام الباقيات من عمرك يبدو أنك ستقضيها هنا على سرير كأسرة المستشفيات، أمامك نفاضة مليئة بأعقاب سكائر (بغداد) تزرع عينيك الزائغتين في صورة ابنك الذي لم تره لسنوات، وبين الحين والحين ترنو من زجاج النافذة الى شجرة الرمان في الحفرة المربعة بأرضية الباحة الأسمنتي وعلى فروعها الخضراء وأزهارها المصبوغة بالدم تبتسم الشمس وتذكرك لمعانها بالسيكوتين، ومع انبلاج الفجر ترقص عليها العصافير وتردد لك أعذب ألحانها. وعلى الرغم من أنها تزهر كل موسم، وتذبل زهرها قبل أن تستحيل ثمرا فأنك ما زلت تنتظر أن تذوق يوما ثمار هذه الشجرة.

عيناك تنتشيان حين تعانقان الجبال من على سطح الدار، وحين تعانقان العصافير والجلنار.

إن لم يدفع السيكارة من حين لآخر الى شفتيه المتورمتين يخال لك أنه تمثال نصفي، أسند ظهره الى جدار الغرفة على السرير الأبيض، وإذا بانت قناة ما جرى له على شاشته واضحة جليا، فلحظتها ينبغي أن يبرح الغرفة من فيها، ويترك وحيدا حتى يعود الى وضعه كتمثال نصفي.

أحد الجالسين هيأ حنجرته وقال:

- يا فلان حدث، حدث لنا شيئا؟

- ماذا أقول، لا أدري من أين أبدأ.

- في أي مدينة كنت؟

- أو هل يدري أحدهم أين كان!

- كيف عاملوك، وكيف كانت التغذية؟

- ش ش ش... ها هم أقبلوا .. (قالها والرعشات مست جسده كله)

- من كان معك من المعروفين؟

- الذباب!

- المعروفون، أعني أبناء مدينتنا،

- لا أسمعك، لا ترفع صوتك،

- كيف لا تسمعني!

- أقول لك أني لست هنا، فافهم يا صاحبي.

هذا الحديث حل وثاق الخرقة السوداء من عينيه ودفعه نحو الظلام دفعا.

في هذا القبو يبدو كل شيء أسود، جدرانه وآلاف الكلمات عليه ..المكتوبة بفتات الخبز المحروق وحبات الفاصوليا وأزرار القمصان، الباب الفولاذي ذي الشباك الضيق وسطه، الناس الذين مسخوا، الصفيحة الصدئة التي يقضون فيها حاجاتهم، المصباح المتدلي من السقف الرطب، سلكه الذي يوكر عليه الذباب .

" سوداء الأصوات هنا، دقات قلبي، كلماتنا، دوران عقارب ساعتي، وقع الخبز المرمي من الشباك الضيق، الخبز الذي ما أن فرغت من إلتهامه حتى شعرت بقلبي كما لو أنه رمانة يدوية سحب مفتاحها لتوه، هنا الموت نحس طعمه في أفواهنا، قتلتنا الروائح، أكلتنا الصفيحة ".

- أتعلم أنك ألحت عليه كثيرا؟

- خلته الأنسان نفسه الذي كنت ألتقيه من حين لآخر قبل أشهر،

- كلماته كانت ترتجف،

- شبح الموت يطل برأسه من جل مساماته،

- هو والموت في حلبة المصارعة ،

- أبصرت شيئا لافتا للنظر، لم يره أحد سواي،

- وما هو الذي رأيته دون الآخرين؟

- سأله أحدكم عن السيكوتين سؤالا أوسع حدقتيه وأفقدهما سوادهما،

- لم نره،

- كنتم لحظتذاك منشغلين بالشاي ورد السلام على زوجته.

" تركني النوم، هجرتني الأحلام، لا تتركني، قبل الموت أحس بزراعة الموت وهو في مجرى دمي يجري، يهرب، يهوى، يدق جمجمتي بصخرة يرقص على قرقعتها القبيلة المتوحشة رقصتها اليومية المفضلة " .

عيناه تغسلان صورة إبنه قبالته، عينا الإبن تحاصرانه كما لو أنه يبغي الخروج من خلف الزجاجة ليجلس جواره ليفرغ له ما في حقيبته التي نسجتها أنامل حبيبته، ثم يملأها من حكاية ما جرى لأبيه، وليحدث بعدها ما يحدث.

" تركتني، هل حقا تركتني؟ لا... لا، ستعود وما في عودتك شك، تعود وسأرمي بنفسي كالمخبول نحوك، أضمك الى صدري وأملأ رئتي من عطر الجبل، عطر النرجس والزعتر، ويداي المعروقتان المرتجفتان سأمررهما على شعرك الذهبي وأضع فيهما وجهك وأرفعه ..... ".

يلف عيناه الغائرتين لون رهيب، مزيج من سواد وإحمرار وألوان أخرى. فكر في مكونات المزيج مليا، وضع المرآة جانبا ... أغلق عينيه فبانت قناة الدمع، صرخ ما إستطاع حتى تعبت أوتاره عن اللحن، غطى الزبد شفتيه، رأسه الذي أسقط أول رغيف القبو شعره الثلجي إرتطم بحائط الغرفة، أسلم رأسه للوسادة التي كتب عليها " صباح سعيد ".

وضعت زوجته يديها على خاصرتيها وصاحت متوسلة:

- عما تبحث يا عبدالله، مجرجرا قدميك تدور من حجرة الى أخرى؟

- صوتك.. صوتك إخفضيه (قالها بصوت متحشرج)

- هلا تقل لي عما تبحث؟

- ي ي يكوتين! (قالها بصوت منخفض مبتلعا الحرف الأول من الكلمة)

غرس الليل سيفه في جسد الضياء محتلا كل الزوايا والدروب الطينية وكل يهم الخلاص. يا فلان أسرع، أنت أيضا أسرع.. أهرب لتنجو بمخك وأناملك.. أنزل باب مشغلك على مهل لئلا توقض الأطفال النيام وأهرب.

ذابوا في الظلام.. رؤوسهم تتحرك في كل الإتجاهات .. أصابعهم أصابع الشهادة على الزناد، عيونهم ترقب كل حركة وآذانهم متأهبة لأي حفيف أو وقع قدم، أشباحهم تلوح لعيني سيارته البيضاء وكأنهم ذباب .. أبطأ السير .. توقف .. أنزل زجاج النافذة .. عيناه بدتا كعيني طائر القبج مذهولة مذعورة أول ما تنتزعه مخالب صياد من المصيدة ..هكذا بدتا أمام المصباح ذي الثماني بطاريات. صوت ينفجر في أذنيه:

- أنزل "إنفجر صداه" إفتح الصندوق "إفتح الصندوق" سيكوتين!! هلموا !!

أسرع إثنان منهم إليه وضعاه بينهما فيما قفز ثالثهم الى مكانه خلف مقود السيارة ثم بصقت السيارة غمامة سوداءة في وجه الباقين .

- ماذا ترى .. أترى شيئا، هلا ناولتني الناظور بعد أن تفرغ منه؟

- دعني أروي عيني المتعطشتين للقاء مدينتنا وأحبائنا،

- وماذا ترى؟

- من بين ما أرى، أرى زحاما شديدا على مقبرة المدينة.

عدد من البيشمركة كانوا واقفين بين صخور كبيرة على قمة الجبل المطل على المدينة. ناول إبنه ناظوره الى رفيقه وغمغم بصوت خافت والدمع يندي من عينيه:

- ليتني أعرف من هو ذا الذي رحل من بيننا، أية دار حلت بها الخراب؟ أجابه أحد من رفاقه :

- لا تحمل هما، ستأتيك العصافير الليلة بالنبأ اليقين.

السماء هي هي والعصافير لما تزل تعزف لحنها، جبالك الشماء تشمخ وغيومك تصرخ نارا وتصب غضبها مدرارا والجلنار يتوهج جمرا. عصافيرك حزينة على أعواد القصب الخارجة من حافات سطح الدار تذرف الدمع دما وهي تحملق فيك وفي شجرة الرمان وحشد الناس والصمت في الباحة الإسمنتي. وكانت شجرة الرمان تتمايل ثم تنحني إثر الجلبة التي أحدثها طيران العصافير الجماعي ، حين رفعوك وأنزلوك ثلاثا ثم رفعوك عاليا.

(2) گورزو

لا تسمع في القرية سوى نعيق البوم ، الذي كان أول الفارين البارحة الى قمة الجبل المطل على القرية.

ترى آخر شعاع الشمس باهتا على أغصان الأشجار العارية وجدران الدور السوداء والحفر الكثيرة في أنحاء القرية التي تبدو كالقموع .

سرب من الطيور البيضاء يطير صاعدا هابطا بين الأرض والسماء يطلق من حين لآخر صرخة مدوية، فيما تتمرغ الشمس وسط أفق رمادي مدماة.

تزداد النيران على الجبال سطوعا كلما ذاب خيط من خيوط الشمس . يتداخل الظلام والنار، الدخان وشعاع الشمس السائر نحو الأفول في بعضها البعض لتشكل في النهاية مشهدا مرعبا.

حولت قذائف المدافع والهاونات القرية بمزارعها ودروبها وفناءات دورها الى منخل كبير. وبمجرد أن تنظر إليها ترى حفرا تشبه القموع ودورا طينية تربو على الستين دار ونيف في حضن جبل تحكي كل صخرة من صخوره قصة آلاف القذائف التي انهمرت كالمطر عليها وهي ما زالت كما كانت، لم تفقد حجمها ولا لونها ولم تفقد أيضا صوتها .

حيثما تجول بنظرك ترى جذوع أشجار البلوط وحبة الخضراء الضخمة، بعضها واقفة وبعضها ماتت واقفة ، فروعها العارية ممتدة كالأيدي نحو السماء مفتوحة مستغيثة .

(سهرنا كل الليل معا .. أنا والسكين وحجر الحد .. أنت والسفرة والأواني التي تتوسط الغرفة سحبت السكين لمرة واحدة فقط على عنق كلب ضخم فقطعته كما تقطعين خيار القثاء. فز الأولاد من الصوت، صرخوا وولولوا ومن هول الفزع أسرعوا الى خارج الدار وذابوا في ظلمة درابين المدينة. ساعدتيني أنت فقطعنا الكلب إربا إربا وملأنا الأواني حتى آخرها).

كانت زوجته تتفرس وجهه بعينين مرتابتين، سرت رعشة باردة في جسدها وقالت وهي تتنهد:

- ليكون الله في عوننا، حلم فظيع عليك أن تقصها لماء جار، تقصها لنهر الخابور، لقد اقترفت يداك آثاما لا تمحوها البحار ! إنني خائفة .. خائفة على أطفالي.

إنتشر رجال زرافات ووحدانا، يدلفون الدور الطينية ويخرجون منها دون إستئذان ذويها، تماما كما يفعله الأطفال أيام العيد فرحين مبتهجين.

" ويحي لم أكن أعلم .. أكياس معدودات لا يمكن أن تفي بالغرض " ، قالها أحد المقاتلين مع نفسه ، كان خشن المحيا، تتوسط جبهته وحاجبه الأيمن أثر كسر، كان في إحدى الكمائن قد رمى بنفسه من شاحنة الـ "إيڤا" وهوى على صخور ناتئة كالحراب. لا يقدر على فتح عينه اليمنى جيدا، لذلك يخيل لك للوهلة الأولى وكأنه بعين واحدة. عليه شارب كث بياضه يكاد يطغي على السواد فوق شفتين غليظتين تحت أنف مكسور مائل قليلا نحو جهة اليسار ، إسمه عبدالرحمن ويطلق الناس عليه " دحو الأعمى".

شد دحو اليوم في وسطه أحزمة ومخازن طلقات ورمانات يدوية حتى ملأت تماما السترة المرقطة العريضة التي يلبسها. يفكر الآن بدار لم تطأها قدم بعد، أصر على أن يدلفها قبل الآخرين، لكنه لا يتجرأ فللدار أهل وصاحب أو هكذا يبدو .

تتكون الدار من حجرتين متقابلتي الأبواب يتوسطهما أيوان مفتوح على فناء مسيج بالقصب، على مقربة من السياج ثمة صفيحة معدنية كبيرة عليها ثقوب مختلفة الأحجام، طارت من على قاعدتها المكونة من ثلاثة أحجار وقد جفت وتكسرت الساقية التي تبدأ منها الأحجار لتنتهي حتى خارج السياج. وعيدان القصب والكتل الطينية المتطايرة من الحيطان تغطي فناء الدار الملئ بالحفر.

في أرضية الحجرة اليسرى تتناثر لحف وبطانيات ووسائد حتى عتبتها، عليها تراب وقطع حصران وزجاج النافذة. تتدلى سراويل مرقعة لأهل الدار من مسامير على الحيطان، وأذا تطلعت الى الجهة المقابلة، ترى قرآنا بغطائه الأخضر يتدلى هو الآخر من مسمار .

تبدو خلال نافذة صغيرة قطعة من السماء رمادية حزينة، تطل على تلال حمراء جرداء وبساتين تبدو أشجارها بلون الفحم يتلألأ نهر الخابور وسطها كما لو أنه سيل من الفضة.

قرب النافذة طاولة صغيرة خشبية، على الطاولة غطاء أبيض طرزت على حافاته المتدلية نقوشا لطائر "القبج" وورودا بألوان قوس قزح. على الطاولة جهاز تلفزيون يعمل على بطارية للسيارات.

أما الحجرة الأخرى ففي ركن قصي منها هناك حمام قروي، عبارة عن دكة بنيت من الاسمنت في وسط الحجرة تلوح لك أواني وقدور مبعثرة تغطيها التراب. وفي زاوية من الزوايا ثم سرير عليه أكياس وقرب فيها شئ من الحبوب. وتقابل السرير نافذة صغيرة تطل على فناء الدار وحظيرة للأغنام . وإذا ما رفعت عينيك قليلا وتطلعت من خلال النافذة الى الخارج، ترى وعلى بعد سلسلة جبلية تلتهمها النيران.

عيناه تقابلان القرية ووراءه موقد أسود محترق، يفترش إسمنت الأيوان واضعا عنقه فوق قوائمه الأمامية وفي عينيه دموع بلورية تحكي جوانبا مما جرى للقرية.

مرت في صفحة خياله حوادث البارحة واليوم واحدة في إثر الأخرى، زايله الإعياء، كاد يختنق من شدة الغيض.

عيناه كالرادار ترقبان القرية زاوية بزاوية، يغالبه النعاس لكنه لا يقدر على النوم فرائحة الغرباء تملأ أنفه. لم يهدأ له بال منذ البارحة وهو متوزع الخطى بين القرية ومقبرتها يولي وجهه شطر قبر من قبورها، يفترش الأرض جواره، يذرف دموعا حارة، ينهض يحوم حول القبر، ثم يقفل راجعا كالمتقهقر منكس الرأس يسرع الخطى الى حيث الدار .

فقدت عيناه صور أحبائه وأنفه يبحث عن الروائح الضائعة، روائح أحبائه، رائحة الدهن المقلي، رائحة الغنم والروائح التي كانت تفوح من التنانير. عيناه لم تعد تقرآن أشكال وألوان دور القرية والأحجار والأشجار والطيور كما عهدهما.

إسمه " گورزو " (هذا الإسم قفز على لسان صاحبه ذو الجوخ الأبيض حينما لمح گورزو وللوهلة الأولى من بين عدد من الجراء في خربة بطرف من أطراف القرية، فإختار لنفسه .. كانت الجراء تلعب وتمرح وكان گورزو أشدهم بأسا ، فضربة واحدة منه كانت كافية لهزيمة من يباريه).

كان رأسه كثير الشبه برأس الذئب وشعره بشعر الدب القطبي، فشعره طويل أبيض كالثلج تتخلله بقع سوداء مختلفة الأشكال. تتوسط أحدى عينيه بقعة من هذه البقع، أما ذيله فشبيه بكف عصا الرعاة مقوس نحو الأعلى. حينما كان يهزه تبدو نهايته كما لو أنه رأس حية سوداء.

بين عينيه الصفراوتين الغامقتين وأذنيه المستقيمتين المتجهتين الى الوراء قليلا، ثمة بقعة سوداء، إذا ما سمح لك گورزو أن تطلع في وجهه مليا ، فتبدو لک تلك البقعة كأنه نسر منقض.

خلف گورزو آثار جروح على أجساد كثير من الناس والحيوانات بمن فيها حيوانات أقوى وأضخم منه، لكنه لم يهدر روحا في حياته قط ، لا لكونه لايتجرأ على فعل ذلك ، إذ يبدو من سيماه حينما يبلغ به الغيض أشده فانه لا يعرف التخاذل. هكذا رباه صاحبه صغيرا.

كان يهوى الجري وراء السيارات ينبح حتى تتعب حنجرته. وحينما كان صاحبه يلبس چوخه الأبيض ، حاملا بندقية الصيد كان يجري أمامه فرحا جذلا، ثم يعود جاريا نحوه رافعا قوائمه الأمامية يطلق صوتا ينتزع الإبتسامة من شفتي صاحبه. كان يقاسم أهل القرية الجوع والبرد والخوف، وكانت الصخور تعرفه والجبل والثلج وأوكار النجاة من القصف المدفعي وقصف الطائرات .

لايدع الحزن عينيه الشبيهتين باللوز تجفان من الدمع ، يعرف هو أيضا حجم الكارثة، فله ككل أهل القرية تجربة مع ما يجري من تغييرات على الأرض وعلى السماء، مع كل شيء سواء كان حيا أم جامدا، مع المقبرة لا سيما قبر أحب الناس اليه ، قبر ذي الچوخ الأبيض.

كان گورزو صديقا حميما لجل أهل القرية، فحين كان الأولاد الصغار يلعبون ويمرحون معه كان يدور حولهم يهز ذيله الشبيه نهايته برأس الحية ويحرک أذنيه، يشم سراويلهم المرتقة، ثم يشخص المخاط الذي يتدلى من مناخيرهم الحمراء بعنق مشرئب وحواس مرهفة .

أما نساء القرية فكن ينظرن اليه بعيون ناطقة وهن يستعدن لإعداد الخبز على التنور، كن ينادينه فيهرع اليهن، يهز ذيله المقوس ويخرج لسانه الأحمر اللامع من بين أنيابه. ويزددن فرحا وغبطة حين كن يقذفن له فتات الخبز في الهواء فينطلق نحوها ويلتقطها بحركات بهلوانية. كانت السماء تذرف دموعا ناعمة، الريح يضرب فروع الأشجار فيصدر منها أنينا .. يصدر لحنا حزينا.

صارت أذنا گورزو تؤديان دور صندوق الطائرات الأسود، لم يدع هذا الصندوق صوتا لم يسجله، من صوت الإنفجارات، الصراخ، الإستنجاد، البكاء، أنين نهر الخابور، لغة غريبة عنه لا يفهمها، وحتى آخر الكلمات التي سقطت من شفتي صاحبه. وأما عيناه فغدتا آلة تصوير سجلت مناظر تقشعر لها الأبدان . كل ذلك زادته آلاما وإعياء، بيد أنه ما فتئ قويا صامدا لا بل أقوى من ذي قبل.

كا ن دحو الأعمى قد ترك سيارته البيكاب الى جانب سيارات وشاحنات أخرى مرقطة بلون سترته في مساحة وسط عدد من أشجار البلوط المحترقة من الناحية الجنوبية للقرية .

ملأ سيارته بأكياس من غنائم سرقها من الدور نصف المحترقة والتي لم تحترق بعد وغطاها بإحكام بخيمة لكي لا يسرقها منه رفاقه. ثمة دور لم تطأها قدم بعد .. أصوات تعلو من جميع أنحاء القرية تألف آذان گورزو بعضا منها أما البعض الآخر فغريبة تماما لديه. أحذية المقاتلين الذين يحملون أكياسا على أكتافهم تدق درابين القرية.

التفت گورزو فراعه أن رأى أحد المقاتلين على بعد بضع خطوات من سياج دار صاحبه ذي الجوخ الأبيض، ممسكا بيد عمامته وباليد الأخرى رشاشه الكلاشينكوف وهو يجري في أعقاب معزة ملأت صراخها أرجاء القرية.

صارت أحشائه كتلة من اللهب، نهض من على إسمنت الأيوان، حرک أذنيه، هز ذيله بعنف، كشر عن أنيابه ثم أطلق صيحة وإنطلق بكل ما في قوائمه من سرعة.. دنا من المقاتل.. توقف.. إختلط نباحه وصرخات المعزة .. هجم عليه .. تراجع المقاتل .. إنحنى الى الأرض .. إلتقط حجرا .. إستقام وبكل ما أوتي من قوة ألقمه الحجر فأصابه في ظهره . أطلق گورزو صراخا يصم الأذان .. دار حول نفسه لمرات ثم هوى وأظلمت الدنيا في عينيه .. نهض .. لم يقدر .. سقط على مؤخرته وضرب بقوائمه الهواء.

إستجمع قواه .. نهض.. إستعاد توازنه .. جعل ينبح ثم جرى في أعقاب المقاتل الذي فرّ مطلقا ساقيه للريح .. تعثر على صخرة فهوى.. نهض .. جرى .. تاركا وراءه عمامته ولم يتجرأ الالتفات وراءه حتى وصوله الى حيث مكان تجمع السيارات جنوبي القرية.

راح يعبث في كل شئ، الفراش، حقائب الملابس، قرب الحبوب، الأكياس، الأواني، ومن فرط خوفه من گورزو عملت يداه بسرعة لم تعهدها من قبل ! وأخيرا عقد زوايا الغطاء الأبيض على جهاز التلفزيون بضع عقد باحكام ثم رفعه الى كتفه الأيمن. وهو يهم بالخروج من الحجرة لاحت له آذان گورزو الذي إنسل لتوه الى فناء الدار ، كان يلحس جرحه منظفا الدماء منه . حدق فيه دحو الأعمى بطرف عينه اليسرى المتسعة على آخرها .. حرك گورزو قصبة حنجرته وإنفجر حقده الأكبر!.

(ماذا لو أعمل فيه حربة البندقية واقطعه إربا إربا.. أو أن أفرغ في جسده مخزنا من الطلقات بكامله .. يا ترى من يقل لي لم فعلت .. لا لا .. لن أفعلها .. لا أتجرأ .. ينبغي أن أصدع بما أمرت.. إذ قيل لنا إياكم أن تخرج رصاصة من فوهة بنادقكم.. ومن تلقون القبض عليه، عليكم إيصاله إلينا سالما ! ماذا سيفعل ؟ لينبح ما يشاء .. ليشق حنجرته .. دقائق معدودات وسيبلغ به التعب أشده فيجلس على مؤخرته منهوك القوى لا حول له ولا قوة).

جرت الدماء سعيرا في أوردة گورزو وشراييه .. إنتصبت جل عضلاته .. عمل بقوائمه في تراب إحدى الحفر .. إستجمع قواه كلها في أنيابه القوية الحادة .. إشتد نباحه .. إزدادت سرعة ضربات قلبه .. راح يهز ذيله أعنف من ذي قبل.. إتسعت حدقات عينيه الى آخرها .. بلع ريقه فأحس بمرارة طعم فيه .. خطى خطوة الى الأمام .. تراجع دحو الأعمى خطوتين وفكر العودة الى الحجرة التي بارحها قبل لحظات .. غير فكره .. إنحنى واضعا البندقية على الأرض .. حول التلفزيون الى الكتف الآخر .. إنحنى .. إلتقط بندقيته وبيد واحدة وجه فوهتها باستقامة گورزو .. خطى خطوتين بحذر وجزع شديدين (لقد عزمت على ألا تخلي سبيلي ايها الملعون، أليس كذلك ؟ والى متى سأبقى على هذا الحال ؟ لا لن أفعلها ، سأبرح المكان وليحدث ما يحدث).

وما أن خطى خطوة أخرى حتى جعل گورزو يرفع رأسه وينزله ، يحرك قوائمه في كل الأتجاهات.

الريح ينقل صوته الى الكهوف وأوكار النجاة من القصف المدفعي وقصف الطائرات خلف الجبل المطل على القرية ، تلك الكهوف والأوكار التي لم يدم بقاؤه فيها غير ساعات قليلة مع أحبائه من أهل القرية ، فتركها وقفل راجعا الى القرية. نفذ صبره وإنطلق كالسهم باتجاه دحو الأعمى وغرس فكيه في ساعده الممسك بالتلفزيون وسحبه بكل قوة .

وقعا على الأرض وجعلا ينقلبان على جسدي بعضهما يتمرغان في تراب الحفر. لم يجد گورزو حيلة في ثنيه أو فعل ما هو عازم عليه لثخن السترة المرقطة التي كان يلبسها فتركه وإنسحب خطوات .. حاول دحو الأعمى النهوض .. إستقام .. قدماه لم تعد تستقران في مكان، جعل يدق الأرض بكل إتجاهاته كالسكارى.

لم يكن قد عاد الى توازنه بعد عندما هجم عليه گورزو مرة أخرى .. أطلق دحو الأعمى صرخة لم تتعد سياج القصب .. أحس بحرارة زفير گورزو المخبول وبحدة أنيابه .. تصارعا فملآ فناء الدار ترابا وغبارا وكأن قذيفة أخرى إنفجرت لتوها هنا. أمسكه گورزو في هذه المرة من موضع لم يدع له مجالا لأن يفكر ثانية في الأكياس، أو في حلمه ليقصها لنهر الخابور ! الشعر الثلجي الذي يشبه شعر الدب القطبي ودحو الأعمى بسترته المرقطة، التلفزيون ورسوم طيور القبج والورود والأزاهير المنقوشة وعلبتان من سيكاير بغداد .. رزمة من الدنانير الحمراء والزرقاء الداكنة إصطبخت جلها بلون الدم ولون التراب . فيما لا يزال گورزو ينبح .. ينبح وتنبح معه الأودية والجبال.

لم يكن قد نبح هكذا من قبل ! وفي كل مرة كانت قطرات دم حارة تتطاير من بين أنيابه .

ما بعد الحداثة و تأريخ الأفكار

كتابة : كريس لانغ
ترجمة : معين جعفر محمد

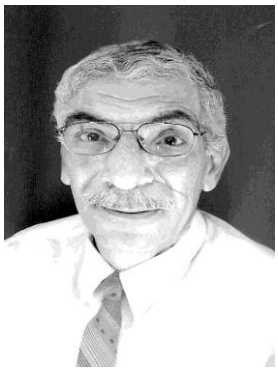

معين جعفر محمد، من مواليد 1954- المسيب/محافظة بابل، وهو شاعر وناقد و أديب مترجم. بدأ النشر في مطلع السبعينات، وله العديد من القصائد المنشورة في مجلات متخصصة. كتبَ العديد من الدراسات النقدية التي نشرت في مجلات محلية و عربية حيث درس شعراء عديدين. هذا فضلا عن دراسات مترجمة أخرى نشرت في مجلات متخصصة كالأقلام، الثقافة الأجنبية. يعمل حاليا مدرسا للغة الإنكليزية في التعليم الثانوي في الحلة.

(في جمهورية الزمالة العلمية ، لكل مواطن حق دستوري في إضاعة نفسه كليا على النحو الذي يريحه)

ديفيد هاكيت فيشر

(هناك هي ، خفة الكائن التي لا تحتمل)

ميلان كونديرا

إحدى المقاربات في تفحص ما بعد الحداثة، تضع مرتسما دقيقا للتغيرات الحاصلة في الفلسفة أو في تأريخ الأفكار. من هذا المنظور، تُرى الحداثة ظاهرة تشدد على عقلانية قائمة على أساس التخطيط الكوني أو المفهوم الذي يسبغ نظاما على واقع تمكن معرفته من خلال منهج مناسب، أي: منهج علمي. كذلك هي تشدد على إيمان تفاؤلي باستثنائية الجنس البشري و قدرته على التقدم. ومن جهة أخرى، تؤكد ما بعد الحداثة الافتقار إلى أساس في المعرفة، إلى حالة تجذر للفهم في اللغة و المحيط ، وكذلك إلى نبذ للفكرة القائلة بأن " الإنسان " في مركز الكون. و بطرائق عديدة، من الممكن رؤية ما بعد الحداثة بصفتها امتدادا للحداثة، سيما وإن أفكار الواحدة منهما متجذرة في الأخرى. سأحاول تقديم خلاصة وجيزة لهذا الطرح، فيما يأتي.

من التنويرية إلى الوجودية : الوجود فوق الماهية

كثيرون هم الذين يعزون ظهور الحداثة في الفلسفة إلى معالجة ديكارت لأصلية الشك. وكان قصده ينصب في وضع المعرفة على قاعدة أساس مضمون. وابتغاء تحقيق هذا، أبدى ارتيابه – منهجيا – من كل ما كان يشعر بأنه عارف به، واكتشف أن كل الأشياء، تقريبا، يمكن التشكيك بها. انتهى (ديكارت) من شكه ، أو وجد قاعدة وطيدة أقامها على الأساس الواهي لوعيه هو. كان إدراكه الذاتي الباطن هو الشيء الوحيد الذي بات متيقنا منه. وتعد مقولته " أنا أفكر، إذن، أنا موجود (I think therefore I am) "هي إعلانه النهائي. وبينما كان قصده العثور على يقين في المعرفة، غيّر ديكارت تغييرا جذريا الإبستيمولوجيا (نظرية المعرفة – المترجم) وذلك بتقديم شكه علمي المنهج (methodological doubt) وهذه عملية قلما كانت تنتهي حيث كان ديكارت قد انتهى.

ومع قلة من اتفقوا مع (ديكارت) على تأكيده هذا، فلا أحد نجا من التأثر به. لقد بدأت ملكة تفكيره بإحداث نقلة في الطريقة التي كان الناس يدركون الواقع و يختبرونه بها. وهكذا جاء المثال الجدلي الحديث مستصحبا معه بحثا عن موضوعية قائمة على أسس واهية من الوعي الفردي. يتمثل (كيركيغارد)، بحدة ملاحظة هذا الانعطاف الذاتي في وقت مبكر عام 1843 وذلك في منشوره الموسوم : (الذعر و الارتعاد) (Fear and Trembling)

إذ يقول: "ما صرخ ديكارت: حريق ! وجعل الشك واجبا على كل فرد، فقد كان ديكارت مفكرا هادئا ومستوحدا، وليس خفير شوارع جئار؛ كان متواضعا بما يكفي للتسليم بأن منهجه كان هاما [لشخصه فقط] (المعقوفتان من عندي – كاتبة المقال)، و نشأ – إلى حد ما – عن لهوه الشخصي المبكر بالمعرفة. (وهكذا ليس هدفي هنا تعليم المنهج الذي ينبغي على الجميع أتباعه من أجل الارتقاء بالبلوغ الأمثل للعقل، بل لأبين، فقط، بأية طريقة قد سعيت لكي أبلغ عقلي أنا.. "[1].

هذا بينما سيحاول (هيغل)، لاحقا، شمول الواقع كله في نظامه، وطبقا لكيركيغارد كانت نوايا ديكارت أشد تواضعا بكثير إن التحول الحاصل في المنهج الإبستيمولوجي و اليقين، لهو في صميم ما يشار إليه بصفته حداثة وما بعد حداثة.

لقد توخى المشروع التنويري (The Enlightenment project) استبدال التجلي السماوي بالعقل البشري، وكان المذهب التجريبي (Empiricism) والمنهج العلمي ينظران (بصيغة المبني للمجهول – المترجم) وسيلتين لا تضاهيان لإحراز بلوغ للحقيقة التي تعتبر جديرة بأن تعرف ضمن هذا المثال الجدلي. كانت الذات الفردية الإنسانية تتخذ طور مركز. على أية حال، في عالم ما بعد ديكارت أصبحت المعرفة تدرك بصفتها سعيا ذاتيا بازدياد مطرد، و هذه مفارقة سيما وإن ديكارت كان يتوخى جعل المعرفة تستقر على أرضية موضوعية. أما (لسلي نيوبيجن) فيرى الذهنية التنويرية متابعة لا هوادة فيها للمنهج النقدي. يقول نيوبيجن: " لكن المنهج النقدي لا بد من أن يدمر نفسه في خاتمة المطاف، فلا يمكنك انتقاد تصريح من نوع يدعي أنه الحقيقة، إلا على أساس ادعاء آخر بالحقيقة بحيث تسلم به – إبان تلك اللحظة – دون نقد. ولكن ذلك الادعاء بالحقيقة الذي يقوم نقدك على أساسه، تبعا لذلك، لا بد من أن ينتقد هو أيضا "[2]. وعلى الرغم من كون العقلانية باتت سائدة من زمان ديكارت حتى زماننا نحن، فهي لم تكن بلا منتقصين منها. وتعد الحركة الرومانتيكية في الأدبين الإنجليزي والألماني واحدة ممن حطوا من شأنها. وكرد فعل ضد جدب و مكننة الحياة برمتها، و بضمنها الحياة الدينية ، بشهادة الربوبية ..(Deism) فقد توخى الرومانتيكيون تأكيد الطبيعة الديناميكية للكون بالتغاير مع النظام العقلاني البارد [3]. وأكدت الرومانتيكية ثانية المكانة المركزية للذات الفردية وتوخت تحرير العقل اللاواعي.

أما الوجودية Existentialism فتعد شكلا آخر من التمرد ضد العقلانية وتشاطر الرومانتيكية بعدد من أوجه الشبه في هذا الصدد. يقيم (فردريك كوبلستن) هذا الوضع تقييما بديعا إذ يقول : " توخى هيغل أسر الواقع برمته في شبكة من مفاهيم فكره الديالكتيكي، في حين انسل الوجود فالتا من خلال عيون الشبكة " [4]. لقد أبدت الوجودية رد فعل ضد أي

نوع من النظام الكوني أو المطلق الأخلاقي (وضد نظام هيجل الميتافيزيقي على نحو خاص) الذي يقف فوق الذات الفردية. يوجز العالم النفسي الوجودي رولو مي هذا الوضع بذكاء شديد إذ يقول :

" تعني الوجودية تمركزا على الشخص الموجود (existing person) ، إنها التأكيد على الكينونة البشرية وهي قيد الانبثاق ، قيد الصيرورة. تأتي كلمة " وجود [existence] " من الجذر [ex – sistere] الذي يعني حرفيا

[to stand out , emerge] يبرز، ينبثق.

على صعيد تقليدي في الثقافة الغربية، باتت القاعدة أن الوجود فوقي بالتغاير مع الماهية، ولكون الأخيرة تأكيدا على أمور من نحو: مبادئ ثابتة، حقيقة، قوانين منطقية..الخ، فهي يفترض أن تقف فوق أي وجود معطى "[5]. في أعقاب الوجودية، يكتسب الوجود أولوية على الماهية مع التأكيد، بالدرجة الأولى، على تحقيق الفرد لوجوده أو وجودها من خلال اختيار ما. تختبر الحقيقة بصفتها عاطفة باطنية أو الاسترداد لكينونة تعد ضدا لمبدأ ثابت. و كما عبّر عن هذا (كيركيغارد) ، فإن " شكا موضوعيا مسيطراً عليه بإحكام في عملية استحواذية من عمليات الباطنية الأشد عاطفية.. هو الحقيقة، الحقيقة الأعلى التي يمكن إحرازها بالنسبة إلى فرد موجود " [6]. يعن لي أن أحاجج بأنه إلى المدى الذي قد نجحت معه الوجودية في الإطاحة بالكوني أو " الماهية "، كانت النتيجة اندثار فكرة " الحقيقة المطلقة ". على أية حال، فإن فقدان الماهية ينتج عنه، في خاتمة المطاف، فقدان وجود محصلته " خفة الكائن التي لا تحتمل " [7].

أي كائن لم يعد ذا معنى. ومن الطبيعي أن تفضي هذه الحالة إلى نسبية فلسفية، وهذا ما بالغت به نظريات اللغة التي تأتي لاحقة. بهذا الصدد، يتوصل (جينيه إدوارد فيث) إلى استنتاج صائب إذ يقول: "إن الوجودية هي الأساس الفلسفي لما بعد الحداثة "[8].

بصفته منظِّرا أدبيا لما بعد الحداثة، يبدي (ستانلي فيش)، هو الآخر، اعتمادا على الفكر الوجودي ومنه فكر غادامير في كتاباته. ومع أن توكيده على ما يفعله النص بإزاء ما يعنيه ، قد يكون مدينا، في المقام الأول، للمذهب البراغماتي، فإن فكرة كون " المعنى واقعة " هي فكرة وجودية بالكامل. يظهِر فيش الأولوية الوجودية للوعي الإنساني لكون هذا الأخير مأتى بروز الفرد الموجود، و ذلك بتركيزه على الخبرة. و غالبا ما يميز المعنى بصفته خبرة متعارضة مع ماهية أو حقيقة، هي في وضع مستقل عن القارئ الفرد. " فيما يتعلق بالإجراءات ، أود أن أحاجج بأن فعاليات القارئ في مركز الاهتمام ، حيث لا تعتبر مفضية إلى معنى بل حاملة معنى في ذاتها" [9]. و يدلي بتصريح غير منمق بخصوص طبيعة الإنسان من طريق مقارنة بين المقاربة الأسلوبية (الشكلانية) التي هي متجذرة في المذهب التجريبي والفلسفة الوضعية [positivism]وبين مقاربته هو، معلنا أن الأولى لا تستحق الجهد " لأنها تنكر على الإنسان واحدة من أشد قدراته جدارة بالاعتبار، ألا وهي قدرته على إعطاء العالم معنى بدلا من اقتباس معنى جاهز في حيز الوجود " [10]. يشعر (فيش) ظاهريا بأن حريته الفلسفية مهددة من قبل أولئك الذين سبقوه من شركائه في المهنة.

بيد أن من الممكن رؤية جزء كبير من موقف فيش التنظيري بصفته رجعيا، وذلك إذ ينظر إليه بالتغاير مع الستارة الخلفية لمسرح ما بعد الحداثة الفلسفية، التي أعني بها المشروع التنويري بتوخيه يقينا مطلقا وموضوعية علمية. في تفكير فيش، ومعظم المفكرين ما بعد الحداثويين، أيضا ..

تعد الموضوعية وهما أتت به التنويرية التي غالبا ما يلام (ديكارت) عليها. وإذ يقف الوجود فوق الماهية، إذن فإن الماهوية [essentialism] أو التأسيسية [foundationalism] كما يطيب لفيش أن يدعوها .. تفقد استقلاليتها وتصبح معتمدة على خبرة الفرد. يدعي فيش بأن أسلافه الشكلانيين كانوا يزعمون وجود " حقائق جديرة بالملاحظة

يمكن وصفها وتأويلها " [11] . و لكنه يحاجج بأن ما يعد حقيقة إنما هو مقرر في حد ذاته بوساطة الافتراض المسبق في ذهن القائم بالتأويل وتبعا لذلك ، يوهن الإجراء بكامله .

في مقالة نشرت في أعقاب ذلك ببضع سنين، نجد فيش (الذي لا بد من أنه حظي بالإطراء لامتلاكه شجاعة أن يكون منطقيا ثابتا على المبدأ ، حتى لو كان الأخير غير منطقي) يقر بعجزه جملة و تفصيلا بشهادة من ضمنها حجة يمكن أن تدعم موقفه، " ولكن هذه الإمكانية لإعطاء حجة هي ذاتها التي تستنكر [في هذه الورقة] ....لقد قاطعت أية استعانة بأية إجراءات برهانية " [12] . عند هذه النقطة، يتساءل المرء : ما الغرض من نشر أوراق إن لم يكن طرح آراء ومناقشات والشيء نفسه ينسحب على سوق البراهين؟ إنه لرأي فيش أن الموضوعية وهم؛ أما عن سوقه ادعاء بالنسبية، ففي أي حين يحاجج المرء بغية تثبيت موقف، نجده عندئذ يراهن على ادعاء بالمعرفة، وفي أي حين يراهن المرء على ادعاء بالمعرفة، فإن ادعاء بالموضوعية أو الحقيقة يكون محمولا ضمنيا .

هوامش

1. كيركيغارد، **الذعر و الارتعاد**، ص 42

2. يسفر نيوبيجن هنا عن افتراضاته الإيمانية بصورة غير تامة خلافا لكثير من مفكري ما بعد الحداثة – ص 29 /قارن : فيتغنشتاين، " تحريات فلسفية Philosophical Investigations] ص 41 " قد يبدو ببساطة كأن كل شك يكشف عن فجوة في التأسيسات بحيث لا تتأتى إمكانية تحقق فهم مضمون إلا إذا شككنا ، أولا، بكل شيء يمكن التشكيك به، و بعدئذ نبدد كل تلك الشكوك " و يقول في مؤلفه " في اليقين " : " إذا ما حاولت أن تشكك بكل شيء فلن تبتعد كثيرا عن مجرد التشكيك بكل شيء. إن لعبة التشكيك نفسها تفترض ضمنا وجود يقين. " – ص 115. يتناول فيتغنشتاين مقاربة عملية بتحريره تأسيسات اللغة و الفكر في " أشكال حياتية "

3. شف كومار ، **نحو نظرية للرومانتيكية : شعراء رومانتيكيون بريطانيون**، نيويورك، مطبعة جامعة نيويورك، 1966 – ص 6.

4. كوبلستون، المجلد الخامس ، الفصل التاسع – ص 335 .

5. رولو مي، أبراهان ماسلو، **سايكولوجيا وجودية**، دار راندوم، نيويورك ، 1961 – ص 16.

6. كيركيغارد ، ص 42.

7. في سياق استجابته لأحد تعليقات نيتشة ، قال ميلان كونديرا عن كتابه : " خفة الكائن التي لا تحتمل " : إن ينعدم وجود إله و لم يعد الإنسان سيدا، من السيد عندئذ ؟ إن الكوكب جارٍ في الفراغ دون أي مسيطر . هناك هي ، خفة الكائن التي لا تحتمل " اقتبسه فيث في " قراءة بين السطور – [Reading Between the Lines] ص 209 ، أنظر كونديرا : ص ص 5 – 6

8. فيث ، **عصر ما بعد الحداثة** ، ص 38.

9. أنظر فيش، **هل في هذا الصف نص ؟**، ص 158 ؛ قارن : ص28 ، ص33 ، ص 65 و ص159 .

10. المصدر نفسه : ص 86

11. المصدر نفسه : ص 94

12.المصدر نفسه : ص 177

طرقات على باب العذراء

الفريد سمعان

لأنك الحنون
والطيبة .. الطيبة
البتول
لأنك الطهر الذي
تلثمه الشفاه في خشوع
لان سيد المخلصين
ينتمي إليك
يا زهو نساء الأرض
يا سيدة النجاة
يا مسلة العفاف
يا عذراء
تلوذ خلف سرك المعبود
أروع الأسماء
وتهبط النجوم من أعشاشها
لتستقر حول العنق الأمير
قلائداً من الشذى
ضفائراً من القناديل
ترتدي السهول
رذاذ بعض ما تركت
من مساحب الدمع
على ارض المقدسات والرجاء
****
يبتهل الشاعر
والشمس تدير وجهها
عن المراعي والمهود
يصارع الطوفان
يقلع الأدغال
من محفة الورود
يشد سره الذبيح
يدعوك صوته الذي
تقرحت أوتاره
تقتله لوائح البطش
وتنهال على
مروجه
موجات عصر مظلم

ترصده مخالب الرعب
وأقزام..جراد
تنم عنها لغة المكابرين
ينسجها ملوثون
وغاطسون
في مستنقعات الإثم
أدعياء
تطل من عيونهم
روائح العمر...وصبار الرياء
تضيع في كهوفهم
أنامل الحب وأشجان الحداء
وتفقد الحقائق البيضاء
لون صدفها
فيصبح البستان
بيداء
ويغدو الزهر
أشواكاً
وصمت الليل أعراسا
تراتيل
ونور الفجر
أشباح مساء
****
الأرض مازالت
كما نعرف
بيتاً للجميع
خميلة للمتعبين
مائدة عامرة للجائعين
فراشها التراب
والأعشاب
سقفها النجوم
والطير والسحاب
في رحابها تحوم
تنعم بالدفء
ويقتات الحصى والدود
في حقولها الخضراء
تمتد الكروم
تحرسها من صفعة الشمس
ومن تمرد الرعود

والريح السموم
هل نترك الكروم
للفؤوس.. والخناجر السوداء
يا سيدتي العذراء
أم نحمي الكروم..!؟
****
يرضيك
يا أيتها السيدة البتول
أن ترتدي الغبار...والهوام
أبدان النخيل
ويلطم الجفاف.. والأملاح
وجنات الحقول
ويرفع القرصان
رايات التحدي
برهة
ويرتدي البرقع
عندما تغير الرياح
ثوبها
ويستغيث
وتعبر الأيام
تشتد تباريح الفصول
وتنزوي الأغصان
كي لا تقتفي
ظلالها الورقاء
أنياب الذبول
ويدخل الإعصار
أرحام البساتين
يثير الرعب
بالرعب
يواري العشق
يجتث جذور اليأس
والزيتون
يغتال الترانيم
وتنصب على مرافئ البهجة
من تل النفايات سيول
رحماكِ
يا سيدتي
في كل يوم

يعلن الناقوس
عن مقتل الخيول
****
اليوم
يا سيدتي
تدافعت نحو الكنائس الخطى
ورفرفت في المذبح الذاهل
أضواء الشموع
واستنفر الصليب.. والرهبان
غفران الدموع
كانوا رجالاً
صارعوا الحرمان
والذل
وضاعوا في دهاليز العذاب
تحلقت حول صحون العسل
الشهي.. ارتال الذباب
وأصبح النور أسيرا
في سراديب الضباب
كانوا شباباً يلهثون
وشم من اليأس على نحورهم
وفي شفاههم دعاء
أن تخمد الأمطار
تفور الحروب
ويهجر الدخان
شرفات السماء
أن يصبح الحب رداء
لكل إنسان
وان تصمت حتى ابد الدهر
كوابيس الفناء
****
كانوا صغاراً
يضرعون
ألا تطول غيبة الآباء
عن ديارهم
أن يركب الأسرى
قطارات الرجوع
ويصمت النحيب...والآهات
تفرش القلوب

بشائر العودة
ترتاد شرايين النساء
الصابرات
وتملا الهلاهل
البيوت
****
تجئ من أقصى فيافي الشوق
ضجة المعذبين
قوافل من الخطاة
محمولة على شراع الأمنيات
تجئ في حقائب الأحزان
تحتل القطارات الشغوف
بالرحيل
وفي بطاقات البريد
تجئ من سرادق التوبة
يا سيدة النجاة
يا نبع الحنين
تصطاف في بساتينك المضياف
تقتات على يبادر الدعاء
يورق العفاف
على يديك
يرتمي ظل الزمان
حتى الزمان.. يكتوي
هذا الزمان
تقطعت أنفاسه
يجري بأقدام اللهاث
من شارع لشارع
من مرفأ.. لمرفأ
من جثة .. لجثة
من مفرق .. لمفرق
يخذله الدمع
يدور في خرائب الزحام
تضيع من مشاتل الزحام
ويشحذ البسمة
من مرافئ الجنان
من يمنح الغفران
يا سيدتي البتول
من يأوى الصدى التعبان

من يلامس الجراح
أو يقارع الغربان
عندما تلقى ظلال ثوبها الداكن
تخفي غابة الورد
وأصداء الرجاء
وينزل السكين
يغتال فوانيس الفرح
****
علمت يا سيدتي
من رحلة العمر التي حصدتُ
شوكها
في عصرنا الموبوء بالآثام...إن زمرة
من الخطاة .. يمرحون
والأنبياء
يقتلون

******

يوميات مدينة

(الجزء الأول)

عبد الستار نور علي

عبد الستار نور علي، من مواليد بغداد/ باب الشيخ، خريج كلية الآداب . جامعة بغداد . قسم اللغة العربية، عمل في سلك التدريس لمدة خمسة وعشرين عاماً. يكتب الشعر والمقالة النقدية والسياسية والترجمة في الصحف والمجلات العراقية والعربية منذ عام 1965، وعلى مواقع الانترنيت المختلفة حالياً. وهو مقيم في السويد منذ عام 1992 حيث اصدر: على أثير الجليد

(مجموعة شعرية بالعربية والسويدية)، في جوف الليل (شعر)، بابه الشيخ (مقالات)، شعراء سويديون (دراسات ونصوص)، جلجامش (ترجمة لمسرحية شعرية للشاعر السويدي أبه لينده).

الإهداء

سلاماً أسكلستونا!

سلاماً بغداد!

سلاماً شظايا جثةٍ ممزقةٍ

في الشوارعْ!

سلاماً أحلامَ اليقظةِ!

سلاماً أحلامَ النومْ!

لقد ارتدينا رداءَ الليل وهماً أنه النهار

فتسلينا بلعبةِ النومِ

لنستيقظَ في الشوارعِ الخلفيةِ

بالمدنِ الامبريالية

الكافرةِ !

*** الثلاثاء 15 سبتمبر 2009**

الساعة الحادية عشرة صباحاً

أخافُ أنْ ألقي رؤوسَ اصابعي

فوق الحصى،

الأرضُ تحتضنُ السجائرَ

تحتسي أثرَ الشرابْ

نَفَسَ الترابْ،

الحديقةُ في شعاع الشمسِ تغفو

في دُخانِ ثمالةٍ

منْ كأس هذا اليومْ،

الصمتُ يُطبِقُ ضربةً

منْ جمرةٍ سقطتْ

على صوتِ خريرِ النهرِ

ينسابُ إلى البحرِ،

وحيثُ سفينةٌ منْ سندبادِ الريحِ

تنتظرُ الرؤوسْ،

هذي القصيدةُ قطعةٌ

منْ بوح ميدانٍ تساقطَ خيلُهُ

في ساحةِ الرجعِ القديمِ،

وسمّرتْ أنفاسَها

عندَ انغلاقِ البابِ

في بلدانِ أسوارِ الكلامْ،

*** الثلاثاء 15 سبتمبر 2009**

الساعة الرابعةَ عشرةَ

ذاكَ الثمِلُ النائمُ فوقَ العشب الأخضرِ

ما بينَ دخانٍ يمتطي الأغصانَ

في هذي الحديقةِ،

والخليلةُ قربهُ

لا تعرفُ التاريخَ ، لا الجغرافيا،

ولا مناخَ اليومِ،

تنظرُ في فراغِ الروحِ

لا تدري الذي يجري على الأرضِ

ولا العشبِ،

ولا النائمُ بالقربِ اليها يعرفُ القصةَ،

كيف التقيا جوارَ هذا النهرِ

تحت الشجرهْ،

كيف استذاقا البيرةَ الحارةَ

من فوهةِ العلبةِ،

كيف انتشيا

غابا معاً وسط دخانِ العالمِ التائهِ

منذ ايامِ سيدوري،

عرباتُ أطفالٍ تمرُّ

وأمهاتٌ يرتدينَ الحبَّ والضحكاتِ

عطّرنَ الطريقَ بهمهماتٍ وأحاديثَ

عن الشمسِ التي سطعتْ بهذا اليومِ

تمنحُ منْ حرارتها حكايةَ

كيفَ أنّ الجلدَ يحترقُ،

وكيفَ الكلبُ ينطلقُ،

وأخبارَ الرجالْ

والعملْ،

وتعريْنَ على العشبِ، اضطجعْنَ،

وغسلْنَ الجلدَ منْ صدأ المَللْ،

وشبابٌ مثل فلقاتِ القمرْ،

وقفوا في الناصيهْ

بشرابٍ من كسلْ!

*** الثلاثاء 15 سبتمبر 2009**

الساعة الخامسةَ عشرةَ

بين رفوفِ الكتبِ الباسطةِ الأفياءَ

نساءٌ ورجالٌ في رحابِ العينِ يمتشقونَ

أخبارَ النهارِ من الجرائدِ،

والموائدُ رحلةُ العمرِ الطويلةِ

في صدى الصفحاتِ ،

في الزاويةِ المشرقةِ الأركانِ

المصباحُ منْ ضوءِ النهارِ،

وأنا ما بينَ يابانَ ورومانيا

وشِعرِ القيصرهْ (1)

ونيكيتا ستانسكو (2)

أغلقُ القصيدةَ العصماءَ

والحداثةَ المنغمسهْ

في مطر الغربِ

وفي ثلجِ الشمالِ،

أفتحُ النافذةَ المطلةَ

على حقول الشرقِ والغربِ،

وأسقي صُحفي من مائها،

هوائها،

وأستريحُ ساعةً

منْ تعبِ الطريقْ،

1- القيصره: المقصود اميراطورة اليابان "مِشيكو" في اشارة الى مجموعتها الشعرية (مجرى التيار) التي تحوي قصائد كتبتها بين عامي 1990 – 2007 وهي قصائد قصيرة تتألف كلّ قصيدة من خمسة اسطر تتحدث عن الطبيعة

2- نيكيتا ستانسكو: شاعر روماني 1933 – 1983 في اشارة الى مجموعته (انحناء الشمعة).

*** الأربعاء 2009/11/11**

الساعةالثالثة عشرة

تتوالى أحلامُ اليقظةِ

في دفترِ طياتِ العمر،

في خمسينات وستينات القرنِ الراحلِ

كانَ يجوبُ

فوقَ نصالِ القرنِ الغربي

يحلمُ

أنْ يضعَ وسادةَ أرض الغربِ

تحت الرأسِ،

وينامُ

فوق حصانِ كاري كوبر وبرت لانكستر

ونهدي مارلين مونرو وبريجيت باردو

يرقصُ

مع زوربا اليوناني،

كانَ يحدّقُ

في تلك السماءِ السمراءِ

فيرى مطراً

يهطلُ في عينيهِ

من فوق "مرتفعات ويذرنج"،

ينسلُّ خفيفاً

مثلَ الريشةِ

في مهبِ الريح

خلف حدود الأوهامْ،

وينامْ

في "ميراثُ الريحْ"

وصدى سبنسر تراسي وفردريك مارشال،*

يحلمُ

أنْ يمتطيَ

صهوةَ طائرةٍ

صوب اليوتوبيا الأرضية

الوهمية

عبر الأرض اليباب

و ت. س. اليوت،

قرأ كثيراً

عنْ أبواب هواء حقول الحريةِ

هناك،

عن الثورةِ هزّتْ أركانَ العالمِ

في عشرة أيامْ،

عن مایاكوفسكي،

لوركا،

نيرودا،

حين تُشرعُ تلك الحريةُ

ذراعيها

يُخرجُ أناملَه المدفونةَ

في مقبرةِ التاريخ الجماعيةِ

ليخطّ حضارةَ هذي الأيام

في ناموس الصخرةِ ،

يحلمُ هذي الأيامَ

برمالِ الصحراءِ الشرقيةِ

أنْ تمتدَّ

لتنامَ

على وسادةِ قلبهْ،

فيفيقُ وشمسُ ظهيرتها

تُشعلُ رأسَ قصيدتهِ

منْ أول ايام ولادتها،

قالَ الحلمُ يوماً:
إنّ النائمَ فوق حريرِ يديَّ

يستيقظُ مخمورَ العينينْ،

وسيأتي الليلُ الآخرُ

مقسوماً نصفينْ،

نصفاً في قدحِ الخمرةِ ممتزجاً

بسرابِ الخيلْ،

نصفاً يشربهُ عواءُ الليلْ

* ميراث الريح (Inherit the wind): مسرحية امريكية كتبها عام 1955 كلٌّ من (جيرومي لورنس) و (روبرت أدوين لي)، تتحدث عن قصة وقعت عام 1925 في ولاية تنيسي بأمريكا لمدرس درس تلاميذه نظرية داروين في النشوء والارتقاء فحوكم بتهمة الإساءة للدين حيث كانت قوانين الولاية تمنع تدريس أية نظرية في الخلق تخالف ما جاء في الانجيل. أُنتجت المسرحية في عدة أفلام أولها عام 1960 وقد مثل فيها عملاقا الشاشة الأمريكية سبنسر تراسي وفردريك مارشال.